



بلزك  
المهارة الانسانية

# المرأة في الثلاثين

نوفيس

دراسة طباع  
مشاهد من الحياة الخاصة

ترجمة

ميسيل هنوري

روايات بلزك ٣٦



بلزك  
المهارة الإنسانية

# المراة في الثلاثين

دراسة طبائع

مشاهد من الحياة الخاصة

ترجمة

ميشيل خوري



منشورات وزارة الثقافة  
في الجمهورية العربية السورية  
دمشق ٢٠٠١

BALZAC

La Comédie humaine

LA FEMME DE TRENTE ANS

Études de Mœurs

Scènes de la Vie Privée

---

المرأة في الثلاثين: دراسة طبائع مشاهد من الحياة الخاصة - La Femme de  
Trente ans / بلزك ترجمة ميشيل عسوري . - دمشق : وزارة الثقافة ،  
٢٠٠١ . - ٢٢٣ ص ؛ ٢٤ سم . - ( روايات بلزك ؛ ٣٦ ) .

١- ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموازي  
٤ - بلزا ٥ - عوري ٦ - السلسلة . مكتبة الأسد

---

الإيداع القانوني : ع - ٢٠١٥ / ١٠ / ٢٠٠١

روايات بلزك

«٣٦»

الإهداء

مهداة إلى

لويس بولانجه،

الرسام

---

هذه الهدية الإهداء، في نسخة قرون وهو موجهة إلى الرسام د. بولانجه (١٨٠٦، ١٨٦٧) الذي رسم صورة  
لنرك في ثوب راعب، عرضت في صالون ١٨٣٧.

١٥٠

١٥١

## مقدمة طبعة بييه BÉchet

( ١٨٣٤ )

تساءل عديد من الأشخاص عما إذا لم تكن بطللة الموعد، وامرأة في الثلاثين، وإصبع الله، واللقائين، والتكفير عن الذنب، الشخصية نفسها بأسماء مختلفة. ولم يستطع المؤلف أن يعطي جواباً. لكن فكرته ستتوضح على الأرجح في العنوان الذي يضم هذه المشاهد المختلفة؛ فالشخصية التي تعبر إن صح القول اللوحات الستة التي تألف منها الحكاية نفسها ليست وجهاً وإنما هي فكرة. وكلما اكتشفت هذه الفكرة بالبسة أكثر تبايناً عبرت بشكل أفضل عن نوايا المؤلف. وهو يطمح أن ينقل إلى الروح حالة مبهمة من أحلام اليقظة تستطيع النساء من خلالها إيقاظ بعض انطباعاتهن الحبية التي احسفنن بها، وأن يحيي الذكريات المتناثرة في الحياة، ليستخلص منها بعض العبر. وقد وجدت فجوة كبيرة في هذا التصميم بين الموعد والمرأة في عمر الثلاثين مالاها المؤلف بفضل جديد يحمل عنوان آلام مجهولة. ستهي النساء دون شك المراحل الانتقالية غير المكتملة، لكن الشيء المستحيل هو أن يفهمها الجميع بالطريقة نفسها. أين الديانة التي لم تكن مادة لأقوال متناقضة؟ ليس من الجنون أن نطلب لمؤلف هزبل، أعدته إنسان، الخطوة التي لم تحصل عليها مؤسسات إنسانية. مثل الديانات. ووجهت للمؤلف ملامات أخرى تتعلق بالاختفاء المفاجئ لشابة في اللقاء؛ لكن يوجد في المؤلف كله عدم ترابط أكبر من ذلك إن أراد المؤلف أن يتسفيد بمنطق لا تمتلكه أحداث الحياة. ويمكنه أن يقول هنا إن التحديدات الأكثر أهمية تتخذ دائماً في لحظة؛ وإنه أراد أن يظهر الأهواء السريعة، والتي نخضع كل الوجود لفكرة يوم واحد. لكن لماذا يحاول أن يشرح بالمنطق

---

• الحكاية نفسها: هو العنوان المعطى لروايتها الرواية ثم حل محله العنوان الخالي اسمرأة في الثلاثين (م. المترجم).

ما يجب أن يفهم بالعاطفة؟ عدا عن أن كل تبرير سيكون خاطئاً أو دون جدوى في نظر أولئك الذين لا يستوعبون الغائبة الخفية في اللقاءين ، والتي تشكل عناصرها المقطع المعنون إصبع الله المزيد في هذه الطبعة بفصل يعلل على الأرجح ، بشكل أفضل ، هرب الابنة الشرعية المطرودة بحقد أم صارمة لا تريد أن تقرأ بذنبها . هذه الأنواع من الأحداث أقل ندرة مما يعتقد . بالرغم من أن للحياة الاجتماعية ، كما للحياة الطبيعية قوانينها التي تبدو في الظاهر ثابتة ، فإنكم لن تجدوا في أي مكان الجسم أو القلب المنتظمين كما في علم مثلثات جندر\* . وإذا تعذر على المؤلف أن يرسم جميع نزوات تلك الحياة المضاعفة ، فيجب أن يُسمح له على الأقل بأن يختار منها ما يبدو له الأكثر شاعرية .

بلازك

باريس ٢٥ آذار ١٨٣٤

---

● جندر Le GENDRE ، أدريان ١٧٥٢٠ ، ١٨٣٣ : عالم رياضيات فرنسي (الترجم).



## الأخطاء الأولى

كان ضحى أوكل يوم أحد من شهر نيسان ١٨١٣ يَعدُّ بطقس جميل رأى فيه الباريسيون لأول مرة من السنة شوارعهم دون وحول، وسماءهم دون غيوم. ومررت قبل ظهر ذلك اليوم عربية فخمة يجبرها حصانان مطهَّمان من شارع كاستيغليون إلى شارع ريقولي، وتوقفت خلف عدة عربات متماثلة اتخذت مكاناً لها خلف الحاجز المشبك الذي فتح مجدهاً وسط مصطبة دير فويان. وكان يقود هذه العربية الرشيقه رجل ذو مظهر سقيم مهموم، يكاد شعره الرمادي لا يغطي صلته الشاحبة فيبدو عجوزاً قبل أوانه، ورمى الرجل أعنة الخيل لخدم يتبع العربية على حصان ونزل ليأخذ بين ذراعيه فتاة لفت جمالها الناعم أنظار المتزهرين على المصطبة، استسلمت له بلطف كي يمكها من خصرها وهي على حافة العربية وأحاطت بذراعيها عنق مرافقها الذي وضعها فوق الرصيف، وكان حريصاً حرص العاشق على ألا يدعك حليات ثوبها الأخضر. كان ذلك المجهول والد تلك اليافعة التي تأبطت، دون تكلف أو شكر، ذراعه وقادته بسرعة إلى الحديقة. ولاحظ الأب الكهل نظرات الإعجاب تشع بها أعين الشباب فامتحت للحظة علامات الحزن التي تكسو وجهه؛ وبالرغم من أنه تجاوز، منذ مدة طويلة، السن الذي يجب فيه أن يقتنع الرجال دون مظاهر المتع الخداعة التي يمنحها الزهو، فإنه أخذ ينسم، وانتصب مختلاً بقاتمه ومشى متباطئاً وهمس في أذن الشابة المترعجة من تمهله:

- يبدو لي أن المارة بحسبونك زوجتي.

إنه يدلل كثيراً ابنته، ويستمتع أكثر منها على الأرجح، بغمزات الفضوليين وهم ينظرون إلى قدميها الصغيرتين في حذائها العالي الكعبين<sup>(١)</sup>، القام اللون، وقامتها المشوقة التي يرسم معالمها ثوب دون كمين يكشف عن عنق نضر تحيط به قبة صغيرة مطرزة، وحركة السير ترفع أحياناً هذا الثوب وتتيح رؤية استدارة ساقَي الشابة المسوكتين في حسن تكوين ضمن جوارب مخرمة. وهكذا كان أكثر من متزّه يتجاوز الأب والابنة ليتأمل بإعجاب وجه الفتاة الناعم وبعض خصلات شعر ملنفة تمشج حولها بلونها الكستنائي اللعاب بينما يزيد من بياضه وتضريح حمرة انعكاس بطاقة قبيحة وردية أنيقة، والشوق ونفاد الصبر المتقدان على قسعات تلك الشابة الفاتنة، بينما يشع بعض مكر ناعم من عينيها السوداوين اللوزيتين الجميلتين بحواجهما المقوسة وأهدابهما الطويلة ولمعان بياضهما الصافي. كان الشباب والحوية سخيين بكنوزهما على ذلك الوجه المرح والصدر العاثر رغم الزنار المحيط بأسفل الثديين. كانت الفتاة لا مبالية بإعجاب من حولها، وهي تنظر بقلق تجاه قصر التويلري، وهو دون شك هدَف نزهتها المتدفة. كانت الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً، ورغم هذا الوقت المبكر فإن عدة نساء، كُنَّ جميعهن في زينة كاملة، وهن يعدن من القصر، ويتلفتن إلى الخلف بمظهر حرد، وكأنهن نادعات لحضورهن متأخرات، فساتهن المشهد الذي يرغبن بالاستمتاع به، وبدرت عن تلك المنزهات الفاتنات الخائبات الأمل كلمات تعبر عن مزاجهن المتعكر، وصلت بعضها إلى مسامع الفتاة المجهولة فألقتها. وكان العموز يرقب بنظرة يتعدى الفضول فيها السخرية، مظاهر نفاد الصبر والخشية التي تبدو على وجه ابنته الجذّاب، بل ويلاحظها بمزيد من العناية مستبعداً بعض المقاصد الخفية الأبوية.

كان هذا الأحد هو الثالث عشر من أيام أحياد سنة ١٨١٣، وانطلق نابوليون بعده بيومين في تلك الحملة المشؤومة التي خسرها على التتابع بسبب دوروك\*

(١) حذاء مسطح بعد من قماش صوفي أو حريري ويربط بشرط ويرتفع حتى وسط الساق.

\* ١- بسير: (١٧٦٨-١٨١٣): مارشال فرنسي قتل عشية معركة لوتزن.

٢- دوروك (١٧٧٢-١٨١٣) جنرال فرنسي من كبار قادة نابوليون.

وربح معركة كتي لوتزن ويوتزن التاريخيتين ، وفرجى بخيانات النمسة وساكس وبافارية وبرنادوت\*\* ، ونافس خصومه في معركة لايبزيغ الرهيبة . ووجب أن يكون العرض الرائع الذي يقوده الامبراطور هو آخر تلك العروض التي أثارت لمدة طويلة إعجاب الباريسيين والأجانب . فالجرس الامبراطوري القديم سبغذ لآخر مرة المناورات البارعة التي أدهشت بعظمتها ودقتها أحياناً هذا العملاق بالذات ؛ وهو الذي يتهبأ أنذاك لمبارزة كل أوروية ؛ مما ولد شعوراً بالحزن في نفوس تلك الجماهير الفضولية الغفيرة المتزاحمة أمام قصر التويلري ، فقد بدا كل واحد وكأنه يخمن المستقبل ، وقد يتوجس خشية من أن يضطر الخيال أكثر من مرة لرسم مشهد تلك اللوحة ، عندما كانت تلك الأزمنة الفرنسية البطولية قد التزمت ، كما في الوقت الحاضر ، بالوان شبه أسطورية .

- قالت الشابة ببيرة متدلفة تستحث أباهما : أسرع يا أبي ، فأنا أسمع قرع الطبول .

- أجاب الأب : إنها الفرق التي تدخل إلى التويلري .

- عقت الابنة بمראה طفولية دفعت الأب إلى الانبسام : أو تلك التي تسير في العرض فأنا أرى الناس يعودون .

- قال الأب وهو يسير خلف ابنته النزقة : لن يبدأ العرض قبل الثانية عشرة والنصف .

بخال لمن يرى حركة يدها اليمنى أنها تدفع أباهما إلى الركض ، وكانت تدعك بتفاد صبر بين أصابعها المكسوة بفقاز مندبلاً فيبدو ذراعها أشبه بمجذاف زورق يضرب الأمواج وكان الأب الكهل يضحك بين الفينة والأخرى ، لكن بعض مظاهر الغم تلوح بشكل عابر على وجهه الضامر الجاف ، فحبة لتلك المخلوقة الجميلة يدفعه إلى

---

●● برنادوت : ( ١٧٦٣ . ١٨٤٤ ) مارشال فرنسي ، نصب ملكاً على السويد ، تحالف مع روسية ضد نابليون وفرنسة بلاده .

الإعجاب بالحاضر والحشية من المستقبل ؛ وكأنه يقول في نفسه : إنها سعيدة اليوم ،  
فهل ستبقى كذلك؟ فالشيوخ ميالون إلى طرح همومهم على مستقبل الشباب .

بعد أن وصل الأب والابنة إلى باحة الرواق المعمدة حيث يرفرف في أعلى  
واجهتها العُلم المثلث الألوان والمنتزهون يتجولون ذهاباً وإياباً بين حديقة التويلري  
وميدان الفروسية ، سمعا أصوات الموظفين بصيحات بصوت أجش : قف ، لا  
يُسمح بتجاوز هذا المكان .

اشربت الفتاة بعنفها وهي تقف على رؤوس أصابع قدميها فرأت مجموعة  
من النساء المتزينات يقفن على جاتبي الرواق الرخامي ذي القناطر المتسوق خروج  
الاميراطور منه .

- أتري يا أبي ، وصلنا متأخرين .

كشف الحرد الظاهر على ملامح وجهها ما تعلقه من أهمية على مشاهدة هذا  
العرض .

- إيه ! وبعد يا جولي ، أنت لا تحيين أن يزحمتنا جمهور المتدافعين .

- لستيق يا أبي ، يمكنني من هنا أن أشاهد الاميراطور ، فإن يهلك في الحملة  
القادمة فلن أندم على نفويت فرصة رؤيته .

ارتعش الأب وهو يستمع إلى هذه الكلمات الأنانية المشائمة . كانت بحة  
بكاء تختلج في صوتها ، ونظر إليها وبداله أنه يلاحظ تحت أجفانها المقلبة بعض  
دمعات لم تنتج عن الغيظ ، بل عن تلك الهموم الأولى التي يسهل على الأب الحبير  
بالحياة كشف سرها .

وفجأة توردت وجتا جولي وأطلقت صيحة امتزج فيها الفرح بالتعجب ،  
لكن لم يدرك مضمونها الوالد الشيخ ولا الحراس الواقفون ، وعندها التفت ضابط  
كان ينطلق بسرعة من باحة القصر إلى السلاالم وغير اتجاهه بسرعة نحو رواق

الحديقة ذي الأعمدة ، فقد عرف صوت الشابة المحتجة خلف قبعات القذافين ذات الشرايات الكثيفة ؛ وخالف من أجلها التعليمات التي أعطاها هو نفسه دون أن يبالي بمهومات الجماهير المتأنقة المحيطة بالرواق وقاد بلطف الأب والابنة التي بدا عليها الحبور للقياء .

- قال الأب للضابط بلهجة تحمل الجد في معرض الهزل : لم أفاجأ بغضبها ولا باندفاعها . إذ إنك الآن على رأس عملك .

- أجاب الشاب : سيدي الدوق إن أردت أن تحظيا بمكان مناسب ، فهيا ولا نضع الوقت في الكلام ، فالامبراطور لا يحب الانتظار ، وأنا مكثف من قبل المارشال بالذهاب لإعلامه بجاهزية البدء بالاستعراض .

أمسك بيد جولي بنوع من الألفة وهو يتكلم وقادها بسرعة إلى ميدان الفروسيّة ؛ وأبصرت الشابة بدهشة جماهير غفيرة ترتص في المساحة الضيقة الواقعة بين أسوار القصر القائمة والسلاسل الممتدة بين الصوي التي ترسم مربعات واسعة مفروشة بالرمل وسط فناء التويلري وكان صف الحرس القائم لإفراح المجال لمرور الامبراطور وأركان حربه يجد صعوبة كبيرة كي لا تخترق صفه الجماهير المتزاحمة والهادرة ككفير نحل . سألت جولي مبتسمة : سيكون العرض على هذا القدر من الجمال إذن؟ . هتف الضابط الذي أحاط خصص جولي بذراعه ورفعها بجرأة وسرعة ليحملها إلى قرب أحد الأعمدة : خذي حذرك .

• لولا هذه الحركة المفاجئة لصدم هذه النسبية الفضولية الحصان الأبيض الجموح ذو السرج المخملي الأخضر المذهب الذي يمسك مقوده ملوك نابوليون قريبا من الرواق المعمد وعلى بعد عشر خطوات من جميع الخيول التي تنتظر كبار القادة مرافقي الامبراطور . ووضع الضابط الشاب الأب والابنة قريبا من أوك صوة على اليمين أمام الجمهور المحتشد ، وبإشارة من رأسه أوصى بهما اثنين من الجنود القذافين القريبين من الصوة . وعندما عاد الضابط إلى القصر أحس بمسحة من السعادة والسرور تزيح عن وجهه الذعر المفاجئ الذي سببه تراجع الحصان ؛ وكانت

جولي قد شدت على يده خفية ، سواء لشكره على الخدمة الصغيرة التي أداها لها أو لتقول له : أخيراً ها أنا أحظى برؤيتك ! بل إنها أحتت رأسها بعذوبة لتحيته الموقرة التي ألفاها عليها وعلى أبيها ، قبل أن ينصرف سريماً إلى تادية مهمته . أما الأب الكهل الذي ابتعد عن الشايين عمداً ، فقد حافظ على مظهره الرزين خلف ابنته ، لكنه كان يرقبها خلسة محاولاً أن يوحى إليها بأمان مزيف متظاهراً بالانصراف إلى تأمل مشهد ميدان الفروسية ! وعندما التفتت جولي إلى أبيها بنظرة التلميذ المتوجس من مهابة معلمه رد الأب بإتسامة جزلى متسامحة ، لكن عينه الثاقبة كانت تتابع الضابط حتى نهاية الرواق ولم يفته أي حدث من ذلك المشهد السريع .

- همست جولي وهي تضغط على يد أبيها : يا للعرض الرائع !

أطلق آلاف المشاهدين صيحة تعجب عاثلة ، والدهشة تعلو وجوههم لدى رؤية المظهر المهيب والظريف الذي يقدمه في تلك اللحظة ميدان كاروسل للفروسية<sup>(١)</sup> . وشغل صف متراص آخر من الناس كذلك الصف الذي يقف فيه الرجل الكهل وابنته ، وعلى خط مواز للقصر ، المساحة الضيقة والمرصوفة التي تمتد على طول شبك ميدان الفروسية . وأنهت هذه الجموع ، بتنع زينة النساء ، الرسم البين للمربع الواسع الذي تشكله أبنية التويلري وذلك الشبك الموضوع حديثاً . وكانت كتائب الحرس الامبراطوري القديم التي ستقدم العرض تملأ ذلك الميدان الفسيح ، حيث تظهر في مواجهة القصر خطوط هائلة زرقاء من عشرة صفوف ممتدة في العمق . وماوراء الأسوار وفي الميدان توجد على خطوط أخرى موازية كتائب مدفعية وخيالة مستعدة للسير في العرض تحت قوس النصر الذي يزين وسط

(١) ميدان الفروسية كاروسيل : ميدان قرب قصر التويلري كانت تتم فيه الاستعراضات العسكرية خاصة بمن الامبراطورية . وقد شيد فيه نابوليون بين عامي ١٨٠٦ و ١٨٠٨ قوس نصر كاروسل للحدوة لدخل قصر التويلري . وكان التويلري الذي بدي بيتانه في العام ١٥٦٤ مقر ملوك فرنسا ووسع عدة مرات حتى عدا قصوراً لكن لويس الرابع عشر فضل عليه فرساي ، وعادت إليه السلطة التنفيذية زمن الثورة واستمر مركزاً لها ، وأحرق قسم منه من قبل «كومونة باريس» الثورية . العام ١٨٧١ ، وهدم القصر نهائياً في العام ١٨٨٢ ، وقامت على قسم من موقعه حدائق التويلري الحالية .

الشبك؛ وفي ذروتها ترى في تلك الأوتة خيول البندقية الرائعة<sup>(١)</sup> وكانت الفرق الموسيقية لتلك الكتائب متجمعة في أسفل أروقة اللوفر وهي محتجة بالرماحين البولونيين القائمين على الخدمة. وفي قسم كبير من المربع المقروش بالرمل فارغاً كحلبة مخصصة لحركات هذه الكتائب الصامدة ذات الكتل المنتظمة وفق تناسق الفن العسكري التي تعكس أشعة الشمس بالبريق المثلث لعشرة آلاف حربة. وكانت هذه الصفوف العريقة الصامدة والبراقة تعرض آلاف الشباينات الملونة الناتجة عن تنوع الزيات العسكرية والزينات والأسلحة والأشرطة المجدولة المزخرفة. هذه اللوحة الواسعة تمثل ميدان معركة مصغر قبل بدء القتال وهي محاكاة شاعرياً بجميع توابعها وأحداثها الغربية بهذه الأبنية العالية المهيبة التي يبدو أن القادة والجنود يقلدون نباتها، فالمشاهد يقارن لا إرادياً هذه الجُدُر من البشر بتلك الجُدُر من الحجر. وكانت شمس الربيع التي تسكب فيضاً من أشعتها على هذه الجدران البيضاء التي بنيت في العشيّة وعلى تلك الجدران العائدة إلى قرون ماضية تضيء كلياً هذه الوجوه المسمرة العديدة التي تتحدث جميعها عن الأخطار الماضية، وتنتظر برصانة الأخطار المستقبلية. وكان عقدها كل كتيبة يسرون ذهاباً وإياباً أمام الجباه التي يشكلها هؤلاء الرجال الشجعان، ثم خلف كتل هذه الفيالق المبرقشة بالفضة واللازورد والأرجوان والذهب، وتمكن الفضوليون من مشاهدة الرايات الثلاثية الألوان ترفرف فوق رماح ستة فرسان بولونيين أشداء لا يعرفون الكتل أو الملل، وهم أشبه بكلاب تفود القطيع على طول حقل شامع الأطراف وهم يخشون دون توقف بين الفيالق العسكرية وجماهير الفضوليين ليمنعوا هؤلاء من تجاوز الحيز الضيق المخصص لهم قرب شبك القصر الامبراطوري؛ حتى ليظن الناظر لهذه الحركات أنه في قصر حسناء الغاية النائمة، وأنسام الربيع التي تداعب شرابيات قبعات القذافين تشهد على ثبات الجنود، بينما تشير تجمعات الجماهير إلى صمتهم. وأحياناً فإن قرع أحد الصنوج، أو ضربة خفيفة

(١) كان يعلو فوس نصر كاروسل شمال حربة قتال من البرونز ذات دولابن ونجرها أربعة أحصنة وقد أُنشئ نابوليون بهذا الشمال من كنيسة القديس مرفس (سان مارك) من البندقية، العام ١٨٠٩ لكنه أُعيد إليها في العام ١٨١٥، في عهد الملكية الثانية، واستبدل به شمال مماثل من صنع المثال الفرنسي فرنسوا جوزيف بوزيو.

تحدث سهواً على أحد الصناديق الكبيرة يتردد صداها في أنحاء القصر الامبراطوري أشبه بهزيم رعد بعيد يعلن قدوم العاصفة. ويتفجّر عندئذ حماس لا يوصف بين الجمع الغفير المنتظرة فرنسة متوجهة لوداع نابوليون عشية حملة يشعر بأخطارها أي مواطن، حملة على نتائجها يتوقف مصير الامبراطورية الفرنسية هذه المرة فيما أن تسوطد أو أن تزول، تكون أو لا تكون. كانت هذه الفكرة تحمرك الجموع المدنية والجموع العسكرية، التي تتزاحم على حد سواء صامتة ضمن الحرم الذي يحوم فوقه نسر نابوليون ونهيمن عليه عبقريته. هؤلاء الجنود أمل فرنسة والنقطة الأخيرة من دمها، هؤلاء الجنود سبب رئيس لفضول المشاهدين القلق. فبين معظم الحضور والعسكريين كانت تتبادل كلمات الوداع التي قد تكون الأخيرة؛ لكن جميع القلوب، حتى الأكثر عداً للامبراطور، كانت توجه إلى السماء بأحر التصرعات لتحقيق نصر الوطن. والرجال الذين كلوا من الصراع الناشب بين أوروبا وفرنسة تخلوا عن أحقادهم وهم يبرون تحت قوس النصر، وقد أدركوا أن نابوليون هو كل فرنسة عندما يحيق الخطر بها. وعندما رنت ساعة القصر تعلن الثانية عشرة والنصف توقفت غمتمات الجماهير، وعم الصمت العميق حتى لاتسمع كلمة طفل. وأمكن للرجل الهرم وابته وكلهما أعين، أن يميزا ضجة المهاميز وصليل السيوف وهي ترن تحت رواق القصر ذي الأعمدة.

وفجأة برز رجل قصير القامة، مئلى الجسم يرتدي سترة عسكرية خضراء وسرواً أبيض اللون ويتعلل جزمة فروسية، ويعتمر قبعة ثلاثية الفرون تتجلى فيه مهابة مثال مهابة الرجل؛ وشريط جوقة الشرف الأحمر العريض يختال مزهواً على صدره، وسيف قصير يبرق على جنبه؛ وتوجهت جميع الأعين من جميع الجوانب إليه، وبدأت الطبول تفرع من جميع أنحاء الميدان وصدرت عن الفرقتين الموسيقيتين عبارة موسيقية رددت تعبيرها الحربي جميع آلات النغم من أعذب النايات حتى أضخم الطبول. وارتعشت النفوس عند سماع هذا النداء الحربي ورفرفت الأعلام، وقدم الجنود أسلحتهم بحركة منتظمة إجماعية حركت البنادق من الصف الأوك حتى الصف الأخير في ميدان الفروسية. وانطلقت إيعازات الأمر من صف إلى صف



كالأصداء، وتعالَت هتافات الجماهير المتحمّسة: يحييا الامبراطور. أخيراً انتفض كل شيء، وتحرك، وارتجّت الأرض: ف نابوليون قد امتطى حصانه. وسكبت هذه الحركة الحياة في تلك الكتل الصامتة وانطلقت أصوات الآلات فأوقدت الحماسة في البيارق الحاملة لشارات النسر وفي جميع الرايات، وأبرقت الأسارير انفعالاً وبدت جدران أروقة ذلك القصر القديم العالية كأنها تهتف أيضاً: يحييا الامبراطور! كان هذا شيئاً خارقاً فوق استطاعة البشر، إنه السحر، أو هو طيف القدرة الإلهية، أو بالأحرى صورة هاربة لهذه المملكة الأكثر هروباً وبقي الرجل المحاط بكل هذا الحب، والحماسة، والتضحية، والأمنيات؛ الرجل الذي أزاحت الشمس من أجله الغيوم عن قبة السماء، بقي هادئاً على صهوة حصانه، وثلاث خطوات تفصله عن سرية القيادة الصغيرة خلفه، وعلى يساره المارشال الأوّل في الجيش، وعن يمينه مارشال الخدمة، وفي صميم هذه الانفعالات التي أثارها من حوله لم تختلج قسمة من قسّمات وجهه.

- أوه! يا إلهي، نعم. في وغرام\* وسط النيران، وفي موسكوفا\*\* بين القتلى، كان دائماً هادئاً كالمعدان. إنه هو.

كان هذا هو جواب التساؤلات العديدة الذي هتف به القذاف الذي وجد قرب الشابة. وكانت جولي قد استغرقت مدةً في تأمل هذا الوجه الذي يشير هدوؤه إلى ثقة كبيرة بالقدرة واطمئنان لها. ولاحظ الامبراطور الأنسة دي شاتيونست، ومال نحو دوروك ليهمس له بعبارة قصيرة ابتسم لها المارشال الكبير. وبدأت المناورات. وإذا كانت الشابة حتى ذلك الحين قد وزعت انتباهها بين وجه نابوليون الرابط الجأش وصفوف الكتائب الزرقاء والخضراء والحمراء؛ فإنها انصرفت بعدها كلياً، وسط الحركات السريعة والمنظمة التي ينفذها هؤلاء الجنود القدامى، إلى تركيز أنظارها

● وغرام Wagram: قرية شمال شرق فيينا جرت فيها معركة بين الجيوش النمساوية والروسية ونابوليون وتمكن نابوليون من إحراز النصر في نهايتها بتاريخ 6 تموز 1809.

● موسكوفا: القصد بذلك معركة موسكو بين نابوليون وفييسر روسيا. وقد اجتاحتها الجيش الفرنسي في 1812 لكنه اضطر للانسحاب منها بعد أن أحرقها الروس.

على ضابط شاب يجري بحصانه وسط الصفوف المتحركة ويعود بعد ذلك بحوية لا تكل نحو رهط القادة الذين يتقدمهم نابوليون المتواضع . كان هذا الضابط يمتطي حصاناً رائعاً أسود اللون ؛ ويتميز وسط هذه الجموع المزركشة بيزة جميلة بلون أزرق سماوي خصّ به الضباط المرافقون للإمبراطور ؛ وكانت توشيات بزّته تبرق ساطعة مع أشعة الشمس ، وقزعة الريش على قبعة العسكرية الضيقة والطويلة تتلقى مزيداً من البريق الشديد حتى ليحسبها المشاهدون من نيران الجنّ أو أنها روح غير مرئية كلّفها الإمبراطور بتحفيّز وقيادة هذه الكتائب التي تلقى أسلحتها المتوجّهة للهب .

عندما بإشارة واحدة من عينيه ، تنكسر ، وتتجمع ، وتدوم كدرودور هوة عميقة ؛ أو تمرّ أمامه كهذه الأمواج الطويلة والمستقيمة والعالية التي يوجهها المحيط الغاضب نحو شطّانه . عندما انتهت المناورات جرى الضابط المرافق بسرعة ، ووقف أمام الإمبراطور منتظراً الأوامر . وفي هذه اللحظة كان على بعد عشرين خطوة من جولي وأمام رهط الإمبراطوري فيما يماثل الموقف الذي أعطاه الرسّام جبرار للجنرال راب\* في لوحة معركة أوسترليتز وأتيح للفنان عندئذ أن تنظر بإعجاب لحبيها في كل بهائه العسكري . فالعقيد فيكتور دي إغلمون لم يبلغ الثلاثين من العمر ، طويل القامة ، مكتمل البنيان ، أبيض القدّ . ويبدو حسن التناسق والانسجام أفضل ما يكون عندما يستخدم قوّته في التحكم بحصانه الذي يبدو ظهره الأنيق والمرن محنياً تحته . وقد امتلك وجهه الرجولي الأسمر تلك الجاذبية التي لا تُفسّر و يشيعها انتظام القسامات الكامل على الوجوه الشابة . كان جبينه عريضاً عالياً ، وعيناه الناريّتان يظلّهما حاجبان كثيفان وتحدّهما أهداب طويلة ، وهما ترنسمان كشكلين بيضوين بين خطين أسودين . أمّا أنفه فيبدي تلك الانحناءة الظرفية المميّزة لنسر العقاب . وأرجوان شفّته يتزيّن بانعطافتي الشارب الأسود المحتمتين . ووجتاه العريضتان

١ - (١ - جبرار (فرانسوا) ١٧٧٠-١٨٣٧ ، رسّام فرنسي اشتهر برسوم نابوليون وفادته ومعاركه .

٢ - راب Raph : (١٧٧٢ - ١٨٢١) من قادة نابوليون ، عينه حاكماً على دانتزيغ (١٨١٣) دخل في

خدمة لويس الثامن عشر بعد عودة الملكية إلى فرنسا .

القيوتان المتوردتان مع ظلال سمرة وصفرة تعبران عن حيوية فائقة . ووجهه وهو أحد هذه الوجوه التي تدمغها البسالة بطابعها ، نموذج يبحث عنه فنان العصر عندما يفكر بشمائل أحد أبطال فرنسة الامبراطورية . كان العرق يتصبب من الحصان الذي يهزّ هامته معبراً عن نفاذ صبر بالغ ، وقامتاه الأماميتان متباعدتان ومتركزتان على خط واحد دون أن تتقدّم أيّ منهما على الأخرى ، وهو يوجّه هُلب أشعار ذنبه الطويلة الكتّة ، وهو في إخلاصه يقدم صورة مادية لإخلاص فارسه للامبراطور .

أحسّت جولتي للحظة بالغيرة عندما لاحظت انصراف حبيبها إلى لفت أنظار نابوليون وعدم اهتمامه بالفتات إليها . وفجأة ألقى العاهل كلمة ، همز بعدها فيكتور خاصرتي حصانه الذي اندفع بجري لكن ظلّ إحدى الصوى الممتد على الرمال أخاف الحيوان ، فنقّر وتراجع وانتصب على قائميه الخلفيتين فجأة فبدأ فارسه في خطر ؛ وصرخت جولتي وشحب لونها والثفت إليها من حولها بفصول ؛ لكنها لم تر أحداً فعيناهما مسرّتان على هذا الحصان الوثاب بانفعال الذي عاقبه الضابط على جموحه مع جربه لتبليغ أوامر نابوليون .

شغلّت هذه اللوحات المذهلة بال جولتي حتى أنها تعلقت بذراع والدها ، فكشفت له دون إرادة منها عن أفكارها بأصابعها التي كانت تتحرك وتضغظ وفقاً لمجريات الأحداث . وعندما أوشك فيكتور أن يسقط عن ظهر حصانه تعلقت بعنق بالدها وكان خطر السقوط قد وقع عليها . وتأمل العجوز بقلق قائم مؤلم وجه ابنته الشاحب ، وبدت على تجاعيد وجهه المتغضنة عواطف الشفقة والغيرة بل والأسف . ولكن عندما كشف بريق عيني جولتي والصبيحة التي أطلقتهما ، وحرّكة أصابعها المتشنجة حينها الخفي ، تجلّت أمام الأب رؤى مستقبل حزينة وظهر على وجهه تعبير مشؤوم . وفي هذه اللحظة بدت روح جولتي وكأنها حلّت في روح الضابط ، وما لبثت فكرة أفسى من جميع ما سبق أن روّعت العجوز قسّمت وجهه المتألم ، عندما رأى دي إغلمون ، عند مروره أمامها ، يتبادل مع جولتي المخلّصة العينين ، والتي أشرقت أساريرها بحيوية فائقة ، نظرة تواطؤ وتفاهم ، مما دفع العجوز ليفقد ابنته فجأة إلى حديقة التويلري .

- قالت معترضة: ولكن يا أبي ما تزال بعض الكتائب تناور في ساحة ميدان الفروسيه.

- كلا، يا ابنتي، فجميع الفرق قامت بعرضها.

- اعتقد يا أبي أنك مخطئ، فقد ذهب السيد دي إغلمون ليقدمها. . .

- لكنني متضايق يا بنتي، ولا أريد البقاء.

لم نجد جولي عناءً في الاقتناع بقول أبيها عندما وجهت ناظرها نحوه ورأت المظهر المتداعي الناتج عن قلقه الأبوي.

سأته بلا مبالاة لشدة انشغالها: هل تتألم كثيراً؟

أجاب العجوز: أليس كل يوم من حياتي منتهً من الله علي؟

- ستكدرني إذن بالجديث عن موتك. كنت منشرحة النفس! فاطرد هذه الأفكار السوداء القبيحة.

- هتف الأب وهو يتنهّد: أه! أينها الابنة المدللة! إن أطيب القلوب تقسو أحياناً.

نفذ لكم حباتنا، ولا تفكر إلا بكم، ونعمل لرفاهكم، ونضحى بكل ما نشتهي لإرضاء نزواتكم، ونعبدكم، ونبذل دمننا من أجلكم. أهذا إذن، لاشيء؟ للأسف نعم، تقبلون كل شيء بلا مبالاة، ومن أجل الحصول دائماً على ابتساماتكم، وحكم المستخف يجب امتلاك القدرة الإلهية. وفي النهاية يأتي شخص آخر! عاشق، أو زوج فيتنزع منا قلوبكم. نظرت جولي مندهشة إلى أبيها الذي كان يسير بيظه وهو يلقي عليها نظرات نخلو من كل بريق.

واستأنف الأب: حتى أنكم تحتجون عنا، وربما عن أنفسكم. . .

- ماذا تعني بهذا القول يا أبي؟

- أعني أن لك أسراراً تخفيها عني يا جولي. إنك عاشقة. وتابع العجوز بحرارة وهو يرى حمرة الخجل تصبغ وجنتي ابنته. أه! كنت أمل أن أراك أمينة

لوالدك الشيخ حتى موته، كنت أمل أن احتفظ بك قربي سعيدة، متألفة! أن أتأملك بإعجاب كما كنت حتى عهد قريب. كنت أستطيع، وأنا أجهل نصيبك، أن أؤمن بمستقبل هادئ مطمئن لك. أما الآن فيستحيل أن يخالجنني الأمل بسعادتك في الحياة، لأنك تحبين فيكتور العقيد أكثر من حبك له كابن عم. لا يعنونني أي شك بذلك الآن.

- هتفت جولي بتعبير يملؤه الفضول: ولماذا يُحرّم علي حبة؟

- أجاب الأب منهدأ: أه! يا ابنتي الحبيبة جولي، إنك لن تفهميني أبداً.

استأنفت الشابة بعد أن بدرت منها حركة تبرّم: قل ما يجول في خاطرك.

- إيه! وبعد، يا ابنتي، اسمعي. إن الفتيات يتكرن غالباً صوراً رائعة نبيلة؛ ووجوهاً مثالية، ويستدعن أفكاراً خيالية عن الرجال، والمواطف، والعالم؛ ثم ينسبن ببراءة لطبع امرئ الفضائل التي حلّمن بها، ويتقن به، يحبن في الرجل الذي اخترته ذلك المخلوق الخيالي؛ ولكن فيما بعد، وبعد فوات الأوان على تحررهن من الشقاء، ومن المظهر الحدّاع الذي جعلته، يتغيّر معبودهن الأول، أخيراً، إلى هيكل بغض محموت. جولي أفضل أن تعشقي عجوزاً على أن أراك عاشقة للعقيد. أه! لو أن بإمكانك أن تستشقي حياتك بعد عشر سنوات معه لأدركت صحة رأيي. إنني أعرف فيكتور: إن مرّحه خال من الروح، مرح الثكنة، وهو دون موهبة، ومبذّر. إنه أحد هؤلاء الرجال الذين خلقتهم السماء ليتناولوا أربيع وجبات في اليوم وليهضموها، وليناموا ويحبوا أوك وافدة ويقائلوا. إنه لا يسمع صوت الحياة وقلبه الطيب، لأنه ذو قلب طيب، قد يدفعه إلى أن يهب كل ما في محافظته لسكين، أو لصديق محتاج، لكنه لا مبال، ولم يوهب القلب المرفه الذي جعلنا عبيداً لإسعاد امرأة؛ إنه جاهل، وأناثي... إن محاذيره كثيرة.

- ولكن يا أباي، يجب أن يمتلك الروح والوسائل التي أهلته ليصل إلى رتبة عقيد..

- استأنف الأب الشيخ: يا عزيزتي، سيبقى فيكتور عقيداً طيلة حياته. لم أكن

حتى الآن شخصاً يبدو لي جديراً بك . وتوقف لحظة وتأمل ابنته وأصاف : ولكن يا حبيبتي جولي ، ما تزالين في مطلع الشباب . في منتهى الضعف والرقه لتحمل هموم الزواج ومتاعبه . دلال أهل دي إغلمون ولدهم ، كما دلتناك أنا وأمك ، فكيف تتوقعان أن باستطاعتكما التفاهم بهاتين الإرادتين المختلفتين اللتين لا يمكن التوفيق بين جبروتيهما؟ ستكونين الضحية أو الطاغية ، وكل من هذين الاختيارين يحمل قدراً مساوياً من التعاسة لحياة امرأة . وأنت ناعمة ومتواضعة ، وستدعين في البدء . ثم أردف بصوت متهدج ، أخيراً أنت تملكين إحساساً مرهفاً لن يُقدَّر ، وعندئذ . . . وغلبته الدموع فلم يتم كلامه ، لكنه عمالك نفسه واستأنف : سيجرح فيكتور المزايا الطيبة في روحك الشابة . إنني أعرف العسكريين ، يا جولي ، فقد عشت بين الجيوش ؛ ومن النادر أن يتمكن قلب هؤلاء الأشخاص من الانتصار على العادات المكتسبة ، أو على المصائب التي يعيشون في خضمتها ، أو على مصادفات حياتهم المغامرة .

عقبت جولي بלהجة اختلط فيها الجذب بالهزل : أتريد إذن يا أبي معاكسة عواطفني ، وتزويجي من أجلك لا من أجلي ؟

- صاح الأب وقد انتابته الدهشة : أزوجك من أجلي ! يا ابنتي ، أنا الذي سيفيق قريباً صوتته الموبخ بشكل حسي عنك . كنت أرى دائماً الأولاد يعززون تضحيات أهلهم لهم إلى عاطفة شخصية ! تزوجني فيكتور يا جولي ، يا ابنتي ، وفي يوم ستأسفين بمرارة لعدم كفاءته ، وفوضاه ، وأنانيته ، وفظاظته ، وحمافة نظرته للحب ، وغيرها من الهموم التي سببها لك . وعندئذ تذكرني كلمات أبيك العجوز التيبية التي رنت عينا تحت هذه الأشجار ولم تسمعها أذنك ! .

صمت العجوز فقد فاجأته وهي تهز رأسها بطريقة متعمدة . وسار الاثنان بضع خطوات نحو الشبك حيث أوقفا عربتهما . وخلال ذلك السير الصامت نظرت الشابة خلسة إلى وجه والدها ، وتخلت تدريجياً عن هيئتها الحردة ، ولاحظت الألم العميق المنقوش على ذلك الجبين المطأطئ نحو الأرض مما أثر في نفسها تأثيراً عميقاً .

- قالت بصوت عذب متهدج: أعلك يا والدي ألا أتطرق إلى ذكر فيكتور قبل أن يتبين لك خطأ شهبانك فيه.

نظر العجوز إلى ابنته بدهشة، وتدحرجت دمعتان من عينيه فبللنا وجتبه المجدعتين. ولم يتمكن من تقبيل جولي أمام الجماهير المحيطة به، لكنه شد بحنان على يدها. وعندما صعد إلى العربة اختفت كلياً جميع الأفكار المقلقة التي تراكمت على جبينه. فمظهر ابنته المشوب ببعض الحزن يقلقه الآن أكثر من البهجة البريئة التي كشفت سرّ جولي خلال الاستعراض.

في الأيام الأولى من شهر آذار ١٨١٤، بعد مضي أقل من سنة على العرض الامبراطوري، كانت عربة تسير على طريق أمبواز-تور. وبعد أن تركت أيكّة أشجار الجوز الخضراء حيث تحتجب محطة استراحة الخيل في فريبير جرت العربة بسرعة فوصلت بعد مدة قصيرة إلى الجسر المني على نهر السيز عند مصبه في اللوار، وعندئذ انقطع أحدمجارها\* عقب الاندفاع العاصف الذي مارسه حوذي شاب، بأمر من سيده، على الخيول الأربعة البديلة الأكثر نشاطاً. وهكذا تمكّن الشخصان الموجودان في العربة عند استيقاظهما من أن يتمتعا بمحض مصادفة، بتأمل أحد أجمل المواقع التي تقدمها شطآن اللوار الرائعة. فعلى يمين المسافر يعانق النظر جميع تعاريف السيز الذي يجري كأفعى فضية في عشب المروج التي تمنحها خضرة الربيع الأولى لون الزمرد، وإلى اليسار يظهر اللوار بكل بهاته، ووجبهات بعض التمزجات التي لا حصر لها الناتجة عن نسعات الصباح الأولى الباردة قليلاً، تعكس تلالوات جزر مخضوضرة على صفحة المياه كجواهر قلادة ثمينة. ومن الجهة الأخرى من النهر تعرض أجمل أرباب تورين على مدى النظر كتوزها؛ وفي الأفق البعيد لاتصادف العين حدوداً أخرى غير هضاب شير التي ترسم قممها في هذه اللحظة خطوطاً مضيئة في لآزورد السماء الشفاف. وعبر خضرة الجزر البانعة في عمق

\* الحجار: جمع محرّج، والحجرّ حبل أو رباط من جلد يُقرن به حصان الخمر إلى العربة.

اللوحة تبدو مدينة تور كأنها البندقية خارجة من المياه، وأبراج أجراس كاندرائيتها القديمة تتعالى في الأجواء لتختلط مع بعض أشكال خيالية لغيوم مبيضة. وما بعد الجسر الذي توقفت عليه العربة، يلاحظ المسافر أمامه، على طول اللوار حتى مدينة تور، سلسلة من الصخور تبدو الطبيعة وكأنها بزوة منها، قد وضعتها لتحصر النهر الذي تحته أمواجه دون انقطاع الحجر في مشهد يثير دائماً الدهشة. وهجعت قرية فوئري في خاتق ركام هذه الصخور الذي بدأ يرسم منعطفاً أمام جسر سيز ثم من فوئري حتى تور تسكن عائلات من الكرامين بين التعرجات والنبات المقرطة في تلك الهضبة الممزقة؛ وفي أكثر من مكان تدرج منازل محفورة في صخور سفوحها بحيث تصل إلى ثلاثة طوابق تصل فيما بينها سلالم خطيرة منقوشة في الصخر بالذات، وفي أعلى سطح تشاهد شابة بتنورة حمراء تركض باتجاه حدبقتها الموازية لذلك السطح، بينما تنصب مدخنة مدفأة ذلك المنزل بين سرع الكرمة وحجنتها\*، والبستانيون يفلحون الحقول المتعامدة، وامرأة عجوز تجلس هادئة فوق شير صخر تدير دولا ب مغزلهما تحت أزهار شجرة لوز، وتأمل مبتسمة المسافرين المرتعبين المارين من تحت صخرتها، وهي لا مسالية بتشققفات التربة ولا بخرائب جدار قديم مائل، ثبتت بعض جذور متعرجة من عرائش اللبلا ب أساسه المتداعي. ومطرقة البرامبلي ترج قناطر الأقبية الهوائية، أخيراً فالأرض مزروعة وخصبة في كل مكان رفضت الطبيعة فيه أن يكون مرقاً للصناعة البشرية. وهكذا فلا شيء متماثل على مجرى اللوار ضمن هذه اللوحة الغنية التي تعرضها منطفة تورين أمام عيني المسافر وهي بمشاهدها الثلاثية التي لمحا إليها توفر للروح أحد هذه المناظر التي ترسخ بشكل دائم في الذاكرة، وعندما يستمع بها أحد الأدباء فإن أحلامه تعيد في الغالب تأثيراتها الإبداعية بشكل خارق. وفي اللحظة التي وصلت فيها العربة إلى جسر سيز فإن عدة زوارق كانت تنشر أشعتها البيضاء، متجوكة بين جزر اللوار تعطي تناسقاً جديداً لهذا الموقع المتناسق، وأريج السوحر المطلق على النهر يسكب رائحة عطرية نفاذة في

• سرع : فضان الكرمة الهائلة العفة.

حجنت : فضان الكرمة الصغيرة التي تحمل عناقيد العنب



النسيم المنعش البليل ، وأسراب الطيور تصدح بشدوها المتواصل فتمتزج بغناء راعي  
ماعز يتردد بنغم كئيب بينما صباح البحارة يعلن عن حركة بعيدة تعج بالنشاط . وعلى  
الضفة تحتجز الأشجار المتفرقة في ذلك المدى الفسيح بعض ضباب خفيف يمنحها  
آخر جاذبية . هذه هي منطقة تورين بكل مجدها ، وهذا هو الربيع بكل بهائه ، وهذه  
المقاطعة من فرنسة هي الوحيدة التي وجب ألا تعكرها مطلقاً الجيوش الأجنبية ،  
وكانت الوحيدة الهادئة في تلك الآونة ، حتى ليقال إنها تتحدى الغزو .

أطل رأس يعتمر قبعة شرطي خارج العربة التي توقفت عن سيرها ، وفتح  
عسكري نافذ الصبر بنفسه الباب وقفز إلى الطريق كأنه يريد أن يوثق الحوذني ، لكن  
المهارة التي أبداها التوريني في إصلاح المجر المقطوع طمأنت العقيد الكونت دي  
إغلمون الذي عاد إلى باب العربة وهو يفتح ذراعيه كأنه يوقظ عضلاته الهاجعة ؛  
وتثاب ، وتأمل المشهد ثم وضع يده على ذراع المرأة الشابة الملتفة بعناية في معطف  
صوفي ثخين .

- قال الضابط بصوت أبح : هيا يا جولي ، استيقظي وتألمي جمال الطبيعة ، إنها  
رائعة هنا . مدت جولي رأسها خارج العربة وقد اعتمرت قبعة فرو سمور حجبت  
شعرها ، كما أن المعطف الثخين المبطن أخفى قوامها حتى لا يرى إلا وجهها . لم تعد  
جولي دي إغلمون تشبه تلك الفتاة التي كانت تقفز مرحلة سعيدة خلال عرض  
الثوليري العسكري ، فوجهها الناعم دوماً حرم من تورد كان يُغنيه ببريق العاقية ،  
وخصلات شعرها السوداء المشعّة من رطوبة الليل أظهرت شحوباً ظاهراً في فحف  
رأسها الذي بدا وكأنه فقد حيويته ، لكن عينيها كانتا نيرقان بنوهج غير طبيعي ، ونحت  
أجفانها مسحة بنفسجية ترسم حتى وجتها التعتين . وتأملت بنظرة لامبالية أرياف  
الشير واللوار وجزره ، وتور وصخور قوقري المتطاولة ، ثم عادت بسرعة إلى المقعد  
الخلفي في العربة دون أن تهتم بمراى وادي السيز وقالت بصوت بدا في الهواء المطلق  
بمنتهى الضعف :

نعم، إنه منظر حريّ بالإعجاب . كان يبدو من وضعها، ولسوء حظها، أنها تمكنت من التغلّب على معارضة أيها .

- سألها الضابط : جولي ، ألا تحبين العيش هنا؟
- أجابت بلا مبالاة : هنا ، أو في مكان آخر ، سيّان .
- هل ثمة ما يؤمّلك؟ .

- أجابت الشابة بحوية مفاجئة وهي تتأمل زوجها مبسمة : كلا ، ولكنني أريد أن استمر في الرقاد .

سُمعَ فجأةً وُقعَ حجب حصان ، فترك فيكتور دي إغلمون يد زوجته ، وتلفت نحو منعطف الطريق في ذلك المكان . وفي اللحظة التي غفل فيها عن زوجته ، اختفى مظهر البهجة عن وجهها الشاحب ، كأنه برق خلّب عبا ؛ إذ لم تخالجه الرغبة في تأمل المنظر المحيط بها ، ولا الفضول لمعرفة الفارس الذي يجري به حصانه بهيجان بل ركنت في زاوية العربة تُحدّق بأكفّال الخيل وقد خلت نظرتها من أي معنى ، فبدت بمظهر أبله مماثل لذلك القروي البريتوني الذي يستمع إلى عظة كاهن قريته . وبرز فجأة شاب يمتطي حصان سقّ من أكمة أشجار الحور والزعرور المزهرة .

- قال العقيد : إنه إنكليزي .

- عقب الحوذي : أه ! يا إلهي . نعم يا سيادة اللواء إنه من سلالة هؤلاء الذين يقال إنهم يريدون ابتلاع فرنسا .

كان المجهول أحد هؤلاء المسافرين الذين وجدوا في القارة الأوروبية عندما أوقف نابليون جميع الإنكليز انتقاماً لاعتداء وزارة سان جيمس على حقوق الأشخاص أثناء نقض معاهدة إميان\* . ولم يبق هؤلاء الأسرى الذين رضخوا للنزوة

\* معاهدة إميان : معاهدة صلح تمت في العام ١٨٠٢ بين إنكلترا وفرنسا وأنهت التحالف ضد فرنسا .

السلطة الامبراطورية في الأماكن التي احتجزوا فيها، ولا في تلك التي خيروا بالإقامة فيها. ومعظم أولئك الذين كانوا يسكنون تورين في تلك المدّة نُقلوا إليها من أماكن متعددة من الامبراطورية حيث بدت إقامتهم مضرّة بمصالح السياسة القارية. كان الأسير الشاب الذي يتزّه في صباح ذلك اليوم الباكر دفعاً للمل هو أحد ضحايا السلطة البيروقراطية. فعند سنتين صدر أمر من وزارة العلاقات الخارجية باقتلعه من مناخ موبليه حيث فاجأه خرق اتفاقية السلام أثناء استشفائه من علة صدرية. وفي اللحظة التي تعرّف ذلك الشاب فيها على شخصية عسكرية في الكونت دي إغلمون أسرع بحرف رأسه ملتفتاً نحو مروج السيز تحجباً لنظراته.

قال العقيد متمنماً: جميع هؤلاء الإنكليز متفطرون كأنهم يملكون الكرة الأرضية ولحسن الحظ سيديقهم سولت<sup>(١)</sup> مرّ العذاب.

عندما مرّ الأسير من أمام العربية التي عليها نظرة عابرة استطاع فيها رغم قصرها أن يلاحظ ملامح الكأبة على وجه الكونتيسة الغارق في أفكار لا يعرف كنهها. يوجد أشخاص كثيرون تفطّر قلوبهم لرؤية الألم في ملامح امرأة. فهو في نظرهم وعد برباطة الجأش أو عهد على الحب. وكانت جولي مستغرقة في تأمل إحدى وسائد عربتها فلم تنتبه لمرور الحصان أو للفارس وكان المجرّد أصلح بسرعة وشد إلى الحصان، وصعد الكونت إلى العربية، وأراد الخوذي أن يستدرك الوقت الضائع ويصل بالمسافرين بسرعة إلى القسم من الصعيد التي تحيط بالصخور المعلقة التي تنضج بين جوانبها مصادر خمور فوفري حيث يتعالى عدد من المنازل الجميلة، وحيث تظهر على البعد خرائب دير مارموتيه الشهير الذي كان مقر اعتزال القديس مارتين.

هنا العقيد وهو يتطلّع إلى الخلف ليتأكد أن الفارس الذي يتبع عربته منذ جسر السيز هو الشاب الإنكليزي: ماذا يريد منا هذا الميلورد ذو البشرة الناعمة الناصعة البياض؟

(١) سولت: ديكلولا (١٧٦٩-١٨٥١): مارشال فرنسي أوقف في العام ١٨١٤ فندّم ولنفتون في معركة تولوز، سمي وزيراً للحربية في عهد ملكة نورد كما استلم رئاسة الوزارة أكثر من مرة.

وبما أن المجهول لم يتعد حدود التهذيب وهو يتزهد على درب الصعده، عاد العقيد إلى زاوية عربته بعد أن ألقى نظرة متوعدة على الإنكليزي، لكنه لم يستطع، رغم كراهيته اللاإرادية، إلا أن يقدر جمال الحصان وجاذبية الفارس. فالشاب يتميز بأحد هذه الوجوه البريطانية بلامحها الدقيقة وبشرتها الناعمة البيضاء حتى ليفترض أحياناً أنها تعود إلى جسم شابة مرهف. كان أشقر اللون، أهيف وطويل القامة. يرتدي بزة متميزة بالنظافة التي اشتهر بها متأنفو انكلترة المحتشمة. ويمكن أن يقال إنه احمرّ خجلاً أكثر منه متعة لمظهر الكونتيسة التي رفعت عينها مرة واحدة لتنظر إلى الغريب، وقد فعلت ذلك بناء على طلب زوجها لتأمل قواتم حصان أصيل السلالة. والتقت آنذاك عينا جولي بعيني الإنكليزي الخجول. ومنذ تلك اللحظة عمد النبيل الإنكليزي إلى أن يخبّ بحصانه خلف العربة بدلاً من أن يسير على محاذاتها. لكن الكونتيسة بإلقاء نظرة عابرة على الغريب لم تلاحظ أبداً من الفضائل المميّزة للبشر أو للخيل التي أشار إليها زوجها، واستلقت ثانية في زاوية العربة بعد أن عبرت بحركة من حاجبيها على موافقتها لرأي زوجها، وعاد العقيد إلى النوم حتى وصل الزوجان إلى تور دون أن يتفوقها بكلمة؛ ودون أن تجذب المناظر الرائعة للمشهد المتبدك الذي يسافران عبره ولو لمرة واحدة اتنباه جولي. وعندما غفا زوجها تأمكنت السيدة دي إغلمون أكثر من مرة، وفي آخر نظرة ألقته عليه أسقطت رجلاً من العربة على ركبي المرأة الشابة رصيبة معلقة في عنقها بقلادة سوداء دلالة الحداد، وبدت لها صورة أيتها فجأة فحرت الدموع من عينها بعد أن كانت مكبوتة مدة، وربما رأى الإنكليزي آثارها الرطبة البراقة على وجنتيها الشاحبتين، لكن الهواء جففهما بسرعة.

كان العقيد دي إغلمون مكلفاً بحمل تعليمات الامبراطور للمارشال سولت المدافع عن فرنسا وصدّ عدوان الغزو الإنكليزي الذي جرى في منطقتي ييارن، وقد استغل مهمته لإبعاد امرأته عن الأخطار التي تهدد آنذاك باريس، وأتى بها إلى تور حيث تقيم نسبة له عجوز، وها هي العربة تجري الآن على بلاط تور حتى الجسر ثم الشارع الكبير حيث توقفت أمام القصر القديم الذي تقيم فيه المركيزة السابقة دي ليستومير - لاندون.

كانت المركزية\* إحدى تلك العجائز الجميلات ذوات اللون الشاحب، والشعر الناصع البياض، والابتسامة الناعمة، هؤلاء العجائز اللواتي يظهرن وكأنهن يحملن سلة بتلك القبعة التي لا يعرف الطراز الذي تعود إليه. إنهن بعمرهن السبعيني نموذج قرن لويس الخامس عشر وهن دائماً ملاطفات، كأنهن مازلن عاشقات، متعبّات أكثر منهن ورعات، متظاهرات أكثر منهن متعبّات. يتضوّع منهن باستمرار عطر ذوروزوجة المارشال. يروين أمتع الحكايات، ويتحدثن أفضل مما يروين، ويضحكن للذكريات أكثر من ضحكهن للفكاهات. ويمتنعن من متابعة الأحداث السياسية.

عندما جاءت وصيفة عجوز تعلن للمركزية (ذلك أنها استعادت حديثاً لقبها النبيل) زيارة ابن أخ لها لم تره منذ بداية حرب إسبانية، رفعت بسرعة نظارتها وأغلقت كتابها المفضّل رواق البلاط القديم، وهرعت بخفة لتصل إلى عتبة السلم العريض الخارجي بينما الزوجان يصعدان درجاته.

تبادلت العمّة ونسبتهما نظرة سريعة، بينما هتف العقيد وهو يطوق السيدة العجوز ويقبلها وهو يقول: أسعدت صباحاً يا عمتي العزيزة، أتيتك بضيقة شابةٍ إنني أعهد إليك بكتري، وحبيبتي جولي ليست لعبوباً، ولا غيبوراً، بل إنها بعدوبة ملاك... وتوقّف لحظة ثم استأنف: وأمل ألا تفسد طباعها هنا.

أجابت الكونتيسة وهي توجه إليه نظرة ساخرة: يا للفتى الخبيث!

وبادرت بلطف وتودّد إلى معانقة جولي التي بدت غارقة في التفكير ومرتبكة أكثر منها فضولية، بينما استأنفت المركزية العجوز:

---

\* ورد لقبها هنا وفي بعض صفحات نالبة كونتيسة. ثم أعطاهم المؤلف لقب مركزية وقضنا منذ البدء المطلق لقب المركزية عليها تمييزاً عن لقب الكونتيسة المعطى لجولي (الترجم).

- ستعارف جيداً إذن، يا حبيبة قلبي، لا ترنعي مني كثيراً، وسأحاول أن أتجنب الشيوخة بصحبة من هي في نظرة الشباب.

وقبل الوصول إلى قائمة الاستقبال طلبت المركيزة من مدبرة المنزل، وفقاً لعادات الأقاليم، إعداد الغداء لضيفيها، لكن الكونت قطع على عمته بلاغة تعليماتها بتصريحه جاداً إنه لا يستطيع التوقف إلا للآونة القصيرة التي يستغفرها إبدال خيول العربية، ودخل الأنساء الثلاثة سريعاً إلى الصلاة، واستغل العقيد تلك الدقائق لينبئ عمته بالأحداث السياسية والعسكرية التي تلزمه على أن يطلب ملجأ لزوجته الشابة. وخلال حديثه كانت العمّة تنقل بصرها بين ابن أخيها الذي يتكلم دون أن يقاطعه أحد وزوجه التي تزايد حزنها وشحوبها وخيل للعجوز أن مرد ذلك يعود إلى هذا الفراق الاضطرابي، وبدا عليها وكأنها تردّد في نفسها: إيه! إيه! إن هذين الشابين متحابان.

في تلك اللحظة سمعت فرقة سوط الحوذني في الغناء الصامت القديم الذي رسمت طلائع العشب الحدود بين بلاطاته، فقبل فيكتور مجدداً المركيزة، وانطلق مسرعاً خارج القاعة.

قال وهو يعانق زوجته التي تبعته حتى العربية: وداعاً يا حبيتي.

قالت بصوت حنون: أوه! يا فيكتور، دعني أرافقك إلى مسافة أبعد أيضاً، لأريد أن أفارقك الآن...

- أوتظنين إمكان ذلك؟

- إيه! حسن، وداعاً، ما دامت هذه إرادتك.

واختفت العربية.

قالت المركيزة لتسببها وهي تلقي عليها تلك النظرات الحبيبة التي تعرف العجائز جيداً كيف يوجهنها للشابات: أنت تحبين إذن عزيزي المسكين فيكتور حباً جماً؟

- أجابت جولي: للأسف، ياسيدتي، ألا يجب الشعور بالحُب نحو رجل للزواج منه؟ نطقت هذه العبارة الأخيرة ببعض سذاجة كشفت في أن معاً عن قلب طيب وأسرار عميقة، والحال كان من الصعب على امرأة مثل الكونتيسة دي ليستومير. لا ندون صديقة دوكلو\* والمارشال دي ريشليو\*\* ألا تسمى جللاء سرّ هذين الزوجين الشابين. وكانت العمّة ونسبتهما في تلك اللحظة على عتبة مدخل القصر، منشغلين بتأمل العربة التي تجري مبتعدة؛ ولم تكن عينا جولي تعبران عن الحب كما تفهمه الكونتيسة البروقسية ذات العواطف المتأججة.

سألت المركيزة: هكذا إذن وقعت تحت تأثير هذا الشاب الشقي ابن أخي؟

ارتعشت جولي بشكل لا إرادي، فلهجة ونظرة هذه العجوز اللعوب في أيام شبابها تكشفان عن خبيرة بطبع فيكتور قد تكون أكثر عمقاً مما تعرفه عنه. وبدت السيدة دي إغلمون قلقة، وتجلّبت بذلك الكتمان الأخرق، الملجأ الأوّل للقلوب الساذجة المتألّمة. واكتنفت السيدة دي ليستومير بأجوبة جولي، لكنها فكّرت ببهجة أنّها ستسلى في عزلتها بأحد أسرار الحب، إذ بدا لها أن لنسبتهما مشروع مغامرة عاطفية مسلّية تنساق إليه. عندما وجدت السيدة دي إغلمون نفسها في صالة كبيرة مفروشة بسجف تحيط بها قضبان مذهبة، وهي جالسة قرب مدفأة تتأجج النار فيها وقد حماها حاجز صيني واق من ريح الشمال المتسرية من شقوق النوافذ أحست بحزن لا يمكن أبداً أن يتشع، إذ يصعب أن يُولد الانشراح تحت زخارف يمثل هذا القدم وبين أثاث يعود إلى قرون؛ غير أن شعوراً بالارتياح تولد في نفس الباريسية الشابّة وهي في هذه العزلة العميقة وفي صمت الريف الجليل؛ وبعد أن تبادلت بعض الكلمات مع هذه العمّة التي كتبت لها في السابق رسالة عروس جديدة، بقيت صامتة كأنها تستمع إلى موسيقى أوبرا! وبعد ساعتين من هدوء جدير بالكمان المنصوبة

● دوكلو، شارل (1704-1772): كاتب فرنسي أخلاقي مثشانم، عضو الأكاديمية.

● المارشال دي ريشليو (1696-1788) سياسي فرنسي، كان صديقاً لفرانسوا، حشد حياة الجون والفجور، ورد اسمه مرات عديدة في الملهة الإسبانية.

لاحظت الشابة عدم تهذيبها نحو عمتها، وتذكرت أنها لم تحب على أسنلتها إلا بكلمات باردة، أما السيدة العجوز فقد احترمت نزوة نسيبتها مدفوعة بعذوبة فطرية تميز أفراد العهد السابق.

وكانت قد انشغلت حالياً بشغل الصنارة بعد أن خرجت عدة مرآت لتتأكد من قيام الخدم بتجهيز إحدى غرف القصر المسماة الغرفة الخضراء لمنامة ضيفتها، والإيعاز بنقل أمتعتها إليها. أما الآن فقد جلست على كنية عريضة وهي تتأمل نسيبتها الشابة خفية وخجلت جولي لانصرافها إلى تأملاتها التي لا تقاوم فحاولت أن تعذر.

قالت العمّة: يا صغيرتي العزيزة، إننا نعرف معاناة الأرامل.

يجب أن يكون المرء في سن الأربعين ليدرك السخرية التي عبرت عنها شفتنا السيدة العجوز. وفي اليوم التالي كانت الكونتيسة دي إغلمون أفضل حالاً وهي تتبادل الحديث مع السيدة دي ليستومير التي لم تياس أبداً من تطويع هذه الزوجة الشابة التي اعتبرتها أولاً فتاة متوحشة حمقاء؛ فاستعرضت أمامها المسرات التي يمكن أن تحظى بها في المنطقة من حفلات رقص تدعى إليها ويونات تزورها؛ وكانت جميع عروض المرأة المتبحجة خلال ذلك اليوم أشراكاً لم تستطع العمّة العجوز أن تمتنع عن نصبها، وفقاً لعادة قديمة في البلاط، لتكشف منها طبع نسيبتها. وقاومت جولي جميع إلحاحاتها في السعي إلى أسباب اللهو خارج المنزل، وهكذا فرغم رغبة السيدة العجوز في أن تزهر نسيبتها الفاتنة انتهت إلى العدول عن اصطحابها في زيارات اجتماعية، ووجدت الكونتيسة دي إغلمون ذريعة لعزلتها وكأبتها في حزنها على وفاة والدتها الذي ماتزال تلبس ثياب الحداد وفاء لذكراه. ولم تنقض ثمانية أيام حتى أبدت الثبيلة العجوز مزيداً من الإعجاب بركة جولي الملائكية، ومحاسنها المحتشمة، وروحها المتسامحة، واهتمت منذ ذلك الحين اهتماماً كبيراً بهذه الكتابة الغامضة التي تضفي قلبها العتي، فالكونتيسة دي إغلمون إحدى أولئك السيدات اللواتي خلقتن ليكن محبوبات، ويبدو أنهن يجلين السعادة معهن وغدت صحبتها



بمتهى العذوبة والأهمية للسيدة دي ليستومير التي تعلقت بنسبيتها ورغبت ألا تفارقها أبداً. ولم يمض شهر حتى توطدت بينهما صداقة متينة، ولاحظت السيدة العجوز ببعض دهشة التغيرات التي طرأت على ملامح السيدة دي اغلمون، فالحرمة المتضرجة التي كانت توهج وجهها اختفت تدريجياً ليحل محلها ذلك اللون العاجي الشاحب، وغدت جولي يفقدانها بريقها البدائي أقل حزناً، بل إن النبيلة العجوز أبقت لدى نسبتها الشابة مظاهر بشر، أو ضحكات مرحة كانت تكبت سريعاً بفكرة مزعجة، وحنّمت أن سب الكآبة العميقة التي تلقى حجاباً على حياة نسبتها لا يعود للذكرى الأبوية، ولا لغياب فيكتور، ثم انتابتها كثير من الظنون السيئة التي يصعب تبديدها حول السب الحقيقي لهذا الغم، إذ أننا، في الغالب، لا نتوصل إلى الحقيقة إلا بمحض مصادفة. فقد أظهرت جولي في أحد الأيام، أخيراً، أمام عيني عمّتها المندهلة نسياناً تاماً لكونها سيّدة متزوجة، وأبدت رعونة مرهقة طائشة، وسلامة نية، ووَدْنَةً جديرة بمقتبل العمر، وكل مظاهر تلك الروح المرهفة وأحياناً العميقة التي تميّز شباب وشابات فرنسة. وعزمت السيدة دي ليستومير أن تسير أسرار تلك الروح ذات الطبيعة المتطرفة التي نلتزم بكتمان لا يخترق؛ وأحلّ الليل والسيدتان جالستان أمام نافذة تطلّ على الشارع، وعادت جولي إلى استغراقها في التفكير؛ فقد مرّ رجل على صهوة حصان.

- قالت السيدة العجوز: هوذا أحد ضحاياك.

نظرت السيدة دي اغلمون إلى عمّتها مبدية دهشة بخالطها الفلج.  
واستأنفت العمّة:

- إنه شاب إنكليزي نبيل، آرثور أورمون، الابن اليكر للمورد غرنفيل، وقصته تسترعي الاهتمام؛ فقد جاء إلى مونبليه في العام ١٨٠٢ وهو يأمل بأن يساعده مناخ هذه البلاد، التي نصحه أطباؤه بالقدوم إليها، في الشفاء من داء صدري يكاد يقضي عليه، لكنه كجميع مواطنيه، أوقف خلال الحرب من قبل نابليون، لأن هذا الوحش لا يستطيع أن يتوقف عن المحاربة، وانصرف الشاب الإنكليزي، لتمضية

الوقت، إلى دراسة مرضه الذي كان يعتقد أنه مميت، وشيئاً فشيئاً استهواه التشريح والطب وأغرم بهذين النوعين من العلوم التطبيقية وهو أمر خارج عن المؤلف لدى رجل من صفوة النبلاء، ولكن ألم يهتم الوصي على العرش بالكيمياء! باختصار أحرز السيد أرتور نجاحات مدهشة، أذهلت حتى أساتذة مونييه؛ فالدراسة أنسته فيود الأسر، وفي ذات الوقت شفي نهائياً من مرضه. ويُرغم أنه بقي ستين دون أن يتكلم، يتنفس قليلاً، وهو هاجع في اسطبل، يتغذى بحليب بقرة أتى له بها من سويسرة، ويتفوت نبات القرّة. ومنذ أن حضر إلى حرلم يقابل أي إنسان، وهو متغطرس كطاووس، ولكنك غزوت قلبه بالتاكيد، إذ ليس من المحتمل أن يكون مروره أمام نوافذنا، منذ حضورك إلى هنا، مرتين يومياً من أجل التمتع برؤيتي. من المؤكد أنه يحبك.

أيقظت هذه الكلمات الأخيرة الكونتيسة دي إغلمون كأنها السحر، وبدرت منها حركة وابتساماً أنهشتا المرأة المتعاطمة. فقد كانت أبعد من أن تبدي ذلك الارتياح الفطري الذي تشعر به حتى المرأة الأكثر فسوة عندما تعلم أنها سببت التعاسة لأحد الأشخاص؛ فظفرة جولي قائمة وباردة، ووجهها يشير إلى إحساس يتفور شديد قريب من الرعب؛ فهذا النقي القاطع ليس شعور امرأة عاشقة تجاه العالم كله لمصلحة كائن واحد، وتعرف عند ذلك كيف تضحك وتمزح. كلا، فقد كانت جولي في تلك اللحظة كشخص يستذكر خطراً محيقاً به، وما يزال يشعر بالحشية والألم منه. وأصببت العمّة، وهي المقتنعة أن نسبيتها لا تحب ابن أخيها بالذهول لأنها اكتشفت أن جولي لا تحب أحداً، وارتعشت لأنها عرفت في جولي على قلب خائب، على امرأة شابة كفتها تجربة يوم واحد، وربما ليلة واحدة، لتحكم على نفاهة فيكتور.

- قالت السيدة دي ليستومير في نفسها: إذا كانت الكونتيسة دي إغلمون تعرف هذا الإنكليزي فلم يبق هناك ما يقال وستحمل ابن أخي قريباً مساوئ هذا الزواج.  
فكرت عندئذ أن تهدي جولي إلى المعتقدات الملكية العائدة لعصر لويس الخامس عشر، ولكن بعد عدة ساعات عرفت أو بالأحرى حمّنت الوضع السائد

تقريباً في العالم الذي سبب كآبة الكوتيسية دي إغلمون؛ التي استغرقت فجأة في التفكير وانسحبت إلى غرفتها في وقت أبكر من عادتها. وبعد أن ساعدتها وصيقتها في خلع ملابسها، وتركتها وهي مستعدة للنوم بقيت قرب المدفأة غارقة في دوقية من المخمل الأصفر، هذه الكتبة ذات الطراز القديم التي تلائم المكرويين كملانمتها للسعداء؛ ويكت وتتهذت، وفكرت، ثم أخذت منضدة صغيرة، وأوراقاً وبدأت بالكتابة، ومرّت الساعات سريعاً؛ ويبدو أن المسارة التي تسجلها في تلك الرسالة ترهقها، فكل عبارة تحتاج إلى تأملات طويلة، وفجأة اتهمرت الدموع من عيني المرأة الشابة وتوقفت عن الكتابة. كانت الساعة تعلن الثانية بعد منتصف الليل، ونقل رأسها ومال إلى صدرها كراس محتضرة، وعندما رفعته رأته عمتها منتصبية فجأة أمامها كأنها شخص برز من السائر والسجف المدلاة على الجدران.

- قالت لها العمّة: مالك يا صغيرتي؟ وما سبب سهرك حتى هذه الساعة، ولماذا تبكين خاصة في عزلتك وأنت في هذا العمر؟

وجلست بلا تكلف قرب نسيبتها وهي تلثمهم بعينيها الرسالة التي بدأى بكتابتها؛ وسألها:

- أنكيتين إلى زوجك؟

- أجابت الكوتيسية: وهل أعلم أين هو؟

تناولت العمّة الورقة، ووضعت نظارتها على عينيها وباشرت بقراءتها، فعلت ذلك عن عمد، ولم تُبدِ المخلوقة البريئة أي اعتراض ليس عن عدم اعتراز بكرامتها، ولا عن شعور بذنب خفي يتزعم منها كل طاقة؛ كلا فعمتها وجدت الآن في إحدى تلك اللحظات من الأزمة التي تكون فيها النفس دون أية عزيمة، تعاف كل شيء، يتساوى لديها الخبير والشر، والشك كما اليقين. مثل تلك الفتاة الفاضلة التي تستخف وتزدري بعاشق، لكنها تجد نفسها مساء حزينة ومهملة تسمى رؤيته، وترغب أن تجد قلباً حنوناً يخفف عنها آلامها. لذا لم تعترض جولي بأية كلمة وهي ترى فضول العمّة يتناول على رسالة مفتوحة تقتضي اللباقة عدم انتهاك طابعها الشخصي واستمرت شاردة في تفكيرها بينما الركيزة تقرأ.

لماذا المطالبة أكثر من مرة بتنفيذ وعد من أكثر الوعود التي قطعتها فنتانان جاهلتان على نفسيهما رعونة؟ تساءلين غالباً كلما كتبت لي، لماذا لم أجب منذ ستة أشهر على استفساراتك. إذا كنت لم تفهمي صمتي، فستخمين اليوم، على الأرجح، السبب، عندما تظلمين على الأسرار التي سأكشفها لك، وكنت حريصة على أن أدفنها إلى الأبد في أعماق قلبي لو لم تعلميني بعقد قرانك قريباً. ستتزوجين يا لويزا. هذه الفكرة تجعلني أرتعش. يا صغيرتي العزيزة المسكينة، تزوجي، ثم بعد عدة أشهر ستردُّ إحدى أمرتأسفاتك من ذكرى ما كنا فيه سابقاً، ذات مساء في إكوان، عندما وصلنا كلتانا قرب أكبر سديانات الجبل، وتأمكنا الوادي الجميل تحت أقدامنا، ونظرنا بإعجاب إلى أشعة الشمس الغاربة تغمرنا بانعكاساتها، وجلسنا فوق شير من الصخر وغرقنا في نشوة جهور أعقبتها أعذب كآبة. كنت الأولى التي وجدت هذه الشمس البعيدة محدثة عن المستقبل. كنا آنذاك كثيرتي الفضول، وفي منتهى الجنون! أتذكرين جميع تهوراتنا؟ تعانقتا كعاشقين، حسب قولنا، وأقسمنا على أن نقص من تزوج منا أولاً لرفيقتها بكل أمانة هذه الأسرار التي ستكشفها لنا ألهة الزواج، وهذه المسرآت التي كانت تلوئها روحانا الطفوليشان بأمتع الألوان. تلك الأمسية ستقنطك يا لويزا!! في تلك اللحظات من الزمن كنت شابة جميلة، لا تحملين هماً، بل سعيدة. وسيحوكك الزوج في أيام قليلة، إلى ما أنا فيه الآن، دميعة، متألّة وعجوزاً. من الجنون أن أذكر لك كم كنت معتزة، ومزهوة، ومسرورة لزواجي من العقيد فيكتور دي إغلمون! ولكن كيف سأقول لك ذلك؟ وأنا ذاتي لا أدرك كيف كنت! ففي لحظات قليلة غدت إيام طفولتي حليماً. ولم يستثن مظهري خلال اليوم الاحتفالي، الذي يقرّ رباطاً خفيت عني خطورته، من الملامة، وحاول والدي أكثر من مرة أن يكبح بهجتي فقد كنت أعبر عن مسرآت عدت غير لائقة، وكشفت كلماتي عن مكر لأنها في الواقع كانت خالية من المكر، بينما حفلت

تصرفاتي بولدنات لانحصى وأنا في طرحة العروس وهذا الشوب وهذه الأزهار الخاصة بحفل الزفاف . وعندما بقيت وحدي مساءً في الغرفة التي افتادوني إليها بأية، أضممرت القيام ببعض حيلٍ لأثير فضول فيكتور، وبانتظار مجيئه شعرت بخفقات قلب مماثلة لتلك التي كانت تنتابني في السابق، خلال ليالي ٣١ كانون أوك، ففي ذلك اليوم من كل سنة كنت أنسلل إلى صالة المنزل حيث كوَّمت الهدايا . وعندما دخل زوجي في ليلة عرسي وراح يبحث عني . أرشدته ضحكاتي المكتومة التي سمعت عبر الأغطية الحربية التي التفت بها في السرير وكانت هذه الضحكات آخر تهليل بهجة عذبة تنعش لهو برامة الطفولة في حياتي . . . . .

عندما أنهت النبيلة العجوز قراءة هذه الرسالة المتضمنة ملاحظات حزينة عديدة غير تلك القاتمة، وضعت نظارتها بهدوء على المنضدة، ثم وضعت الرسالة، وسلطت على نسيئها عبتين خضراوين لم يضعف عمرها المتقدم من حيوية ألقهما .  
قالت : ككتابة مثل هذه الرسالة من امرأة متزوجة إلى صديقة شابة تُعدُّ إخلالاً باللباقة . . .

أجابت جولي مقاطعة عمتها : هذا ما فكَّرت به، وخجلت من نفسي وأنت تقرين ما كتبت . . .

تابعت العجوز والطيبة في كلامها : يا ابنتي ، إذا لم نستغ طعاماً على المائدة فيجب ألا نثير اشمزاز أحد، خاصة وأن الزواج منذ حواء حتى يومنا يبدو شيئاً ممتازاً . . . لقد فقدت أمك باكراً؟

- أسفت أكثر من مرة، ومنذ سنة حتى الآن، لعدم وجود أمي . وكان خطئي أنني لم أستمع إلى اعتراض أبي الذي لم يرد فيكتور صهراً له .

نظرت إلى عمتها وانتابتها هزة فرح جففت دموعها عندما لاحظت مظهر طيبة بنجلى في وجهها العجوز، ومدت يدها إلى المركيزة التي بدت وكأنها تناشدها الثقة بها . وعندما التقى الكفَّان في مصافحة حارة اكتمل تفاهم المرأتين .

- قالت المر كيزة : يا للتيمة المسكينة !

كانت هذه الكلمة آخر إشراقه ذهن بالنسبة لجولي ، وخيل إليها أنها ما تزال  
تسمع صوت والدها التنبئي .

استأنفت السيدة العجوز : بذاك حارتان جداً ! هل هما دائماً هكذا؟

- لم تفارقني الحمى إلا منذ سبعة أو ثمانية أيام .

- تتناوبك الحمى وتخفي ذلك عني !

قالت جولي بنوع من القلق الحجولي : إنني أعاني منها منذ سنة .

- تابعت العمة : هكذا يا ملاكي الصغير لم يكن الزواج حتى الآن بالنسبة لك إلا  
عذاباً طويلاً؟

لم تجسر المرأة الشابة على الإجابة لكن بدرت منها حركة إيجاب تشير إلى  
ألامها . -

- أنت تعبسة إذن؟

- أوه ! كلا يا عمتي ، فيكتور يحييني حتى العبادة ، وأنا تميعة به فهو طيب جداً

- نعم إنك تحبته ، لكنك تهريين منه ، أليس كذلك؟

- نعم . . . أحياناً . . . وهو يفتش عني غالباً .

- ألا تضطرين غالباً وأنت في عزلة خشية أن يأتي فيكتور ويفاجئك؟

- للأسف نعم ، يا عمتي لكنني أحبه جيداً ، أؤكد لك .

- ألا تلومين نفسك سراً لأنك تجهلين أو لا تتمكنين من مشاركته في متعته؟ ألا

تفكرين أحياناً أن الحب الشرعي أكثر قسوة ومعاناة من هوى أئم؟

أجابت باكية : أوه ! الأمر كذلك ، إنك قادرة على تخمين كل شيء . إذن ! حتى

ما يبدو لي من الألغاز ؛ عندما لا أتمكن أن أجمع أفكاري ، وتبدو جميع حواسي  
مخدرة ، أخيراً عندما لا أرى إلا بصعوبة ؛ وتكون روحي مرهقة بتخوف مبهم يجمد

عواطفى ، ويطرحني في سبات مستمر ، فلا أجد صوتاً أشكو به ، أو كلمات أعبر فيها عما أعانيه من عناء ، فأتالم وأخجل من ألمي وأنا أرى فيكتور سعيداً في تصرف يكاد يقتلني .

هتفت العمة وقد انفرجت أسارير وجهها الجافة فجأة وافترت شففتها عن ابتسامة مرحة هي انعكاس عن مسرات أيام شبابها : وكذمة وغياوة كل هذا !  
قالت المرأة الشابة قانطة : وانت أيضاً تضحكين !

استأنفت المركيزة على الفور : كنت أنا كذلك . والآن بعد أن تركك فيكتور وحيدة ألا تشعرين أنك عدت إلى أيام عزوبتك ، هادئة ؛ دون متع ولكن دون الآم أيضاً؟ فنحت جولي عينيها باستدارة تعبر عن دهشتها ، وتابعت العمة :

- أخيراً يا ملاكي ، إنك تعبدين فيكتور اليس كذلك؟ لكنك تفضلين أن تكوني أخته لا زوجته ، والزواج أخيراً لم يحقق نجاحاً مناسباً لك .

- إيه ! هذا هو الواقع ، يا عمتي ، ولكن لماذا تبسمين؟

- أوه ! إنك على حق يا ابنتي العزيزة المسكينة ، فليس في هذا ما يسر .  
ومستقبلك سيكون محفوظاً بالتماسة لو لم أحطك بعنايتي ، ولو لم تتوصل خيرتي العريقة إلى تخمين السبب الساذج لهمومك . إن ابن أخي الأحمق لا يستحق سعادته ! ولو وجدت امرأة نفسها في مثل وضعك أيام ملكية محبوبنا لويس الخامس عشر لعاقبت زوجها في الحال على تصرفه كأحد الجنود المرتزقة في العصر الوسيط .  
يا له من أناني ! إن عسكري هذا الطاغية الإمبراطوري جميعهم من أشنع الجهلاء .  
إنهم يُعدّون الفظاظلة لغتهم في الغزل والتودد إلى النساء لأنهم لا يعرفون الحب ولا يفهمون النساء ، وهم يعتقدون أن ذهابهم في الغد إلى الموت يعفيهم في العشية من المراعاة الحسنة والانتباه المرفه لأحاسيسنا . كان الرجال في السابق يعرفون جيداً ، وفي الوقت المناسب كيف يحيون ، وكيف يموتون عند الافتضاء . يا نسيبتي العزيزة سأعيد تأهيلك ، وسأضع حدّاً لهذا التنافر المؤسف الطبيعي تقريباً ، الذي يؤدي بكما

إلى كره كل منكما للآخر، والرغبة في الطلاق هذا إن لم يؤد إلى موتك قبل هذا الحد من القنوط.

استغربت جولي بقدر ما اتابها الذهول من موقف عمتها، وفوجئت بسماع كلمات أحست بحكمتها قبل إدراكها معناها. وذعرت لصدورها من فم قريبة عريقة في خبرتها ماثلة، إنمأ بشكل أكثر نعومة، لإدانة أبيها ليفيكتور، وربما اتابها حدس سريع لمستقبلها، وشعرت دون شك بثقل الفاجعة التي سلمتُ بها، إذ انهمرت الدموع من عينيها، وألقت نفسها بين ذراعي السيّد العجوز قائلة: كوني لي أمًا! ولم تبتك العمّة إذ أن الثورة لم تبق لنساء الملكية القديمة في فرنسة إلا القليل من الدموع في أعينهم. وعودهن الغرام سابقًا والرعب فيما بعد على أكثر الوقائع والظروف الطارئة بحيث يحتفظن وسط أخطار الحياة برزاة هادئة، ومودة صادقة، إنمأ دون كشف عن المشاعر. وهذا ما يتيح لهن المحافظة دائمًا على نبل المظهر، وأداب السلوك التي أخطأت العادات الجديدة في التخلي عنها؛ وضمت النبيلة العجوز المرأة الشابة، وقبّلتها على جبينها بحنان ورقة يظهران غالبًا في تصرفات أولئك النساء وعاداتهن وتخلو قلوبهن منها؛ ولاطفت نسيبتها بكلمات عذبة، ووعدتها بمستقبل سعيد. وعلّقتها بمغريات الحب، ثم ساعدتها على الرقاد وكأنّها ابنتها، الابنة العزيزة التي تبّت همومها وأمانيها. ورأت نفسها وقد عادت شابة بمثل جمال نسيبتها وعدم خيرتها. وغفت الكونتيسة دي إغلمون سعيدة لأنها حظيت بأمر وصديقة يمكنها من الآن وصاعدًا أن تصرّح لها بكل شيء. وفي صباح اليوم التالي، وبينما كانت العمّة ونسيبتها تتعانقان بتلك المودة العميقة وهذا المظهر من التفاهم المبهين على تجاذب عاطفي، وتجاذب أكثر اكتمالاً بين روحيين، سمعتا وقع خطوات حصان، والتفتا في أن معاً فرأنا الشاب الإنكليزي يمر ببطء وفق عادته. ويبدو أنه لاحظ جيدًا تصرف هاتين المرأتين الوحيدتين في حياتهما، فلم يفته يوماً أن يمر في ميعاد وجودهما على مائدة الغداء أو العشاء، حتى أن حصانه كان يتمهل تلقائيًا عند مروره أمام القصر، وخلال اجتيازه المسافة بين نافذتي غرفة الطعام يلقي أرتور نظرة كشيبة نزديها الكونتيسة دي إغلمون معظم الوقت دون أن تعبرها أي انتباه؛ لكن المركبة المتعدّدة



على هذه الحركات الفضولية الخفية التي تتعلق بأنفه الأشياء فتدب بعضاً من حياة في رتابة الريف، وتحتمي منها بصعوبة النفوس السامية، وجدت في الغرام المضممر لهذا الإنكليزي الخجول والرصين تسلية لها. وغدت هذه النظرات الدورية عادةً بالنسبة لها، تشبر إليها كل يوم عند مرور أرثور بفكاهات جديدة. وعند جلوسهما إلى المائدة نظرت المرأتان في وقت واحد إلى ابن الجزيرة البريطانية، والتقت عينا جولي بعيني أرثور هذه المرة بمزيد من الدقة العاطفية احمرت منها المرأة الشابة خجلاً وعندها أطلق الإنكليزي العنان لخصانه وانطلق مبتعداً بسرعة.

قالت جولي لعمتها: ماذا علينا أن نعمل ياسيديتي؟ من الثابت أن الأشخاص الذين يلاحظون مرور هذا الإنكليزي سيعتقدون أنني . . .

- أجابت العمّة مقاطعة: نعم.

- إيه! وبعد، ألا يمكن أن نطلب منه عدم المرور من هنا؟

- أليس في ذلك تصريح له بمدى خطورته؟ عدا عن أننا لانستطيع أن نمنع رجلاً من الذهاب والإياب حيث يحلو له. غداً لن نتناول طعامنا في هذه القاعة، وعندما لايرانا النبيل الشاب فيها سيتوقف عن حبه لك من النافذة. هكذا يا ابنتي العزيزة، يجب أن تتصرف السيّد الخبيرة بشؤون المجتمع.

لكن وجب أن تكتمل تعاسة جولي، فما كادت السيدتان تنهضان عن المائدة حتى وصل وصيف فيكتور فجأة، وهو أت من جورج بمزيد من السرعة، وفي طرقات ملتوية، ليبلغ الكونتيسة رسالة من زوجها يفيدها أنه قد ابتعد عن الامبراطور الذي سقط نظامه وتم الاستيلاء على باريس، وتفجّر الحماس في كل أنحاء فرنسا لمصلحة البوربونيين. لكن فيكتور يرى من الصعب وصوله إلى تور وهو يرجو أمر أنه أن تأتي بالسرعة الكلية إلى أورليان حيث سيوافيها مع جواز السفر اللازم لها. وهو يعتقد أن الطريق بين أورليان وتور ما يزال سالكا وبإمكان جولي أن تسافر بصحبة الوصيف وهو عسكري سابق.

- قال الوصيف: سيدتي، لا يمكن إضاعة أية لحظة فالبروسيون والنمساويون والإنكليز يخططون للقاء جيوشهم في تور أو في أورليان . . .

كانت المرأة الشابة جاهزة خلال بضعة ساعات، وانطلقت في عربة سفر قديمة أعارتها لها عمتها.

قالت وهي تقبل العمة مودعة: لماذا لا تأتين معنا إلى باريس؟ مادام البوربونيون سيستعيدون عرشهم، وستجدين بدورك . . .

- حتى دون هذه العودة غير التوفعة، سأوافيكما إليها يا صغيرتي العزيزة لأن نصانحي ضرورية جداً لفيكاتور ولك. وهكذا سأجري ترتيباتي للحاق بكما.

انطلقت جولتي برفقة وصيفتها، والعسكري القديم يخبُّ بحصانه قرب عربة سيدته يسهر على سلامتها، وخلال الليل عند وصولهم على بعد فرسخ من بلوا، فلفتت جولتي لسماها ضجة عربة تسيّر خيل عربتها منذ مغادرتها بلوا، وأطلت من الباب لترى رفاق سفرها، وعلى ضوء القمر عرفت آرثور وهو على بعد ثلاث خطوات من عربتها وعيناه محدقتان بها، والتقت نظراتهما، وارتدت الكونتيسة بسرعة إلى مقعدها الخلفي، وقلباها يخفق ذعراً. وكجميع النساء الشابات البرينات فعلاً ودون تجربة، رأت في حبٍّ أوحى لا إرادياً إلى رجل، خطيئة، وأحست برعب غريزي منها، على الأرجح، شعوراً بضعفها أمام هذا الاعتداء الجريء. فأحد أقوى أسلحة الرجل هو هذه القدرة الرهيبة على أن يشغل بذاته امرأة يرتعش خيالها المتقلب بطبيعته أو يستاء من ملاحقة. وتذكرت الكونتيسة نصيحة عمتها، وقررت أن تبقى خلال السفر في المقعد الخلفي من العربة دون أن تخرج منها. لكنها عند كل مرحلة كانت تسمع الإنكليزي وهو يتجولك بين العربتين، وعلى الطريق كانت ضجة عربته المزعجة تدوي في أذنيها دون انقطاع. وفكرت جولتي أنها عندما تلتقي بزوجها فإن فيكتور يعرف كيف يدافع عنها ويقمع هذه المضايقة الغريبة.

- ولكن، إن كان هذا الشاب لا يحبني؟

كانت هذه الفكرة أخطر لها . فعند وصولها إلى أورليان أوقف البروسيون عربتها واقتيدت إلى فناء نُزُك، ووضعت تحت حراسة الجنود . وكان من المتعذر إيداء أية مقاومة، فقد شرح الغرباء للمسافرين الثلاثة بإشارات أمرت أنهم تلقوا تعليمات بعدم السماح لأحد بالخروج من العربة، وبقيت الكونتيسة ساعتين تقريباً أسيرة وسط الجنود الذين يضحون ويضحكون، وينظرون إليها أحياناً بفضول وفتح . وأخيراً رأتهم يتعدون عن العربة بنوع من الاحترام بعد سماع ضجة عدة خيول، وسرعان ما ظهر عدد من كبار الضباط الأجانب وعلى رأسهم جنرال تمسوي وأحاطوا بالعربة .

قال الجنرال : سيدتي، تفضلي بقبول اعتذارنا، جرى خطأ، ويمكنك الآن متابعة سفرك دون خوف، وهوذا إذن سفر يجنبكم من الآن وصاعداً أية مضايقة .

تناولت الكونتيسة الورقة بيد ترتعش وتمتمت بكلمات شكر مبهمة ورأت قرب الجنرال وبيزة ضابط إنكليزي أرثور الذي يعود إليه، دون شك، تخليصها السريع . بدا الإنكليزي الشاب في وقت واحد فرحاً وكنيياً، وأشاح برأسه ولم يجرد على النظر إلى جولي إلا خلسة . ويفضل إذن السفر تمكنت السيدة دي إغلمون من مواصلة سفرها إلى باريس دون أي عائق مكلد واجتمعت بزوجها الذي أحل من قسم الإخلاص للامبراطور وتلقى أحسن استقبال من الكونت دارتوا الذي عين قائداً عاماً لجيش المملكة من قبل أخيه لويس الثامن عشر، وحصل فيكتور على درجة مميّزة ضمن الحرس الخاص أعطته مرتبة جنرال، إنما وسط الاحتفالات المقامة بمناسبة عودة ملكية آل بوربون ابتليت جولي المسكينة بفاجعة أثرت على مجرى حياتها إذ إنها فقدت المريضة دي ليستومير - لاندون فقد توفيت النبيلة العجوز فرحاً إذ أصيبت بسكتة قلبية وهي تشهد عودة الدوق دنغوليم إلى تور، وهكذا غابت الإنسانية التي كان يعطيها عمرها الحق بتنوير فيكتور، الوحيدة التي كانت تستطيع بتصاتها القويمة أن تجمع التوافق بين المرأة وقرينها أكثر انسجاماً . وأحسّت جولي بفداحة هذه الخسارة فعليها وحدها الآن العمل على تحسين هذا التوافق لكنها وهي الشابة الخجول

فضلت أولاً العذاب على الشكوى . فكمال خلقها بالذات يمنعها من التجرؤ على الامتناع عن القيام بواجباتها الزوجية أو محاولة التفصي عن سبب آلامها . إذ أن إيقاف هذه الآلام أمر حساس جداً . وجولي تخشى أن تهين خفراً كسابة .

لتحرراً الآن بإيجاز وضع السيد دي إغلمون في ظل الملكية الثانية .

ألا يصادف كثير من الرجال الذين تبدو عدم كفاءتهم العميقة سرّاً أمام معظم من يعرفونهم؟ مكانة اجتماعية عالية، أو محتدّ نبيل أو وظائف هامة، أو بعض مظاهر اللباقة، أو الرزانة في السلوك أو شهرة الثروة؛ عوامل تشكل بالنسبة لهم حرس يمنع النقد والناقد من التسرّب إلى واقع وجودهم الحميم .

ويشبه هؤلاء الرجال الملوك الذين لا يمكن أبداً أن تُعرف مكانتهم الحقيقية أو طبعهم أو عاداتهم، ولا أن تُحصّص بدقة؛ ذلك أنهم مرتبون عن بُعد كبير أو عن قُرب قريب جداً . وهؤلاء الأشخاص ذوو الجدارة المُستعلة يسألون بدلاً من أن يتكلموا، ويمتلكون فنّ تعرية الناس ليتجنبوا الظهور أمامهم، ثم بمهارة موقفة يحركون كل فرد بالسلك المتعلّق بأهوائه أو بمصالحه . وهكذا يلعبون بمن هم أعلى منهم حقيقة، ويجعلون منهم دُمى في أيديهم، ويعتقدون بصغرهم لأنهم استكانوا لهم، ويحققون عندئذ الانتصار الطبيعي لفكرة حقيرة لكنها ثابتة حول الأفكار الكبيرة . وهكذا لأجل الحكم على هذه الرؤوس الفارغة وتقدير قيمها السلبية، يجب أن يمتلك الملاحظ عقلاً أكثر حدقاً منه سمواً، وطبعاً أكثر صبراً منه بُعد نظر، وأفكاراً أكثر مكرماً ولباقة منها رفعة وكبراً . غير أن هؤلاء المتحلّين أيّاً كانت مهارتهم في الدفاع عن نقاط الضعف فيهم يصعب عليهم جداً أن يخدعوا نساءهم أو أمهاتهم، أو أولادهم، أو صديق البيت . إنما أفراد العائلة يحتفظون بشكل دائم تقريباً بسرّهم، نوعاً ما، بالشرف العام . وغالباً ما يساعدون، هم بالذات، على إخفاء هذا السرّ عن الناس . ولئن كان كثير من الحمقى يُعدّون بفضل هذه التأمّرات البينية من كبار الرجال؛ فإنهم يعوّضون عن عدد من كبار الرجال يتصرفون كاحمقى؛ وبذلك يكون للوضع الاجتماعي العام ذات الكتلة من القُدّرات

الظاهرة. فكروا الآن بالدور الذي يجب أن تلعبه امرأة ذكية حساسة بوجود زوج من هذا النوع. ألا تلاحظون حيوات ممثلة بالألام والتضحية، وما من شيء في هذا العالم يمكن أن يكافئ قلوبها الممتلئة حباً وورقة؟، وإن صودف وجود امرأة قوية في هذا الوضع الرهيب فستج عن ذلك جريمة كما فعلت كاترين الثانية<sup>(١)</sup>، ومع ذلك لُقبت بالكيرة. وبما أن العروش لا تتسع إلا لعدد محدود جداً من النساء فإن معظم الباقيات يتعرضن لعواجز عائلية لا تقلل من رهبتها إحاطتها بالغموض أو الكتمان، ومن يفتش في هذا العالم عن مؤاسة مباشرة لمصانئهن، لا يتمكن في الغالب إلا من تفسير موضوع معاناتهن، إن أردن أن يبقين وفيات لواجباتهن، أو أنهن يرتكبن الأخطاء إن تمردن على القوانين لمصلحة مسراتهن.

هذا الأفكار كلها تنطبق على قصة جوليا الحفية. ففي عهد نابوليون، كان الكونت دي إغلمون عقيداً ككثيرين غيره، وهو ضابط مرافق جيد، بارع في تنفيذ المهمات الخطيرة، لكنه عاجز عن قيادة ذات شأن عدا عن أنها لا تستثير أية رغبة لديه، وهو يُعدُّ أحد هؤلاء الشجعان ذوي الخطوة لدى الامبراطور، وقد أطلق عليه العسكريون القدامى لقب القتي الطيب. وردت إليه الملكية الثانية لقب المركيز، ولم يكن عاقاً بالنسبة لها، فتبع البوربونيين إلى غان. وكذب هذا الفعل الدال على المنطق والوفاء التنبؤ السابق لحبه عنه والقائل إن صهره لن يتعدى رتبة العقيد، فبعد العودة من غان سُمي عميداً، وطمح إلى أن يغدو عيناً من الأعيان بعد أن بُت في نبالته مركيزاً، فتبنى حكم مجلة الكونسرفاتور<sup>(٢)</sup> وسياستها، وتغلف برباه لا يخفي شيئاً، وتصنع الرزانة، وغدا مستجوباً، قليل الكلام، واتخذ مظهر الرجل المفكر العميق الغور، واعتصم دون انقطاع بأنماط من التهذيب، وتجهز بصيغ وحفظ كثيراً من العبارات الجاهزة التي تصاغ بانتظام في باريس، لينشرها بإسراف كقطع النقود الصغيرة على الحمقى معبّراً من خلالها عن الأفكار أو الأعمال العظيمة، وحسبه

(١) للمرجع إلى مفصل بطرس الثالث من قبل ألكسيس أورلوف بأمر من كاترين.

(٢) هي الحلقة الملكية المتطرفة التي تعاون معها شاتوبريان وبونالد ولامرين لكنها لم تظهر إلا في العام

١٨١٨ ونحن في العام ١٨١٥.

أبناء الطبقة الراقية رجل ذوق ومعرفة، وتشبّث بأرائه الارستقراطية فتوة بطبعه الحازم. وإذا حدثت مصادفة ظهر فيها متهوراً، أو مرحاً كما كان في السابق، فتفاتهت وحمافة كلماته تعني بالنسبة للآخرين تطلعات دبلوماسية مضمرة.

- اوه! إنه لا يقول إلا ما يشاء قوله. هذا ما يفكر به الشرفاء جداً. وهكذا فقد استفاد جداً من مزاياه ومن عيوبه فشجاعته أكسبته شهرة عسكرية عالية لاسبيل لدحضها إذ أنه لم يكن قائداً مسؤولاً عن انتصار أو هزيمة. ووجهه الرجولي النبيل يعبر عن أفكار واسعة؛ وملامحه لانعد مظهراً خداعاً إلا في نظر امرأته وبسماحه جميع الناس يتغنون بمواهبه المصطنعة انتهى المركيز دي إغلمون إلى الاقتناع بأنه أحد الرجال الأكثر بروزاً في البلاط حيث عرف كيف يرضي بمظاهرة، وحيث قبلت جميع مزاياه دون أي اعتراض.

غير أن السيد دي إغلمون كان متواضعاً في المنزل، فهو يشعر غريزياً بتفوق امرأته، رغم صياها، ومن هذا التقدير العفوي تولدت سلطة خفية للمركيزة، وجدت نفسها مضطرة لقبولها رغم جميع جهودها في إبعاد هذا الحمل عنها. وبصفة مستشار لزوجها كانت تدير الأعمال والثروة. وكان هذا التأثير المخالف لطبيعة الأمور بشكل نوعاً من المهانة لها ومصدراً لمتاعب تكتمها في قلبها. فأولاً كانت غريزتها الأنثوية المهرفة تقول لها إن الأجل إطاعة رجل ذي موهبة بدلاً من قيادة أحقق؟ وإن زوجة شابة مضطرة للتفكير والتصرف كرجل، ليست امرأة ولا رجلاً، وهي تنازل عن جميع نعم جنسها لتتجنب المصائب، دون أن تكتسب أباً من المزاي التي منحها قوانين الجنس الأكثر قوة فحياتها تخفي سخرية مرّة. أليست مضطرة لتبجيل معبود أجوف، وأن تحمي حاميتها. هي كائن مسكين يلقى إليها كآجرة عن تفانيها المستمر حبّ زوج أناتي، لا يرى فيها إلا المرأة، ولا يتنازل أو لا يعرف، وكلا الأمرين إهانة عميقة، أن يهتم بملذاتها، أو أن يتحرى عن أسباب سقمها وكابتها؟ والمركيز كمعظم الأزواج الذين يشعرون بتبر نفس سامية تغلقهم، يتنقد غروره مقررراً أن الضعف الجسدي أوصل جولي إلى هذا الضعف المعنوي الذي يحلوه أن يشكو منه

ملفياً التبعة على الحظ السئ، الذي رماه بفتاة سقيمة زوجة له . أخيراً يتصور نفسه الضحية بينما هو الجلاذ . ويجب على المركيزة المشغلة بجميع هموم هذه الحياة الكثية، أن تبسم أيضاً لسببها الأحمق، وأن تزين بالزهور بيتاً يجب أن يعلن الحداد فيه، وأن تبدي الحبور على ملامح وجه حوكت عذابات خفية نضرته إلى شحوب . هذه المسؤولية المشرفة، وهذا التفاني الرائع أعطيا تدريباً للمركيزة الشابة وجاهة المرأة، ووعي الفضيلة اللذين منحاهما الحماية ضد أخطار العالم . ولأجل سبر هذا القلب حتى صميمه، كان المصاب الحميم والخفي الذي توج به جنبها الأوك، جنبها البريء كعذراء، فجعلها هذا المصاب، على الأرجح، تشمتن من جميع الأهواء، وقد لا تتصور الإغراء ولا المسرات غير المشروعة، إنما الجامحة التي تنسي بعض النساء قوانين التعقل ومبادئ الفضيلة التي يركز عليها المجتمع . وبعد أن تخلت كما في حلم، عن الحلاوات والتناسق الرقيق الذي وعدتها به تجربة السيدة دي ليستومير لاندون العريقة، انتظرت باستسلام نهاية متاعبها بالموت وهي شابة . فمئذ عودتها من تورين أخذت صحتها تضعف يوماً وبدت لها الحياة مفاة بالعذاب، غير أنه عذاب أتيق ناتج عن مرض شبه مفر باللفة ظاهرياً، ويمكن أن يعد في نظر الأشخاص السطحيين أشبه بنزوة خليلة طائشة . وأشار الأطباء على المركيزة بالبقاء مستلقية على ديوان حيث كانت تدوي وسط الأزهار التي تحيط بها وتذبل كذبولها . ومنعها ضعفها من السير واستنشاق الهواء العليل فهي لا تخرج، وهي محاطة دون انقطاع بجميع عجائب ترفنا، وصانعنا الحديثة، فهي أكثر شها بملكة فائرة الهمة منها بمریضة . ويأتي بعض الأصدقاء المغمومون على الأرجح بشقائنها وضعفها، الواقفون من وجودها دائماً في منزلها، المتوقعون أيضاً دون شك تحسن صحتها في المستقبل، يحملون إليها الأخبار، وينشونها بهذه الأحداث الصغيرة التي تجعل من باريس الوجود الأكثر تنوعاً . فكاتبها، رغم خطورتها وعمقها، كانت إذن كابة الرخاء . فالمركيزة دي إغلمون تشبه زهرة جميلة تفرض جذرها حشرة سوداء . وكانت تؤم المجتمعات أحياناً لا عن رغبة، وإنما استجابة لمستلزمات الوضع الذي يصبو إليه زوجها . وكان صوتها وانفانها الغناء يستفيلان بالتصفيق وهتاف الاستحسان اللذين

تزهو بهما تقريباً كل امرأة شابة، لكن ماذا نفيدها النجاحات التي لا تعيد عواطف أو آمالاً؟ وزوجها لا يحب الموسيقى. أخيراً فهي تتضايق على الدوام تقريباً في الصالونات حيث يطري الوصليون والتفزيون جمالها، وتبدو في وضع يثير نوعاً من شفقة قاسية وقضولاً محزناً، فهي مصابة بالتهاب ميمت في الغالب تتناقل النساء سره همساً، ولم يجد له علم مصطلحاتنا اسماً حتى الآن. ورغم الصمت الذي تجري فيه حياتها فإن سبب ألمها لم يخف على أحد، فهي ما تزال تحتفظ بطبع الفتاة رغم الزواج، وأقل النظرات تخجلها، وهكذا تضطر دائماً للظهور ضاحكة لتخفي حمرة خجلها وهي تتكلف فرحاً مزيفاً، وتقول إنها في عافية تامة، أو تتدارك الأسئلة عن صحتها بأكاذيب حية. غير أن حدثاً ساهم كثيراً في العام ١٨١٧، في تعديل الوضع المتردي الذي كانت جولي تفرق فيه حتى ذلك الحين. فقد أنجبت طفلة وأرادت إرضاعها، فجعلت الأهلئيات البالغة والمسرات القلقة الناجمة عن عنايات الأمومة، حياتها أقل تبعاسة، وأبعدها أمومتها بالضرورة عن زوجها. وتوقع لها الأطباء صحة أفضل، لكن المركيزة لم تثق بهذه التوقعات الافتراضية، وكجميع الأشخاص الذين خلت حياتهم من العذوبة فقد رأت، على الأرجح الموت حلاً سعيداً لأزمتها.

في بداية العام ١٨١٩ بدت لها الحياة أكثر قسوة من أي وقت مضى. ففي الأوقات التي استحسنت فيها السعادة السلبية التي عرفت كيف تأتلف معها، استشفت لجحاً مرعبة<sup>(١١)</sup>: فقد أخذ زوجها تدريجياً ينفر منها. ورأت أن هذا البرود في عاطفة كانت فاترة وأنانية يمكن أن يؤدي إلى أكثر من مصيبة دفعتها لباقتها المرهفة وفطنتها إلى توقعها. وبالرغم من أنها كانت واثقة من استمرار تأثيرها الكبير على فيكتور وأنها تحظى بتقديره على الدوام. فإنها خشيت من سطوة الأهواء على رجل عديم الكفاءة وأرعن بمزيد من الغرور وغالباً ما فاجأ الأصدقاء جولي وهي

(١١) تسجيل لبدء خيانة فيكتور الزوجية في العام ١٨١٩ وقد تزوج في العام ١٨١٣ لكن سيؤ أن ذكر في رواية «سجد وشفاة» أنه كان عشيق الدوقة كار بعليانو في العام ١٨١٤، أمي علاقة قبل الزواج؟.



مستغرقة في تأملات طويلة، وكان الأقل بصيرة منهم يسألونها عن سر تفكيرها العميق مازحين كأن ليس على المرأة الشابة أن تفكر إلا بتفاهات سطحية، وكان لا يوجد أبداً معنى عميق في خواطر ربة عائلة، مع أن النعاسة كالسعادة الحقيقية تفودنا إلى أحلام اليقظة. كانت جولي وهي تلاعب أحياناً طفلتها هيلين نظرت إليها بعين قائمة، وتكف عن الإجابة على هذه الأسئلة الطفولية التي تيرق لها أسارير الأمهات فرحاً، لتتصرف إلى التفكير بقدرها حاضراً ومستقبلاً، وتغوررق عيناها بالدموع عندما تعود بها الذكرى إلى مشهد العرض العسكري في التويلري. وترن في أذنيها مجدداً كلمات أبيها المتبصرة؛ ونحس يوحز الضمير لأنها تقدّر حكمته. ومن هذه المعصية الهوجاء أتت كل مصائبها، وهي لا تعلم غالباً أيها الأصعب حملاً من بينها. فالكتوز الحلوة في روحها لن تبقى مجهولة فحسب؛ لكنها لن تتمكن أبداً أن تتوصل إلى تيسير فهم زوجها لها حتى في أشياء الحياة العادية تماماً. ففي الأوقات التي تفتحت فيها قدرتها على الحب قوية، نشطة؛ تلتشى الحب الحلال، الحب الزوجي وسط الأم جسدية ومعنوية جسيمة. ثم أحست نحو زوجها بشفقة قريبة من الازدراء أذوت مع الأيام جميع العواطف. أخيراً إن كانت محادثاتها مع بعض الأصدقاء، أو بعض الأمثلة أو بعض مقامرات المجتمع المخملي لم تعلمها أن الحب يأتي بلحظات سعادة واسعة، فإن جراحها تجعلها تخمن اللذات العميقة والتقىة التي تجمع روحين أختين. وفي اللوحة التي خطتها ذاكرتها عن الماضي كان يرسم وجه آرثور البريء كل يوم أكثر نقاء، وأكثر وسامة، إنما بسرعة لأنها لا تحسر أن تتوقف عند هذه الذكرى فحب الإنكليزي الصامت والحجول كان الحدث الوحيد الذي ترك منذ زواجها بعض أثار عذبة في ذلك القلب الحزين المنعزل. ربما كانت جميع الآمال المخدوعة وجميع الرغبات المجهضة التي أحزنت نفس جولي تدريجياً تعود بحركة طبيعية من الخيلة إلى هذا الرجل الذي يبدو أن انسجاماً قائماً بينهما في الأساليب والعواطف والطبع، لكن هذه الفكرة بدت دائماً تزوة أو حلماً. وبعد هذا الحلم المستحيل الذي ينتهي دائماً بالتهديدات، كانت جولي تستيقظ وهي أكثر نعاسة، ونحس بشكل أشد بالأمها الدفينة الهاجعة تحت أجنحة سعادة متوهمة، وكانت تأفاتها تأخذ أحياناً طابع طيش وجرأة، فترغب في اللذات بأي ثمن، لكنها تبقى

غالباً فريسة ما لا أدريه من خدر غيبي، تسمع دون أن تفهم أو تتصور أفكاراً مبهمه، حائرة إلى حد لا تجد لغةً للتعبير عنها، وتكتمش حتى في أكثر رغباتها حميمية، وفي الطبايع التي كانت تحلم وهي فتاة بتيبها؛ وتضطر إلى افتراس دموعها، إلى من تشكو؟ ومن يمكنها أن تستمد النصيحة. ثم إنها تتميز بتلك الرهافة القصوى كامرأة. وبذلك الخفر الرائع في العاطفة الذي يلزمها بالصمت والامتناع عن شكوى لافائدة منها، وعدم اتخاذ أية مبادرة في قضية يكون الانتصار فيها مذلّاً للغالب والمغلوب. وحاولت جولتي أن تضع مؤهلاتها وقضائلها تحت تصرف السيد دي إغلمون، وتباهت بطعم سعادة حرمت منها، واستخدمت كل رقتها الأثوية في اهتمامات لم يدربها، واستمرت بها حتى في تقاوم استبداده. في بعض اللحظات كان الشفاء يسكرها، فتنشردُ فكرياً، وتجمع خيالاً لكن ورعاً حقيقياً يردّها دائماً إلى أمل سام: فتنلجى إلى التفكير في حياة المستقبل بإيمان عجيب، يجعلها تقبل مجدداً واجبهما الزوجي المؤلم. كانت هذه الصراعات شديدة الرهبة، وهذه التمزقات الداخلية دون غبطة. وهذه الأحران الطويلة طي الكتمان، فما من مخلوق يلحظ نظراتها الكلية أو دموعها المرة التي تنسكب على غير هدى وفي عزلة. انكشفت أخطار الوضع الحرج، الذي وصلت إليه المركزية تدريجياً، بفعل الظروف، في كل جسامتها خلال أمسية من شهر كانون الثاني ١٨٢٠: فعندما يتعارف زوجان بشكل تام، ويتعود كل منهما على الآخر، وعندما تعرف المرأة أن تفسر كل حركات زوجها، وأن تتغلغل إلى صميم العواطف والأشياء التي يخفيها، فإن أضواء مفاجئة تنبثق غالباً بعد الأفكار أو الملاحظات السابقة الناتجة عن المصادفة أو التي أجريت في البدء بلا مبالاة وتستيقظ المرأة غالباً بشكل مفاجئ وهي على حافة الهاوية أو في قعرها. وهكذا فالمركزية، السعيدة لأنها وحيدة منذ بضعة أيام، ختمت سرّ وحدتها؛ فزوجها المنقلب أو الشعب، الشهم أو المشفق عليها، لم يعد ملكها. وهي الآن لا تفكر بنفسها، ولا بالأمها، ولا بتضحياتها. فهي لم تعد إلا أمّاً، تتطلع إلى حظّ ابنتها، ومستقبلها، وسعادتها، الكائن الوحيد الذي يأتيها منه بعض صفوئها، طفلتها هيلين، النعمة الوحيدة التي تربطها بالحياة، فجولتي تريد أن تعيش لتقي ابتها المروع الذي يمكن

لزوجة أب أن تُخمد فيه حياة هذه المخلوقة العزيزة . وأمام هذا التوقع الجديد لكارثة مقبلة، استغرقت في إحدى هذه التأمّلات المحنّمة التي تفترس سنوات كاملة، فبينها وبين زوجها، من الآن فصاعداً، سيقوم عالم من الأفكار تحمل وزره وحدها. فحتى ذلك الحين كانت واثقة أن فيكتور يكن لها الحب الذي يقدر عليه، ونذرت نفسها للسعادة لا بناتها منها نصيب، لكنها الآن لا تشعر بالرضى لمراى دموعها تخلق المتعة لزوجها؛ ولم يبق أمامها، وهي الوحيدة في العالم، إلا الاختيار بين المصائب. ووسط القنوط الذي ثبّط جميع قواها، وفي هدأة الليل وسكونه، وعندما تركت مقعدها العريض، بعد أن أوشكت النار في مدفاتها على الانطفاء، توجّهت على ضوء مصباح تتأمّل ابنتها بعين جفّ دمعها، وإذا بالسيد دي إغلمون يدخل إلى المنزل عائداً جذلاً من سهرته، فطلبت منه جولي أن يستكمل فرحته بمراى رقاد هيلين المثير للإعجاب لكنه استقبل حماس زوجته بعبارة مبتذلة، قال:

- جميع الأطفال في هذا العمر لطفاء.

ويعد أن قبل بلا مبالاة جبين ابنته سحب سنائر مهدها، ونظر إلى جولي ثم أمسك يدها وأجلسها قربه على تلك الكنبّة التي راودتها فيها كثير من الأفكار المشؤمة.

هتف بذلك المرح غير المحتمل الذي تعرف المركيزة جيّداً مدى نفاخته:

- كم أنت فاتنة هذا المساء، ياسيدة دي إغلمون.

سالته وهي تتظاهر باللامبالاة: أين قضيت سهرتك؟

- عند السيدة دي سريزي.

وتناول عن حافة المدفأة حاجزاً واقياً وبدأ يتأمّل بانتباه شفافيته، دون أن يلحظ أثر الدموع في عيني زوجته، وارتعشت جولي فاللغة لانكفي للتعبير عن لواعج الأفكار التي تتابها وتحاول كتبها.

واستأنف المركز : ستقيم السيّد دي سريزي حفلة موسيقيةً يوم الاثنين القادم وهي شديدة الرغبة في حضورك لها . يكفي أنك منذ مدة لم تظهر في الأوساط الاجتماعية لتشتاق إلى رؤيتك في منزلها . وهي امرأة طيبة تكن لك كل الحب ، ويسرّني أن تلمّي دعوتها ، وقد وعدتها تقريباً بذلك . . . .  
أجابت جولي : سأذهب .

كانت نبرة صوت المركزية ولهجتها ونظرتها تتضمّن شيئاً نفاذاً وشديداً الخصوصية ، حتى أن فيكتور رغم لامبالاته نظر إلى زوجته بدهشة . وكان هذا كل شيء . وخمّنت جولي أن السيدة دي سريزي هي المرأة التي استولت على قلب زوجها ؛ وانتابها القنوط وشردت أفكارها وبدت كثيرة الاهتمام بمراى النار . وراح فيكتور يقلب الحاجز بين أصابعه بمظهر الرجل الضمّج الذي نعيم بالسعادة خارجاً وحضر إلى بيته يحمل متاعب سعادته ، وبعد أن تناهت عدة مرّات تناول شمعداناً بيدٍ وسعى باليد الأخرى إلى عنق امرأته محاولاً تقبيله ، لكن جولي تطأطأت رأسها ، وعرضت له جيبتها لتلتقى عليه قبلة المساء تلك القبلة الآلية الخالية من الحب ، التي بدت لها عندئذٍ نوعاً من تكشيرة بغيضة . وعندما أغلق فيكتور الباب ، نهالكت المركزية على مقعد وساقاها تسرّحان ، وانخرطت في البكاء . يجب أن يتعرّض الإنسان لعذاب مشهد مماثل ليدرك كل ما يتضمّن هذا الموقف من آلام ، وليخمن المآسي الطويلة والرهية الناجمة عنه . هذه الكلمات الشافية الخرقاء ، وأوقات الصمت السائدة بين الزوجين ، والحركات ، والنظرات ، والطريقة التي جلس فيها المركز أمام النار . وتصرف المركز في سعيه لتقبيل عنق امرأته . كل ذلك جعل من تلك الساعة حلّ عقدة مأساوياً للعيش المتزوي المزلّم الذي تعاناه جولي . وفي حمى جنونها جثت على ركبتيها أمام ديوانها ، وحجبت وجهها بيديها كي لا ترى شيئاً ، وتوجهت بصلاة متضرّعة إلى السماء ، وهي تعطي للكلمات المألوفة في دعائها نبرة حميمة ومعنى جديداً ، من شأنها أن تمزق قلب زوجها لو سمعها . وبقيت ثمانية أيام منشغلة بمسئلتها ، فريسة شفاتها ، تمنع النظر فيه باحثة عن وسائل لا تكذب فيها قلبها ،

وتستعيد سيطرتها على التركيز ، وتعيش مدة طويلة نسهر فيها على سعادة ابنتها . وقررت أنذاك أن تجابه منافستها ، وتعود إلى الظهور في المجتمع ، وتناق في ، وتظهر لزوجها حباً لا يمكنها أبداً أن تحس به ، وأن تقويه . وبعد أن تخضعه بهذه الحيلة لسلطانها ستقوم بدور اللعوب كما تفعل أولئك الخليلات الرعناوات اللواتي يجدن متعة في تعذيب عشاقهن ، وكانت هذه الخدعة البغيضة العلاج الوحيد الممكن لمصائبها . وهكذا استغدو سيّدة ألامها وستوجهها كما يحلو لها ، وستجعلها أكثر ندره وهي تستعد زوجهها ، وتخضعه لاستبداد رهيب ، ولن تشعر بأي نيكيت ضمير في أن تجعل حياتها جحيماً . واتطلقت دفعة واحدة في خطط اللامبالاة الباردة ؛ فقد اكتشفت فجأة ، من أجل إقناذ ابنتها ، الخدع وأكاذيب المخلوقات المبعوضة ، ومراوغات التددل ، وتلك الخيل البشعة التي تدفع إلى كره المرأة التي يفترض الناس فيها عندئذ الفساد الفطري . ودون علم جولي توافق زهوها الأنثوي ومصالحتها ورغبة انتقام مبهمه مع حبها الأمومي لتجعلها تسلك طريقاً تنتظرها فيه ألام جديدة ؛ لكنها كانت تملك روحاً جبيلة جداً ونفساً مرهفة ، وكثيراً من الصراحة بحيث لا يمكن أن تبقى لمدة طويلة مشورطة في هذا الغش . ومع أول خطوات الرذيلة ، وهذا يعدُّ رذيلة في نظرها ، وهي المتعوده على القراءة في ذاتها ، استيقظ فيها صوت الضمير محاولاً خنق صوت الأهواء والأنانية . والواقع أن شعور الأمومة ذاته لدى المرأة الشابة التي ما يزال قلبها نقياً ، والحب فيه بكرأ ، يخضع لنداء التحجل ، أليس التحجل هو كل المرأة ؟

وجولي لا تريد أن تلاحظ أي خطر ، أو أي خطأ في حياتها الجديدة ، وقد حضرت إلى حفلة السيّدة دي سريري التي كانت تتوقع أن ترى زائرنا امرأة شاحبة سفيمة وكانت الركيزة قد تزينت ونأثقت في حلة تزيد من جمالها .

تعدُّ السيّدة الكونتيسة دي سريري إحدى هؤلاء النسوة اللواتي يرين في ممارستنهن على الأزياء والمجتمع في باريس نوعاً من الهيمنة . فهي تلملي قرارات تبدولها في الوسط الذي تعيش فيه متبناة كلياً ، وتزهو بكلمات مأثورة تظننها ، وهي

ناقذة تبدي رأيا في كل شيء، ويتعرض الأدب والسياسة والرجال والنساء لرقابتها التي تتحدّى رقابة الأخباريات. ومنزل السيدة دي سريري، مثال في كل شيء، للذوق الرفيع، وفي وسط صالوناتها الممتلئة بالنساء الأنيقات والجميلات تفوقت جولي على الكونتيسة؛ فقد جمعت بذكائها وحيويتها ونشاطها الرجال الأكثر تميزاً في السهرة حولها، ورمت القنوط في نفوس النساء بزينتها التي لا تجاري، فتعلقتن الغيرة عند مرأى تفصيله ثوبها وشكل صدره الذي نُسب تأثيره إلى مهارة خياطة مجهولة، لأن النساء بَعُدْنَ إلى الإيمان بفن الأزياء أكثر من اعترافهن بظرف ورشاقة قوام من ارتدين الزي. وعندما نهضت جولي متوجهة إلى البيانو لتعزف وتشد أغنية ديدمونة، هرع الرجال من جميع الصالونات لسماع هذا الصوت الشهير الذي طال شوقهم إليه، وساد صمت عميق. وأحست المركيزة بتأثر شديد لرؤية الرؤوس تطلّ من الأبواب وجميع الأنظار معلقة عليها؛ وجالت عينها تبحث عن زوجها، ورشقته بنظرة ملؤها الغنج والدلال؛ وشعرت بتأثر شديد في تلك اللحظة لما لاقته من إطرأ يشبع زوها. وسعدت بهذا النجاح، فأمتعت الحضور بالقسم الأوّل من، *Al Pio Salice* فلا الميران\*، ولا باستا\*\* أسمعنا غناءً يمثّل هذا الكمال في النبيرة والتعبير العاطفي؛ لكنها في لحظة تكرار اللازمة لاحظت بين زمرة المدعوين أرثور الذي لم تفارقها عيناه، فانتابها قشعريرة، واختلج صوتها، وانطلقت السيدة دي سريري نحوها وهي تقول:

- مالك يا عزيزتي؟ أوه! بالصغيرة المسكينة، إنها عليلة! وأنا أرثع لرؤيتها  
تُقدم على جهْد فوق قواها...

وتوقّف الإنشاد، فقد أحست جولي بالخيبة، ولم تتمالك الشجاعة على الاستمرار، وتعرضت لإشفاق غريبتها الغادر، وتهاومت جميع النساء يناقشن هذا الحديث، فحتمّ الصراع القائم بين المركيزة والسيدة دي سريري، ولم يوفرن عنهما

\* الميران: ماريا، (١٨٠٨، ١٨٣٦): مغنية شهيرة من أصل إسباني.

\*\* باستا: جيوديتا، ماريا. كوستانزا نغري (١٧٩٧، ١٨٦٥) مغنية إيطالية.

النمائم؛ وتحققت فجأة الهواجس الغريبة التي كانت تفلق غالباً جولي؛ فباهتمامها بأرنور كان يروق لها الاعتقاد بأن رجلاً يبدو ظاهرياً في منتهى الرقة ورهافة الإحساس، يجب أن يكون مخلصاً لحبة الأوك، وكانت تزهو أحياناً بكونها هدف هذه العاطفة الحلوة، العاطفة النفية والحقيقية لشاب تعود جميع أفكاره لمحبوته، ويخصها بجميع لحظات حياته دون موارد، ويحمرّ خجلاً بما تخجل منه امرأة، ويفكر كامرأة. ولا يسمي إلى علاقة مناقسات لها، وينصرف إليها دون التفكير بمسنى، أو مجد، أو ثروة. حلّمت بكل هذا وهي تفكر بأرنور طيشاً أو نسلية؛ وفجأة ظنت أنها ترى حلمها يتحقق، وقرأت على وجه الشاب الإنكليزي شبه الأنثوي الأفكار العميقة، والكأبات الرقيقة، والاستكانات المؤلمة التي كانت هي بالذات ضحيتها؛ ورأت نفسها فيه؛ فالشفاء والكأبة أفصح من يترجم الحب، ويصل بين كائنين منالّمين بسرعة فائقة، فالنظرة الحميمية والاندماج بالأشياء أو الأفكار لديهما صحيحة وكاملة. وهكذا فعنف الصدمة التي تلقتهما المريضة كشفت لها كل أخطار المستقبل، وأسعدتها أن تجد ذريعة لاضطرابها في وضعها المألوف من الشفاء، فرضخت بطيبة خاطر للسيدة دي سريزي ترهقها بشفتقتها المأكرة. وكان إيقاف الإنشاد حدثاً تداوله عدة أشخاص بطرق مختلفة؛ فأسف بعضهم لسوء حظ جولي، وتحسروا على رؤية امرأة بمثل هذه الروعة تضيق من أجل المجتمع؛ وأراد آخرون أن يعرفوا سبب عذابها والعزلة التي تعيش فيها.

قال المركز لسقيق السيدة دي سريزي: إيه! يا عزيزي رونكول: ألا تحسدني على سعادتي وأنت ترى السيدة دي أغلمون وتلومني على خيانتني لها؟ ولكن نقص، وستجد حظي التعس غير مرغوب ولن نشتهي أبداً، لو بقيت مثلي زوجاً لامرأة جميلة خلال سنة أو سنتين، ولا تحسّر أن تقبل يدها خشية أن تحطمها، ولا أن تلمس هذه الجواهر المرفهة التي لا تصلح إلا لتوضع تحت الزجاج، لما يلزمنا به غلاؤها ووهنها من وقاية. هل تخرج حصانك الجميل، وقد قيل لي إنك شديد الحرص عليه، في أيام المطر والثلج؟ هي ذي قصتي. صحيح أنني واثق من عفة امرأتي.

لكن زواجي ترف كمالي، وأنت تخطي: إن اعتقدت بممارستي حياة زوجية طبيعية، وهكذا فإن خياناتي تُعدُّ مشروعة نوعاً ما. كم أود أن أعلم ماذا ستفعلون لو كنتم في مثل حالي أيها السادة المتهكمون؟ فليس لكثير من الرجال مثل مراعاتي لزوجتي؛ ثم أضاف همساً: وأنا واثق أن السيدة دي إغلمون لا يداخلها شك بحسن سلوكي، وهكذا سأكون مخظناً إن تدمرت، فأنا سعيد جداً... غير أن لاشيء أكثر إزعاجاً للرجل الحساس من رؤية مخارقة مسكينة عزيزة عليه تعاني العذاب...

- أجاب السيد دي رونكرو: أنت إذن شديد الحساسية؟ إذ نادراً ما تلزم بيتك. أضحك هذا التهكم الودّي المستمعين، لكن آرثور بقي بارداً، غير متأثر، وهو الرجل الرصين بطبعه، لكن كلمات هذا الزوج جعلت الإنكليزي الشاب دون شك، يتصور بعض الأموال، وقد انظر بفارغ صبر اللحظة التي أمكنه فيها الانفراد بالسيد دي إغلمون، وما أن تيسرت له هذه الفرصة السانحة حتى بادره قائلاً:

- سيدي، شعرت بقلق عظيم وأنت تذكر وضع السيدة المركيزة، وإذا كنت تعلم أنها، نتيجة عدم توفر نظام خاص من العناية بها، ستعرض لخطر الموت، فإنني أعتقد أنك لاتقف موقف اللامبالي تجاه ما تعانيه من عذاب. ولئن تجرأت على توجيه مثل هذا التصريح لك، فلأنني متأكد أن لدي ما يؤهلني لإتقاذ السيدة دي إغلمون وإعادة السعادة وبهجة الحياة لها. قلماً نجد إنساناً طبيياً بين نبلاء مرتبتي غير أن المصادفة شاءت أن أدرس الطب. ثم أضاف وهو يتظاهر بأنانية باردة ثلاثم الهدف الذي يسمى إليه: وما أعانيه الآن من مقل يجعلني لأبالي بشخصيص الوقت الكافي، والقيام بالأسفار اللازمة لمصلحة كائن يتألم بدلاً من إشباع بعض نزوات حمقاء. إن شفاء مثل هذه الأنواع من الأمراض نادر لأنه يتطلب كثيراً من العناية، والوقت، والأناة؛ ويجب خاصة امتلاك الثروة، والقيام بالأسفار، والتفقد بالتعليمات الطبية وهي تتغير كل يوم، ولكن ليس في ذلك ما يكدر. إننا من صفوة النبلاء، وشدد على هذه العبارة بمفهومها الإنكليزي؛ ويمكننا أن نتفاهم. وأنا أستدرك القول إنك في حال قبولك لعرضي ستكون في كل لحظة حكماً على



تصرفاتي ، ولن أتخذ أية مبادرة دون أن أستشيرك وأخضع لرؤيتك ، وسأوفر لك النجاح إن وافقت على إطاعتي . ثم همس في أذنه مازحاً : إلا إن أردت ألا تبغى لمدة طويلة زوجاً للسيدة دي إغلمون .

- أجاب المركيز ضاحكاً : من المؤكد أن إنكليزياً فقط يمكن أن يقدم لي اقتراحاً يمثل هذه الغرابة . اسمح لي ألا أرفضه ، وألا أقبله ، بل أن أفكر به . وقبل كل شيء ، يجب أن يطرح علي زوجتي .

في تلك اللحظة ظهرت جولي مجدداً على البيانو وغنت نحن سميراميد<sup>(١)</sup> Son regina, Son guerriera فحظيت باستحسان إجماعي ، لكنه استحسان صامت ، إن صح القول ، هو تهليلات ضاحية سان جرمان المهذبة التي تشهد على ما أثارته من حماس .

عندما عاد ذي إغلمون بزوجه إلى قصره ، لاحظت جولي بنوع من السرور القلق نجاح محاولتها السريع ، فزوجها ، المستيقظ بالدور الذي لعبته ، أراد أن يشرقها بنزوة ، وطاب له أن يعاملها وفق تمثيلها ، واستحسنت جولي هذه المعاملة وهي الفاضلة المتزوجة ، وحاولت ما استطاعت أن تفرض سلطاتها ، لكن طبيعتها جعلتها تستسلم مرة أخرى ، لكنها كانت المرة الأكثر رهبة من جميع الدروس التي أعدها لها القدر ، ونحو الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً كانت تجلس مكتهرة حاملة في السرير الزوجي ، ومصباح ذو ضوء خافت يبدد بعض ظلمة الغرفة ، والصمت العميق مخيم فيها ؛ وقد انتاب المركيز منذ نحو ساعة تبيكيت ضمير جارح ، وهي تسكب دموعاً لا تدرك مرارتها إلا النساء اللواتي تعرضن لذات الموقف وامتلكن روحاً كروح جولي للإحساس مثلها بفتح مداعبة متكلفة ، وللاشمزاز من قبلة باردة ؛ ردة قلب تقافمت بدعارة مؤلمة ، ولامت نفسها على استكانتها وهوانها ، ولعنت الزواج ، وودت لو تلقى نحبها . ولولا صرخة من ابتها لألقت بنفسها من النافذة إلى قارة الطريق ، بينما السيد دي إغلمون في رقاد عميق قربها دون أن توظفه الدموع الساخنة

(١) أوبرا سميراميد لروميني مئكت في البندقية العام ١٨٢٣ وفي باريس ١٨٢٥ .

التي تسكبها زوجته فوقه . وفي اليوم التالي عرفت جولي كيف تبدو مرحة ، ووجدت في نفسها القوة لتظهر سعيدة ، وتخفي ليس فقط كاتبها وإنما اشمزازها المتعذر فهره ، ومنذ ذلك اليوم لم تعد تنظر إلى نفسها كامرأة لا عيب فيها . ألم تكذب على نفسها ؟ وبناء عليه أليست قادرة على الرياء ، ألا تستطيع فيما بعد أن تبسط عمفا مذهلاً على الجرائر الزوجية ؟ إن زواجها هو سبب ذلك الانحراف الأوكي الذي ما يزال غير مؤثر في شيء . غير أنها تساءلت لماذا تقاوم عشيقاً محبوباً بينما هي تستسلم على مضض ، وضد الميل الفطري لزوج لا تحبه أبداً . إن جميع الأخطاء ، والجرائم على الأرجح تستدأثر محاكمة سيئة أو إلى إفراط في الأنانية ؛ والمجتمع لا يمكن أن يقوم إلا على التضحيات الفردية التي تلزم بها القوانين ، وقبلنا منافعها ألا يعني التعهد بدعم شروط استمراره ؟ والحال أن النساء الذين لا يجدون لقمة العيش ، والمزومون باحترام الملكية هم أقل استحقاقاً للشفقة من النساء المحرومات من متطلبات طبيعتهم ورواقتها . بعد عدة أيام من هذا المشهد ، الذي دقت أسراره في سرير الزوجية ، قدم دي إغلمون اللورد غرنفيل لزوجته . واستقبلت جولي أرثور بهذيب فاتر يتلاءم مع ريانها ، وفرضت الصمت على خفقات قلبها ، وحجبت نظراتها ، وأبدت الرصانة في صوتها ، وهكذا استطاعت أن تبقى سيئة مصبرها . وبعد أن تعرفت بهذه الوسائل ، الفطرية لدى النساء ، إن صح القول ، على مدى الحب الذي أوحى به ؛ ابتسمت السيدة دي إغلمون للأمل بشفاء عاجل ، ولم تبد أية معارضة لإرادة زوجها الذي أكرهها على قبول عناية الطبيب الشاب ، غير أنها لم ترد أن تتق باللورد غرنفيل إلا بعد أن درست بشكل كاف كلماته وطرأته لتأكد بأن له من الشهامة ما يكفي للتألم بصمت ، وأن لها هيمنة مطلقة عليه بدأت في المغالاة باستخدامها : أليست امرأة ؟ .

يقع قصر مونكوتور الريفي القديم على إحدى هذه الكتل الصخرية الشهباء التي يجري نهر اللوار عند قاعدتها ، وهو غير بعيد عن المكان الذي توقفت فيه جولي العام ١٨١٤ . وهو أحد هذه القصور الصغيرة<sup>(١١)</sup> المنتشرة في تورين ، المتحيزة

(١١) يبدو أن وصف قصر مونكوتور أخذ عن نصّ وصف قصر أوتيه ١٨١٤ أحد قصور اللوار .

بياضها، وجمالها، وبريجاتها المنحوتة المطرزة كأنها منمنعات مالين\* . أحد هذه القصور الحلوة، الأنيقة التي تنعكس صورتها على صفحة مياه النهر بتجمع أشجار توتها، وكروم عنبها، وطرقاتها المحفزة، ودرابزيناتها الطويلة المكشوفة، وأقيمتها المنقورة في الصخر، وأوشحة اللبلاب حولها، والمنحدرات الشديدة تحف بها. وسطوح مونكوتور تيرق تحت أشعة الشمس، وكل شيء فيها يتوهج؛ وألف أثر من إسبانية يضيء على هذا المسكن الرائع مسحة شعرية: الوزال الذهبي، والأزهار ذات الحريسات تعطر الأنسام، والهواء المداعب، والأرض الياسمة في كل مكان، والمناظر الساحرة العذبة تغلف الروح وتزوجج الحب، وتسكب الوبس في العيتين، وتطربّي النفس وتهدهدها؛ فهذه المقاطعة اللطيفة الجميلة تسكن الألام وتوظف العواطف، ما من أحد يبقى بارداً تحت هذه السماء الصافية وأمام هذه المياه اليراقفة. هنا يخمد أكثر من طمع، وهنا ترفدون في أحضان سعادة هادئة كما ترقد الشمس في أقماطها الأرجوانية واللازوردية.

في إحدى الأمسيات العذبة من شهر آب، في العام ١٨٢١، كان شخصان يتسلقان الدروب الوعرة التي تجتاز الصخور التي يستقر فوقها القصر ويتوجهان إلى القمم ليتمنّيا دون شك المناظر المتعددة التي يكتشفانها. وهذان الشخصان هما جولي واللورد غرنفيل لكن جولي الآن تبدو امرأة أخرى جديدة تشعّ بالوان العافية الصريحة، وعيناها المنتعشتان بقوة خلاقة تيرق عبر غلالة بخار رطب أشبه بمسحة النضارة التي تمنح الأطفال جاذبية لا تقاوم. كانت البسمة لانفارق شفيتها، تبسم للحياة وترفل في أحضان السعادة. ومن الطريقة التي تنقل فيها قدميها الناعمتين تسهل الملاحظة بأن ما من عذاب يشغل الآن، كما في السابق، خطواتها، أو يضيئ نظراتها، أو يلوح في كلماتها أو حركاتها. وهي تحت مظلة الحرير البيضاء التي تقيها من أشعة الشمس الحارة تشبه عروساً شابّة تحت برقها، أو عذراء تنهياً لتستقبل روائع الحب. وكان أرتور يقودها بعناية العاشق. ويوجهها كما يوجه طفل يشير إلى

\* مالين: مدينة في بلجيكة قرب أنفر اشتهرت بمنمنعاتها.

أسهل الدروب ويجنبها المسلك الوعر، يدل على فرجة منظر أو يقف أمام زهرة؛ متحرك على الدوام بشعور طيبة مستمر، وإحساس مرهف، ومعرفة حكيمة برفاهية تلك المرأة، وهي عواطف يبدو أنها فطرية فيه بقدر وربما أكثر من الحركة الضرورية لوجوده الخاص. كان الطبيب والمريضة يسيران بذات الخطوات دون أن يدهشهما اتفاق يبدو وجوده منذ اليوم الأوّل لسيهما معاً. كانا يمتلآن لإرادة واحدة، يتوقفان متأثرين بذات الأحاسيس، تتعلق نظراتها وكلماتهما بأفكار متبادلة. وعند وصولهما إلى أعلى أحد الكروم أرادا أن يستريحا على أحد هذه الصخور الكبيرة البيضاء التي تُقلع باستمرار من الأقيية المعدة في السطح الصخري وتأمّلت جولي الموقع قبل أن تجلس وهنفت:

بالجمال الموقع، فلتنصب خيمة ونحيا هنا. ثم صاحت: هيا يا فيكتور، تعال بسرعة! أجب السيد دي إغلمون من أسفل السطح بصرخة صياد، إنّما دون أن يسرع في سيره، لكنه كان يوجّه إلى امرأته بين وقت وآخر نظرة عندما تتيح له تعاريج الشعب الجبلي الرؤيّة وتشتّت جولي هواء الجبل المنعش ملء رئتيها وهي ترفع رأسها وتلقي على أرثور إحدى هذه النظرات الثابتة التي تعبّر فيها المرأة الذكيّة عن كل أفكارها؛ واستأنفت:

- أوه! أودّ لو أبقى دائماً هنا. فسهل يمكن أن نعمل من النظر بإعجاب إلى هذا الوادي الجميل؟ هل تعرف اسم هذا النهر الرائع، ميلورد؟  
- إنه السيز.

ردّدت: السيز، وتلك التلال الممتدة أمامنا؟

- إنّها هضاب الشير.

- وعلى يميننا؟ أه! هذه تور، ولكن انظر التأثير الرائع الذي تحدثه على البعد قباب أجراس الكاندراتية.

وصممت، وتركت يدها المشيرة إلى المدينة تعود لتلاصق يد أرثور وهما يبادلان نظرات الإعجاب بصممت عبر المشاهد وروائع الطبيعة المتناسقة، وخرير

المياه، وصفاء السماء ونقاء الهواء، كان كل شيء يتوافق مع الأفكار المتدفقة إلى قلبيهما الشابين المتحايين. رددت جولي بحماس ساذج متزايد: إيه! يا إلهي، كم أحب هذه المنطقة! ثم استأنفت بعد توقف: هل تسكن هنا منذ وقت طويل؟

ارتعش اللورد غرنفيل عند سماع هذا السؤال، وأجاب بحزن وهو يشير إلى مجموعة من أشجار الجوز على الطريق: هنا، هنا كنت أسيراً ورايتك لأول مرة...  
- نعم ولكنتي كنت أنذاك كشيبة وقد بدت لي هذه الطبيعة موحشة أما الآن وصمتت، ولم يجسر غرنفيل على النظر إليها.

استأنفت أخيراً جولي بعد توقف طويل: إني مدينة لك بهذه المتعة، ألا يجب أن أكون حية لأحس بأفراح الحياة، وقد كنت حتى الآن ميتة كلياً؟ أعطيتني أكثر من الصحة، علمتني أن أحس بجميع القيم...

للنساء موهبة لا تجارى في التعبير عن عواطفهن دون أن يلدجان إلى كثير من الكلمات الرنانة؛ ففصاحتهم تتجلى خاصة في النبرة والحركة والموقف والنظرات. وأخفى اللورد غرنفيل رأسه بين يديه إذ سالت الدموع من عينيه، فقد كان هذا أول تعبير لجولي عن شكرها له منذ رحيلها من باريس بعد أن شعلت المركيزة بعنايته مدة سنة كاملة وبإخلاص منقطع النظير، فقد قادها بمساعدة دي إغلمون إلى مياه إكس ثم إلى ساحل البحر في لاروشيل، وهو يتحرى في كل لحظة التغيرات التي تحدثها وصفاته الطبية العلمية والبسيطة على بنية جولي المتلفة. وكان يرعاها كرعابة بستاني هاوٍ لزهرة نادرة. وتلفتت المركيزة عناية أرنور الذكية بكل أنانية الباريسية المعشادة على الإكرام، أو بلا مبالاة الخليلية التي لا تهتم بكلفة الأشياء ولا بقيمة الرجال وتنتظر إليها وفق درجة الفائدة المقدمة لها. إن التأثير الذي تمارسه الأماكن على الروح شيء جدير بالملاحظة؛ فإذا كانت الكتابة تتأبنا حتماً عند وجودنا على ضفاف المياه، فإن قانوناً آخر لطبيعتنا المتأثرة يفيد بأن عواطفنا تنقى في الجبال، والهوى يربح فيها عمقاً ما يبدو أنه يخسره حيوية. ومظهر حوض اللوار الواسع وارتفاع الهضبة الجميلة حيث جلس العاشقان أحدثنا على الأرجح، هذا الهدوء العذب الذي تذوقنا فيه أولاً

السعادة التي يُقدِّر فيها مدى الهوى الخفي تحت العبارات غير ذات المعنى ظاهرياً . وفي اللحظة التي أنهت فيها جولي العبارة التي أثرت بشدة في نفس اللورد غرنفيل ، هزّت نسمة مداعبة قمة الأشجار ، ونشرت وطوبة المياه الباردة في الجو ، وحجبت بعض الغيوم أشعة الشمس ، وأتاحت الظلال الرخية رؤية كل هذه الطبيعة الجميلة . وأشاحت جولي برأسها لتخفي عن اللورد الشاب منظر الدموع التي تجرحت في حبسها وتحفيفها ؛ ذلك أن تأثر أرنور انتقل إليها سريعاً ، ولم تجرؤ أن ترفع إليه عينيهما خشية أن يقرأ مدى الفرح المتجلي في هذه النظرة ؛ فغريزتها كامرأة أشعرتها أن عليها في هذه الساعة الحرجة أن تكتم حياها في أعماق قلبها ، غير أن الصمت يمكن أن يكون مرعباً أيضاً ؛ وعندما لاحظت جولي أن اللورد غرنفيل في وضع استمعصت عليه الكلمات استأنفت بصوت عذب :

-تأثرت بما قلته لك ، ميلورد ، وربما كان هذا الانكشاف الانفعالي هو الطريقة التي تتخذها روح طريفة وطيبة كروحك لتتردد عن حكم خاطئ . ظننت أنني عاقبة عندما رأيتني باردة متحفظة ، أو فاقدة الحس ساخرة ، خلال رحلة سنتهي لحسن الحظ قريباً . لم أكن جديرة بعنايتك لو لم أعرف قيمتها ، ميلورد ، لم أنس شيئاً ، وللأسف ! لن أنسى شيئاً ، وخاصة العناية التي دفعتك للسهر عليّ كما نسهر أم على طفلها ، والثقة النبيلة في مداواتنا الأخوية ، ورقة أساليبك ؛ وهي إغراءات نغف جميعاً أمامها مجردين من كل سلاح . ميلورد ، إن مكافأتك هي فوق استطاعتي .

عند هذه العبارة ابتعدت جولي بسرعة ، ولم تدر من اللورد غرنفيل أية حركة لإيقافها . وذهبت المركيزة إلى صحرة على مسافة قريبة ، وجلست عليها ساكنة ، فانفعالاتهما كانت سرراً بالنسبة لها بالذات ، كاتا بيكيان ، دون شك ، في صمت ؛ وزاد شدو العاصف المفرح ، والمسرف بالتعابير الرقيقة ، والشمس في مغربها من عصف الصدمة التي تلزمهما بالفراق . وتكفّلت الطبيعة بأن تعبر لهما عن حبّ لم يجروا على التحدث عنه .

عادت جولي وانتصبت أمام أرنور في وقفة ملؤها الوقار وتناولت يده قائلة :

- إيه ! ميلورد . سأطلب منك أن تجعل الحياة التي أعدها لي نقية ، مقدسة ،

سفترق هنا . ثم أضافت وهي ترى شحوب اللورد غرنفيل : أعلم أنني أطلب منك مكافأة على إخلاصك تضحية أجل من جميع التضحيات التي بذلتها وأنا خير من يعرف مداها . . . لكن يجب ذلك . . . لاتبقي في فرنسة . ثم أضافت وهي تضع يد الشاب على قلبها الخائف : أليس في توجيهي هذا الأمر لك منحك حقوقاً ستكون مقدسة ؟ .

قال آرثور وهو ينهض : نعم .

في تلك اللحظة أشار إلى دي إغلمون الذي يحتضن ابنته بين ذراعيه ، والذي ظهر من طرف الطريق الآخر الوعر من جهة درايزين القصر الذي تسلفه لتقفز صغيرته هيلين من فوقه . استأنف آرثور : جولي لن أحدثك أبداً عن حيي ، فروحانا تتفاهمان جيداً ؛ فأياً كان عمق الأسرار التي أبهجت قلبي ، فلأنني أشعر وأعرف وأرى أنك تشاركيتي بها كلها . وأنا الآن أحصل على دليل التجاوز العاطفي الثابت والرائع بين قلبنا ، ولكن سأهرب . . . فكّرت مرات عديدة ، وبمهارة فائقة في وسائل قتل هذا الرجل لأستطيع الصمود إن بقيت قريباً منك .

- قالت وقد بدت على وجهها المضطرب علامات دهشة مؤلمة : خطرت لي ذات الفكرة .

لكن كان يوجد قدر كبير من الفضيلة والثقة بالنفس وكثير من الانتصارات المحرزة سرّاً بالحب في النيرة والحركة المتجليتين في تصرفات جولي حتى أن اللورد غرنفيل استمر يتأملها إعجاباً . وتلاشى ظل الجريمة بالذات في ذلك الوجدان الساذج ؛ فالإحساس الديني المسيطر على ذلك الجبين الوضاء من واجبه دوماً أن يطرد الأفكار السيئة اللاإرادية التي تولدها طبيعتنا الناقصة ، هذه الأفكار التي تبين في ذات الوقت كبر قدرنا وأخطاره .

استأنفت جولي القول : وعندئذ فكّرت بأنني سأتعرض لازدراثك ، وهذا ما أنفذني ثم طأطأت عينيها وهي تقول : أليس في فقدان تقديرك موتي ؟

بقي هذان العاشقان الياسلان بعد ذلك مدة صامتين، وهما مستغرقان في أفكارهما: وهي متماثلة تماماً، جيدها وردبها، ومتفاهمان كلياً سواء في مسراتها الحميمية أو آلامها الحقيية. أضافت وهي ترفع نحو السماء عينين تملؤهما الدموع: يجب ألا أتذمر، فتعاسة حياتي هي من صمني.

صاح المركيز دي إغلمون من المكان الذي يقف فيه وهو يشير بيده: ميلورد، لقد التقينا هنا لأول مرة، ربّما لا تذكر ذلك، لكن الموقع هناك قرب تلك المجموعة من أشجار الخور. هزّ الإنكليزي رأسه موافقاً، بينما استأنفت جولي:

أتوقع أن أموت شابة وتعيسة. نعم لا تعتقد أنني سأعيش، فالخزن قتال أيضاً كهذا المرض الرهيب الذي شفيتني منه، ولا أعتقد أنني مذبذبة، كلا فالعواطف التي أكنّها لك خالدة لا تقاوم، لكنها لا إرادية. وأريد أن أبقى عفيفة، غير أنني سأكون أمية لو جدتني كزوجة، ولواجباتي كام، ولأمنيات قلبي. ثم أضافت تخاطبه بصوت متهدج: استمع إليّ، لن أنمي أبداً إلى هذا الرجل؛ وبحركة مذعورة ملؤها الرهبة والحقيقة أشارت إلى زوجها. واستأنفت: إن قوانين العالم تلزم بأن أجعل وجوده سعيداً، وسأدع لها، سأكون خادمتها؛ وسيكون إخلاصي له دون حدود، لكنني منذ هذا اليوم أرملة. لا أريد أن أكون موسماً لا في عيني، ولا في أعين الناس. وعندما لا أكون مطلقاً للسيد دي إغلمون، فلن أكون أبداً لأي شخص آخر. ولن تحصل مني إلا على ماسيق وافتلعت. هوذا القرار الذي أخذته على نفسي - ونظرت إلى آرثور باعتزاز - إنه قرار لا رجعة عنه، ميلورد. والآن، اعلم أنك إن رضخت لفكرة جرمية فإن أرملة السيد دي إغلمون ستدخل في أحد الأديرة سواء في إيطاليا أو في إسبانية. أرادت التعاسة أن نتحدث عن حبنا. وربما كانت هذه الاعترافات لا مفر منها؛ لكنها آخر مرة يخفق فيها قلبانا بمثل هذه القوة. غداً ستظاها بأنك تلقيت رسالة تدعوك للعودة إلى إنكلترا وستنفرق فراراً لا لقاء بعده.

غير أن جولي، المنهكة من هذا الجهد أحست بركبتها تتراخيان، ويبرد قتال يعصف بها وبفكرة أثنوية تماماً جلست كي لا تنهاوى بين ذراعي آرثور.



- صرخ اللورد غرنفيل : جولي .

هذه الصرخة الثاقبة دوت كهزيم رعد ، وعبرت بئرتها التي تقطع نياط القلب عن كل ما لم يستطع العاشق ، الصامت حتى الآن ، أن يقوله .

عند سماع هذه الصرخة هرع المركيز حائلاً لخطا ووقف فجأة أمام العاشقين وهو يسأل :

إيه ! ماذا بها؟

قالت جولي بتلك البرودة المذهلة التي تتيحها الفطنة الطبيعية للنساء غالباً في أزمات الحياة الكبرى : لا شيء ، فبرودة شجرة الجوز هذه كادت تفقدني وعيي ، مما سبب الذعر لطبيبي . ألسن بالنسبة له لوحة فنية لم تكتمل؟ وربما ارتعش عندما رآها مهددة بالتلف . . .

وتأبطت بجمرة ذراع اللورد غرنفيل ، وابنسنت لزوجها وتأملت المشهد حولها قبل أن تغادر قمة الصخور ممسكة بيد رفيق رحلتها .

قالت : هوذا أجمل موقع رأيته بالتأكيد ، ولن أنساه أبداً انظر يا فيكتور ؛ يا للأبعاد ! وللمدى والتنوع ! هذه المنطقة تجعلني أدرك معنى الحب .

وضحكت بشكل شبه تشنجي ضحكة تخدع بها زوجها ، وفغزت بمرح إلى الطريق الوعر واختفت .

قالت عندما ابتعدت عن السيد دي إغلمون : إيه ! ماذا ، أهكذا باكراً؟ إيه ، ماذا ، يا صديقي ، بعد لحظة لن نستطيع أن نكون ، ولن نكون أبداً أنفسنا ؛ أخيراً لن نعيش أبداً . . . أجاب اللورد غرنفيل : لنسريطه ، فالعربات ما تزال بعيدة . وسنسير معاً . وإن سُمح لنا أن نضع الكلمات في ناظرينا فسبحبنا قلبانا أوقاتاً إضافية .

سارا يبطه على السدة المجاورة لمياه النهر ، مع إشعاعات الغروب الأخيرة ، صامتين تقريباً إلا من بعض كلمات مبهمه ، ناعمة كخبر نهر اللوار لكنها تهز الروح ، وكانت الشمس وهي تنهادى إلى الأفول تغلفهما بانعكاسات أنوارها الحمراء قبل أن

تختفي؛ صورة كئيبة لحيهما المشؤوم. وكان الجنرال قلقاً لعدم عثوره على عربته في المكان الذي تركها فيه فسبق العاشقين دون أن يشاركهما في الحديث، فسلوك اللورد غرنفيل التنبيل والمرهف خلال تلك الرحلة أبعد كل شبهات التركيز فترك امرأته تتصرف بكل حرية مطمئناً إلى الثقة التي أولاهها للورد الطبيب.

كان أرثور وجولي ما يزالان يتبعان التوافق الحزين والمؤلم بين قلبيهما الداويين، غير أنهما عند صعودهما السفح إلى مونكوتور أحساً بأمل مبهم، وسعادة ففلة لم يجسرا على تعليلها، إنما عند النزول على طول الضفة انهار البناء الواهي المتصور في خيالهما الذي لم يجرؤا على التطلع إليه فكانا أشبه بالأطفال الذين يتوقعون سقوط قصور الورق التي بنوها. وفقد كل أمل، وفي المساء نفسه سافر اللورد غرنفيل. وبرهنت النظرة الأخيرة التي ألغاهها على جولي، للأسف، أنه كان على حق، منذ اللحظة التي كشف له التجاوب العاطفي مدى قوة الهوى، في الأ يتق بنفسه.

عندما وجد السيد دي إغلمون وزوجته نفسيهما جالسين في المقعد الخلفي من عربتهما دون رفيق سفرهما، وهما يجتازان بسرعة الطريق الذي سبق أن سلكته المركبة في العام ١٨١٤، وكانت جاهلة آنذاك بالحب وتلمن في ذلك الحين تقريباً رسوخه، فإنها تذكرت ألف انطباع منسي. فللقب ذاكرته أيضاً. وقد تعجز امرأة عن تذكر الأحداث الأكثر خطورة، لكنها تتذكر طيلة حياتها الأشياء المتعلقة بعواطفها. وهكذا كان تذكر جولي تاماً حتى بتفاصيله التافهة؛ فقد أسعدها أن تتعرف على جميع أحداث رحلتها الأولى، وحتى على الأفكار التي راودتها في بعض مناطق الطريق. وعاد فيكتور عاشقاً بولع لامرأته منذ أن استرجعت نضارة الشباب وكل فنتها فالتصق بها على طريقة العشاق. وعندما حاول معانقتها تخلصت منه برفق، ووجدت ذريعة ما لتجنب هذه المداعبة البرينة. ثم أبدت أنفتها من تماس فيكتور بها الذي شعرت بحرارته من طريقة جلوسهما وشاركتها فيها، وأرادت أن تجلس وحدها في مقدمة العربة؛ لكن زوجها كفاها مشقة تغيير مكانها بانتقاله وتركها وحيدة على المقعد الخلفي. وشكرته على حسن التفاتته بتنهدة قابلها بالازدراء،

وفسر مغوي الحامية العسكرية كآية امر أنه لمصلحته حتى أنه ألزمها في نهاية اليوم بحزمه على أن تصرح له عن شعورها. قالت: يا صديقي، كدت أن تسبب موتي، كما تعلم. ولو أنني ما أزال فثاة دون تجربة لأمكنني أن أبدأ مجدداً بالتضحية بحياتي، لكنني أمّ ولي ابنة يجب أن أربيها وانصرف لخدمتها قدر خدمتي لك. فلتتحمل البلة التي أصبنا بها معاً، وأنت الأقلُ تأثراً بها. ألم تعرف كيف نجد ما يسلك عنها، بينما يحرم عليّ واجبي، وهناؤنا المشترك والطبيعة، وهي أهم من كل ذلك، الجري على مثالك. ثم أضافت: انظر، نسبت بكل استهتار في أحد الدواليب ثلاثة رسائل من السيدة دي سريزي، وإليكها. وسكوتي عن ذلك يرهز لك أنني امرأة ملؤها التسامح؛ وهي لا تلمك بالتضحيات التي تقضي بها القواتين. لكنني توصلت بعد إمعان الفكر إلى أن أدوارنا ليست متماثلة، وأن القدر يفرض العذاب على المرأة وحدها. إن عفتي تركز على مبادئ مقررة وثابتة، وأنا أعرف كيف أعيش طاهرة دون ملامة ولكن اتركني أعيش.

فهرّ المركز، المذهل بالمنطق الذي تعرف النساء استخدامه مع تجليات الحب، بهذا الموقف الذي تتمثل فيه كرامة المرأة بشكل طبيعي في الأزمات، فالرفض الغريزي الذي أظهرته جولي لكل ما يسيء إلى حبيها وأمنيات قلبها هو أحد أجمل الأشياء لدى المرأة، وقد ينتج عن عفة طبيعية لا تسكنها القواتين ولا الحضارة. ولكن من يستطيع أن يلوم النساء؟ السنّ وهن يفرضن الصمت على عاطفة مستبعدة لا تسمح لهن بالانتماء إلى رجلين مثل أولئك الكهنة فاقدي الإيمان؟ وإذا كانت بعض النفوس الصارمة تلوم نوع التسوية الذي أجرته جولي بين واجباتها وحبيها، فإن ذوي الروح المشبوبة العاطفة سيجعلون منه جريمة. وهذا الاستهجان العام يدلّ إماماً على التعاسة المتوقعة من عصيان القواتين، أو على العيوب المؤسفة في المؤسسات التي يركز عليها المجتمع الأوروبي.

انقضت ستان على ممارسة السيد والسيدة دي إغلمون حياة أفراد الطبقة الراقية، كل منهما منطلق في اتجاهه، يلتقون في الصالونات أكثر من لسانهما في

منزلهما . طلاق أتيق تنتهي به كشير من الزيجات في المجتمع الرافعي . وفي ذات مساء ، وُجد الزوجان بشكل طارئ مجتمعين في صالونهما . كانت السيدة دي إغلمون قد دعت إحدى صديقاتها إلى العشاء ، وكان الجنرال الذي اعتاد على تناول العشاء في المدينة قد بقي في المنزل . قال السيد دي إغلمون وهو يضع على الطاولة فنجان القهوة بعد أن انتهى من شربه :

- ستكونين جدّ سعيدة يا سيدتي المركيزة . ثم نظر إلى السيدة ويمفن نظرة امتزج بها المكر بالغم واستأنف : سأذهب في رحلة صيد طويلة مع منظم الصيد بالكلاب في البلاط الملكي ، وستحيين خلال ثمانية أيام على الأقل حياة أرملة طليقة ، وهذا ما ترغبين به على ما اعتقد .

ثم وجه كلامه إلى الخادم الذي جاء يرفع فناجين القهوة الفارغة : غيِّوم ، هيتوا لي العربية . كانت السيِّدة دي ويمفن هي لويز التي أرادت السيدة دي إغلمون في رسالة لها سابقاً أن تتصحبها بالبقاء عازبة . وتبادلت السيّدتان نظرة نواظرة تدلّ علي أن جولي وجدت في صديقتها نجية لها ومؤمنة على سرّها متسامحة مشفقة ؛ لأن السيدة دي ويمفن كانت سعيدة جداً بزواجها . وفي الوضع المتناقض الذي وُجدت فيه الصديقتان ربما كانت سعادة إحداهما ضماناً لوفائها وإشفاقها على تعاسة الأخرى ؛ ففي مثل هذه الحال يشدّ تباين مجرى الأقدار أواصر الصداقة .

قالت جولي وهي تلقي نظرة لامبالية على زوجها : أهذا وقت الصيد؟ .  
كان شهر آذار في نهايته .

- سيدتي ، إن مدير الصيد في البلاط يصطاد متى شاء ، وأينما يشاء ؛ وستذهب إلى الغابات الملكية لقتل الخنازير البرية .
- احترس من أي حادث طارئ .
- أجاب باسمًا : المصيبة طارئة وغير متوقعة دائماً .

نهض الجنرال وقبّل يد السيدة دي ويمغن والتفت نحو جولي قائلاً بلهجة متوسلة :

- سيدتي ، إن قضيت ضحية خنزير بريّ .

سألت السيدة دي ويمغن : ماذا يعني هذا؟

قالت السيدة دي إغلمون ليفكتور : هيا تعال . ثم ابتسمت وكأنها تقول للويزا : ستريين . مدت جولي عنقها لزوجها الذي تقدّم ليقبلها ، لكن المريكيزة انحنت بسرعة جعلت القبلة الزوجية تنزلق على كشكش سترتها .

- قال المريكيز موجّهاً كلامه للسيدة دي ويمغن : ستشهدين عند عرش الله أن إرادة سنيّة قد لزممتي للحصول على هذه الخطوة . هوذا مفهوم زوجتي للحب . أوصلتني إلى هذه الحال ، دون أن أعلم بأية خدعة . أثنى لكما وقتاً بمتعة حافلاً بالمسرة! . وخرج .

هتفت لويزا بعد أن بقيت المرأتان وحدهما : حقاً إن زوجك المسكين طيب جداً ، وهو يحبك .

- أوه! لا تضيفي حرفاً إلى هذه الكلمة الأخيرة . إن الاسم الذي أحمله يروّعي . . .

قالت لويزا : نعم ، لكن فيكتور يطبعك كلياً .

أجابت جولي : تقوم إطاعته جزئياً على التقدير الكبير الذي أوجبت له به . إنني امرأة عفيفة جداً متقيدة بالشرائع . أمنت له حياة منزلية رضية ، وأغمضت عيني عن مغامراته ولا أخذ شيئاً من ثروته ، ويمكنه أن يبذّر دخله كما يشاء ؛ فأنا أعنى بحفظ رأس المال فقط ، فأنعم لفناء ذلك بالسلام . إنّه لا يكشف عن نواياه أو لا يريد أن يكشف عنها تجاهي . ولكن إن كنت أعامل زوجي هذه المعاملة الآن ، فهذا لا يعني أنني لا أخشى تأثيرات طبعه . فأنا كمروّض الدب الذي يخشى أن يحطم الوحش يوماً كما مته ؛ وإذا اعتقد فيكتور أن من حقه عدم تقديري فإنني لا أجسر على نصرّ

ما سيحدث؟ لأنه عنيف، ممثلي غروراً، واعتداداً بالنفس خاصة؛ وإذا لم يكن ذا عقل ثاقب ليلتزم جانب الحكمة في ظرف حرج تنورط فيه أهواؤه الشريرة فإنه سيء الخلق، وقد يقتلني فجأة حتى لو انتظر الموت كمداً في اليوم التالي؛ لكنني لا أخشى هذه السعادة المشؤومة . .

مرت لحظات صمت انصرفت فيها الصديقتان إلى التفكير بالسبب الخفي لهذا الوضع .

استأنفت جولي وهي توجّه نظرة تواطؤ إلى لويزا: أظعتُ بشكل قاس غير أنني لم أمتنع ذلك البعيد الآن عن الكتابة لي . أه! لقد نسيتي، وهو على حقّ . سيكون الأمر مفاجئاً جداً إن قضي على مستقبله! ألا يكفي ما حدث لي؟ تصوّري يا عزيزتي أنني أقرأ الصحف الإنكليزية على أمل رؤية اسمه وارداً فيها . إيه! لكنه حتى الآن لم يظهر في مجلس اللوردات .

\* - أنت تعرفين الإنكليزية إذن؟

- ألم أقل لك إنني تعلمتها!

هتفت لويزا وهي تمسك يد جولي: يا صغبرتي المسكينة، ولكن كيف يمكنك العيش حتى الآن؟

- أجابت المركيزة وقد أفلتت منها حركة ساذجة شبه طفولية: اسمعي، إنني أتناول الأفيون، وقصة الدوقة دي . . . في انكلترا، ولدت لدي هذه الفكرة . أنت تعلمين أن ماتورين قد ألف عنها رواية . وقطرات اللوداتوم التي أخذها ضعيفة جداً؛ وأنا لا أستيقظ أكثر من سبع ساعات أخصّصها لابتني . . .

نظرت لويزا إلى النار، دون أن تحمّز على تأمل صديقتها التي توضّحت كل مظاهر بؤسها أمام عينيها لأول مرة .

قالت جولي بعد لحظات صمت: لويزا، احفظي سرّي .

وفجأة حضر خادماً يحمل رسالة للمركيزة، فصاحت وقد شحبت لونها: أه!

- قالت لها السيدة دي ويمغن : لن أسألك عن هذه الرسالة .

انصرفت المركيزة إلى القراءة ولم تعد تسمع شيئاً، وراة صديقتها العواطف الأكثر فعالية والحماسة الأكثر خطراً ترتسم على وجه السيدة دي إغلمون الذي كان يحمر تارة ويصفر أخرى ؛ أخيراً ألقت جولي الورقة في النار وصاحت :

- هذه الرسالة مُحرقَة ! أوه ! قلبي يتفطر .

ونهبضت ، وسارت وعيناها تلتهايان . وهتفت : إنه لم يغادر باريس .

كانت كلماتها غير منتظمة ، حتى أن السيدة دي ويمغن لم تجرؤ على مقاطعتها ، فقد كانت عباراتها تلفظ مقطعة وهي تلفظ بنبرة أكثر فأكثر عمقاً وكان في كلماتها الأخيرة شيء من الرهبة .

- إنه لم يتقطع عن رؤيتي ، دون علمي . ونظراته المفاجئة لي كل يوم قد ساعدته على العيش . هل عرفت ذلك بالوزير؟ إنه يحتضر ويطلب أن يحضر ليودعني . لقد علم أن زوجي سيتفب هذا المساء لعدة أيام . وسيحضر بعد مدة . أوه ! سأهلك خلال تلك الأونة .

إنني يائسة . ألا تسمعتيني؟ ألا تسمعين؟ ابقي معي . فأمام امرأتين لن يجسر ! أوه ! لا تتركيني فإنني أخشاه .

- أجابت السيدة دي ويمغن : لكن زوجي يعلم أنني أتناول العشاء في منزلك ، وسيأتي للعودة بي .

- إبه ! سأصرفه قبل مغادرتك ، سأكون الجلاد على روحينا . وأسفاه ! إنه يعتقد بعدم حيي له . وهذه الرسالة يا عزيزتي تحتوي عبارات أرى أنها كتبت بأحرف من نار . سمعت ضجة عربة أمام الباب ، فصاحت المركيزة فرحة :

- أه ! إنه يأتي بشكل علني ، دون محاولة التستر .

صاح الخادم معلنا وصول الزائر : اللورد غرنفيل .

بقيت المركيزة واقفة، ساكنة، فقد زالت عنها كل فسوة ممكنة وهي ترى أرثور شاحباً ونحياً وممتعماً. وبالرغم من أن اللورد غرنفيل أحسّ بامتعاض شديد لأنه لم يجد جولي وحدها فقد حافظ على هدونه وبرودة أعصابه. لكن بالنسبة لهاتين المرأتين، المطلعتين على أسرار الحب، فإن في محتوى رثّة صوته، وفي تعبير نظراته بعض قدرة تنسب إلى السمك الرعاد<sup>(١١)</sup>. وبقيت المركيزة والسيدة دي ويمفن مذهولتين بتواصل حي لألم رهيب. فبيرة صوت اللورد غرنفيل جعلت قلب السيدة دي إغلمون يخفق بشدة حتى أنها لم تجسر على إجابته خشية أن ينكشف له مدى القدرة التي يمارسها عليها، ولم يجسر اللورد غرنفيل أن ينظر إلى جولي، وهكذا وقع عبء تبادل حديث نافه على السيدة ويمفن؛ بعد أن ألقت عليه جولي نظرة مشوية يعرفان جميل مؤثّر وشكرته على العناية التي أحاطها بها. وفرض العاشقان بعد ذلك الصمت على عواطفهما، ولزما الحدود التي يقتضيها الواجب وأداب المجاملة، ولكن أعلن بعد لحظات وجيزة عن وصول السيد دي ويمفن، وتبادلت الصديقتان عند رؤيته يدخل الصالة نظرة أدركتا فيها، دون أن تنكلما الصعوبات الجديدة الناجمة عن الوضع فقد كان من المتعذر اطلاع السيد دي ويمفن على سرّ هذه المسألة وليس لدى لويزا أسباب معقولة لتقدمها لزوجها بغية بقائها لدى صديقتها. وعندما وضعت السيدة دي ويمفن شالها، نهضت جولي فجأة لتعجبها على عقده وهمت لها بصوت منخفض:

- سأندرع بالشجاعة فما دام قد جاء لزيارتي بشكل مُعلن فلن أخشى شيئاً؟ إنما لو كنت دون صحبتك عند رؤيته وهو بهذا الشحوب لا رنميت عند قدمي.

قالت السيدة دي إغلمون بصوت مرتعش وهي تعود لتأخذ مكانها على كنية عريضة لم يجزؤ اللورد غرنفيل أن يأتي ليجلس قريبا: إيه! وبعد يا أرثور، إنك لم تطعني.

- لم أستطع أن أفاوم طويلاً متعة سماع صوتك، وأن أكون قريباً منك. كنت في

(١١) أطلق لقب السمكة الرعادة على إسبير في إيبها، ونعاسة الغانيات.



جنون، وهذيان. ولم أعد سيّد نفسي، وتأملت وضعي جيّدًا، فرايتني ضعيفًا جدًا وأنا مشرف على الموت. ولكن أن أموت دون أن أراك، أو أن أسمع حفيف أذيال ثوبك، أو أتلقى عبراتك، آية ميتة هذه!

أراد أن يتعد عن جولي، لكن حركة المفاجئة أسقطت مسدسًا من جيبه. ونظرت المركيزة إلى السلاح بعين خلت من الانفعال ومن التفكير. والتقط اللورد غرغريل المسدس وبدا مزعجًا بشدة من حادث يمكن أن يُعدّ مزادة عاشق.

هتفت جولي: أرثور!

- أجاب وقد خفض ناظره: سيدتي، جئت يائسًا، وأردت... وتوقف عن الكلام.

- صاحت: أردت أن تتحرر في منزلي.

- قال بصوت عذب: كلا، ليس وحدي.

- ايه! ماذا، ربّما أردت أن تقتل زوجي أيضًا.

- هتف بصوت مخنق: كلا، كلا، لكن اطمئني؛ فمشروعني المشؤوم قد تلاشى، فعندما دخلت، ورأيتك، شعرت بشجاعة تدفعني للصدّ والموت وحدي.

نهضت جولي وألقت نفسها بين ذراعي أرثور الذي تمكن رغم نحيب حبيبته أن يميّز كلمتين مفعمتين بالهوى، قالت: الشعور بالسعادة والموت. ايه! نعم!

كانت كل قصة جولي في هذه الصرخة العميقة، صرخة الطبيعة والحب التي تستسلم لها النساء غير التقيّات. وأمسك بها أرثور وحملها إلى الكنبه بحركة تتضمن كل العطف الذي تولده سعادة غير متوقّعة. لكن المركيزة تخلصت فجأة من ذراعي حبيبها وألقت عليه نظرة ثابتة، نظرة امرأة في غاية الفنوط، وأمسكت يده وحملت باليد الأخرى شمعدانًا وقادته إلى غرفة نومها، وعند وصولها إلى السرير الذي ترقد فيه هيلين أزاحت برفق الستائر، وحسرت الغطاء عن ابنتها وهي تضع يدها أمام

الشمعة حتى لا يضايق ضوءها الأجفان الشفافة نصف المغلفة لابنتها الصغيرة .  
كانت هيلين مفتوحة الذراعين ، وهي تبسم أثناء نومها . وأشارت جولي بنظرة إلى اللورد غرنفيل تربه ابتها ، وقالت هذه النظرة كل شيء .

- يمكن أن نهجر زوجاً حتى لو كان يحبنا . فالرجل كائن قوي ويمكن أن يتأسى .  
ونستطيع ازدياء قوانين المجتمع . لكن طفلاً دون أمه .

جميع هذه الأفكار وآلاف غيرها أكثر تأثيراً أيضاً كانت في هذه النظرة .

قال الإنكليزي متمتماً : يخس اصطحابها ، وسأشملها بحيي . . .

استبقت هيلين ونادت : ماما .

عند هذا النداء انحدرت جولي في البكاء ، وجلس اللورد غرنفيل صامتاً مكفهر الوجه ، متصالب الذراعين .

- ماما ! هذه المقاداة الساذجة ، الجميلة . أيقظت عتداً من العواطف النبيلة والمشاركات الوجدانية التي لاتقاوم حتى أن العشق سحق خلال لحظة تحت صوت الأمومة القوي . ولم تعد جولي امرأة بل أم . زلم يستطع اللورد غرنفيل المقاومة طويلاً وشارك جولي في دموعها . وفي تلك اللحظة فُتح باب بعنف محدثاً ضجة كبرى وسمعت هذه الكلمات :

سيدة دي إغلمون ، هل أنت هنا؟ ورنث هذه الكلمات كهزيم الرعد في قلب العاشقين . فالمرکز قد عاد . وقبل أن تتمكن جولي من استعادة رباطة جأشها ، توجه الجنرال من غرفته إلى غرفة زوجته المجاورة ولحسن الحظ أشارت جولي للورد غرنفيل فخرج يختبئ في حجرة الحمام التي أغلقت المريزة بابها بسرعة .

- قال لها فيكتور : ها أنا يا زوجتي ، فرحلة الصيد لم تتم ، وسأذهب إلى النوم .

- عم مساءً ، سأنام بدوري أيضاً ، لكن دعني أخلع ثيابي .

- إنك حادة الطبع هذا المساء ، وسأطبعك يا سيدتي المريزة .

دخل الجنرال إلى غرفته وراففته جوليت لتغلق الباب الفاصل بين الغرفتين وأسرعت لتحرر اللورد غرنفيل، وعادت إليها بسرعة بديهتها، وهي تفكر بأن زيارة طبيبها السابق طبيعية جداً، ويمكنها أن تتركه في الصالون لتشرف على نوم ابنتها. ودعت لتطلب منه الذهاب إلى هناك دون ضجة، لكنها عندما فتحت باب حجرة الحمام، بدرت عنها صرخة ناقبة، فإصبع اللورد غرنفيل قد تحطمت بانغلاق الباب عليها. (١)

- سألها زوجها: إيه! ماذا دهاك؟

- أجابت: لاشيء، لاشيء، وخزت إصبعي بدبوس.

فُتح باب الاتصال فجأة، وظنت المركيزة أن زوجها أتى ليطمئن عليها، ولعنت هذا الاهتمام الذي لا علاقة للقلب به. واضطرت إلى إعادة إغلاق باب حجرة الحمام قبل أن يتمكن اللورد من تحرير يده من الشق الذي حُصرت به. وظهر الجنرال مجدداً، لكن المركيزة أخطأت في الهدف المتعلق بحاجة شخصية.

- هل تستطيعين إعارتي منديلاً؟ هذا الوصيف الماكر شارل لم يترك لي منديلاً أغطي فيه رأسي. في الأيام الأولى من زواجنا كنت تهتمين بأموري بعناية دقيقة تصجرني. أه! إن شهر العسل لم يدم طويلاً بالنسبة لي ولا بالنسبة لربطات عني وأنا الآن بين يدي هؤلاء الخدم المهملين غير المبالين بأموري.

- إليك هذا المنديل. لكن ألم تمرّ على الصالون؟

- كلا.

- قد يكون اللورد غرنفيل ما يزال موجوداً فيه.

أهو في باريس؟

على ما يظهر.

أوه! سأذهب لرؤية هذا الطبيب الطيب.

(١) نلصح إلى حادث مماثل حصل للسيد دي حوكور وذكّر مثيل له في سارازين ودوقه لانجه.

هفتت جولي : لكن يبدو أنه قد رحل .

كان المركيز في تلك اللحظة وسط غرفة زوجته وهو يضع المنديل على رأسه ويتأمل نفسه في المرآة .

قال : لا أدري أين خدمننا . قرعت الجرس لثلاث مرات ولم يأت . أنت أيضاً دون وصيفتك ؟ اقرعي لها . أريدُ غطاءً إضافياً على سريري هذه الليلة .

أجابت المركيزة بجفاء : بولين في الخارج .

قال الجنرال : في منتصف الليل !

سمحتُ لها بالذهاب إلى الأوبرا .

علقَ الزوج وهو مستمر في خلع ثيابه : أمر غريب ! خيل إلي أنني رأيتها عند صعودي السلم .

قالت جولي متظاهرة بالضجر : يبدو أنها قد عادت .

وكي لا تثير أية شبهة لدى زوجها ، شدت حبل الجرس بشكل ضعيف .

لم تعرف أحداث تلك الليلة بشكل تفصيلي إنما يبدو أنها مرت ببساطة ورهبة على مثال الأحداث العادية والمنزلية التي سبقتها . وفي اليوم التالي لازمت المركيزة السرير لوعكة استمرت عدة أيام .

سأل السيد دي رونكروال السيد دي إغلمون بعد عدة أيام من تلك الليلة

المفجعة :

أي أمر خارج عن المألوف حدث في منزلك حتى أن جميع الناس يتحدثون عن امرأتك ؟

قال دي إغلمون : اسمع نصيحتي ، وابق عازباً . امتدت النار إلى ستائر السرير

الذي نام فيه صغيرنا هيلين فانتابت زوجتي قشعريرة هَلَع ألقنتها مريضة لسنة على الأقل وفقاً لقول الطبيب . تزوج امرأة جميلة فتشبع ، وتزوج شابة في تمام الصحة

والعافية فتغدو سقيمة علية . تعتقد أنها مشبوبة العاطفة وإذا بها باردة ، أو إنها باردة في الظاهر بينما هي مشبوبة العاطفة إلى حدٍ يدفعها إلى قتلك أو إلحاق العار بك . تارة وهي المخلوقة الأكثر رقة ، تنقلب إلى مشاكسة . والمشاكسات لا يغدون رقيقات . وتارة أخرى تظهر الفشاة الضعيفة الساذجة ضدك إرادة حديدية ، وروحاً شيطانية .  
إنني تعبٌ من الزواج .

- أو من زوجتك .

- يصعب التمييز . وبالنسبة ، ألا تريد الذهاب إلى كنيسة سان توماس . داكين لمرافقتي في مراسم دفن اللورد غرنفيل ؟ .

- إنها تسلية فريدة ، ولكن ما سبب موته حقاً؟

- يزعم وصيفه أنه بقي طيلة ليلة كاملة معلقاً على الحافة الخارجية لنافذة لينفذ شرف خليلته ، وكان البرد قارساً جداً في هذه الأيام الأخيرة !

- هنا إخلاص بالغ التقدير من قبلنا نحن أصحاب الحنكة ، ولكن اللورد غرنفيل شاب و . . . إنكليزي . هؤلاء الإنكليز يريدون دائماً التميز .

أجاب دي إغلمون : عجباً ! هذه القسمات من البطولة تعود للمرأة التي توحى بها . ومن المؤكد أنني لا أعرف المرأة التي ماتت من أجلها هذا المسكين أرثور ! .

## II

### الام مجهولة

مايين رافد اللوان والسين يمتد سهل واسع تحده غابة فونتينبلو ومدن مور، وغور، ومونترو. ولا تبدي هذه المنطقة القاحلة للنظر إلا تلالاً نادرة، وتنتشر في وسط الحقول أحياناً بعض مرتعات الغابات التي تستخدم ملجأ للطرائد، ثم هذه الخطوط المصفرة والشهباء التي لانهاية لها والخاصة بأفاق سولوني وبوس وبري. وسط ذلك السهل بين منوريه ومترو يشاهد المسافر قصراً قديماً سمي سان لانيج لا تعوز جواره العظمة ولا الجلال. صفوف رائعة من أشجار الدردار، وأخاديد، وجدران أسوار طويلة، وحدائق واسعة، وأبنية إقطاعية كبيرة تطلب إنشاؤها جني أرباح ضرائب غير مشروعة، أو إيجارات مزارع عامة أو اختلاسات مباحة، أو ثروات ارستقراطية باهظة تهدمت الآن تحت مطرقة القانون المدني؛ فإذا ضلّ فنان أو أحد الحالمين مصادفة في الطرقات ذات الأخاديد العميقة أو في الأراضي الصلبة غير المحروثة التي تحمي تخوم المنطقة فإنه يتساءل أية نزوة ألفت هذا القصر الشعري في هذه المفازة من حقول القمح وصحراء الحوآر والمارن والرمال حيث ثومت البهجة وتتولد الكابة دون شك، وحيث تضنى الروح دون انقطاع بعزلة لا صوت لها، وأفق رتيب، وجمال سلمي يتلاءم مع الألام التي لا تريد عزاء أو مواسة.

نحو نهاية العام ١٨٢٠ وفدت إلى القرية الصغيرة الواقعة على بعد نحو ميل من سان لانيج سيدة شابة اشتهرت في باريس بظرفها، وجمال وجهها، وذكائها وانسجام وضعها الاجتماعي وثروتها مع شهرتها الكبيرة، ودهش مزارعو وفلاحو المنطقة الذين لم يشاهدوا أحداً من سادة القصر منذ زمن طويل، وبالرغم من إنتاج

وفير، تركت الأرض لعناية وكيل أملاك وحراسة بعض الخدم القدماء، وهكذا فقد سببت رحلة السيدة المركيزة إلى المنطقة بعض التأثير وتجمع عدد من الأشخاص في طرف القرية وفناء نزل حقيب وعند مفترق طريقي نمور وموربه ليشهدوا مرور عربة المركيزة السائرة ببطء لأنها وافدة بجيادها من باريس. وفي المقعد الأمامي وصيفة ترعى طفلة تبدو حاملة أكثر منها ضاحكة، والأم مستلقية في المقعد الخلفي كمتحضره مرسله من الأطباء إلى الريف. ولم يرض المظهر المتداعي لتلك المرأة الواهنة متنفذو القرية الذين كانوا يأملون بوصولها إلى سان لانج أن تنشط حركة ما في المحلة، لكن بدا ظاهراً أن أية حركة ستكون منقره لتلك المرأة المتألدة.

صرح صاحب النفوذ القوي في قرية سان لانج مساء في الحانة حيث يجمع الأعيان في غرفة للشراب أن ملامح المركيزة الخزينة تشير إلى أن الإفلاس حل بها. وقد حضرت بعد غياب السيد المركيز الذي أشارت الصحف إلى مرافقته لدوق اتغوليم إلى إسبانية، لتدخر في سان لانج المبالغ الضرورية لوفاء الديون الناجمة عن مضاربات في البورصة، فالمركيز يعد أحد كبار المغامرين في تلك العمليات، وربما بيعت الأرض بعد تجزئتها إلى قطع صغيرة قد يساعد الحظ على شرائها بأسعار مغرية، وراح كل فرد يحصي مدخراته، ويخرجهما من مخابنها، ويعدّد موارده ليحصل على نصيبه من ركام سان لانج. وبدا هذا المستقبل بغاية الجمال حتى تلهّف كل وجه لمعرفة مدى صحته، وفكر بوسائل اكتشاف الحقيقة عن طريق خدم القصر، لكن لم يستطع أحد أن يسلط الأضواء على الكارثة التي دفعت معلمتهم إلى الرحيل من باريس إلى قصر سان لانج القديم في بداية الشتاء، رغم أنها تملك أراضي مشهورة يهجه مناظرها وجمال حدائقها. وحضر عمدة القرية لتقديم واجب الاحترام للسيدة، لكنها لم تستقبله، وجاء بعد العمدة وكيل الأملاك، وبدوره لم يلق النجاح.

كانت السيدة المركيزة لا تخرج من غرفتها إلا ليقوم الخدم بترتيبها، وتبقى خلال ذلك الوقت في صالة صغيرة مجاورة لتناول طعامها، إذا أمكن نسمية جلوسها إلى المائدة، ورؤية الأطباق باشمشراز وأخذ القدر الضروري لعدم الموت جوعاً، تناول طعام. وبعد ذلك تعود بسرعة إلى الكنبه ذات المتكأ العريض فتجلس

طوال الوقت أمام النافذة الوحيدة التي تضيء غرفتها . ولا ترى ابتها إلا خلال أوقات إطعامها الكتيبة ويبدو أنها تجهد لتحمل ذلك . الا يعني هذا أن ألاماً لأتصدق تطنى على عاطفة الأمومة لدى تلك المرأة الشابة؟ وهي لاتسمح لأحد من الخدم بالثول أمامها باستثناء وصيفتها التي ترضيها خدماتها؛ كما تفرض الصمت المطلق على القصر حتى أن ابتها تلعب بعيداً عنها؛ إذ من العسير جداً أن تتحمل أية ضجة يصدرها صوت بشري، فحتى صوت ابتها يسبب لها الإزعاج . واهتم أبناء المنطقة كثيراً بهذه التصرفات المستغربة، وبعد أن استعرضوا جميع الاحتمالات تناسى سكان المدن الصغيرة المجاورة وفلاحو الأراضي تلك المرأة المريضة .

هكذا أمكن للمركيزة الوحيدة في عزلتها، أن تلزم الصمت المطلق، وسط جدران الصمت التي أقامتها حولها، ولم تصدر عنها أية بادرة لمغادرة الغرفة المروشة بالطنافس التي ماتت فيها جدتها، والتي جاءت لتموت فيها بهدوء دون شهود، ودون مضايقات، ودون أن تتعرض لمظاهر مزيفة من أنانيات موهبة بمودة كاذبة تضاعف في المدن ألام المحتضر . كانت هذه المرأة في السادسة والعشرين من عمرها . وفي هذه السن تشتهي الروح التي ماتزال ممثلة بالأوهام الشاعرية أن تلقى الموت عندما يبدو لها مخلصاً لكن الموت يتدلل على النفوس الشابة، فهو يتقدم منها ويتراجع، ويظهر ويختفي، ويخيب بظوه ما اتعقد عليه من آمال، والشك بما يسببه لهم غدهم ينتهي بهم إلى الارغاء في العالم الذي سيصادفون فيه الألم، وهو أكثر قسوة من الموت إذ لا يدعهم يتظرون، والحال أن هذه المرأة التي ترفض العيش تعاني من مرارة هذا التأخير في صميم عزلتها، وتظهر في احتضار معنوي لانهية الموت، تدرباً رهيباً على الأناية تفقد القلب نصارته وتكيمه مع العالم . هذه الأمثلة الحزينة والقاسية هي دائماً ثمرة ألامنا الأولى . والمركيزة تتألم بشكل حقيقي لأول مرة وربما للمرة الوحيدة في حياتها . والواقع أليس من الخطأ الاعتقاد بأن العواطف تتجدد؟ ألا تبقى بعد تفتحها موجودة في أعماق القلب؟ فهي تهدأ فيه وتستبقت حسب أحداث الحياة؛ لكنها باقية ووجودها يعدل بالضرورة الروح . وهكذا فلكل عاطفة يومها



الكبير، اليوم الأكثر طولاً تقريباً خلال هبوبها. وهكذا فالألم، الأكثر ثباتاً بين عواطفنا، لا يكون شديداً إلا عند اندفاعه الأول؛ بينما تأتي نوباته الأخرى متخامدة، سواء لاعتيادنا على أزماته، أو بحكم قانون طبيعتنا التي تعارض، من أجل استمرارها حياً، تلك القوة الهدامة بقوة مساوية لها لكنها خاملة وهي مستمدة من حسابات الأنانية. لكن إلى أي من العذابات ينتمي هذا المسمى الألم؟ إن فقد الأهل حزنٌ أعدت الطبيعة الناس لتحمله، والألم الجسماني عابر لا يعانق الروح، فإذا استمر فليس المأبل هو الموت. وإذا فقدت امرأة شابة مولوداً، فإن الحب الزوجي يمنحها خلفاً له، فهذا الأسى عابر أيضاً، أخيراً فإن هذه المتاعب وكثيراً مما يماثلها هي إن صح التعبير، ضربات أو جراح، لكن ما من واحدة منها تؤثر على الحيوية في كنهها، ويجب أن تتابع بشكل غريب لتقتل العاطفة المحفزة للبحث عن السعادة. فالألم الكبير، الألم الحقيقي، إذن هو أزمة فتاة تقريباً تضيق على الماضي والحاضر والمستقبل، ولا تترك أي جانب من الحياة في اكتماله، ونشوة الفكر إلى الأبد، وتسجل بشكل لا يمحي على الشفاه والجبين، وتحطم أو ترخي نوابض المسرة بخلفها في النفس عنصر الاستبزاز من كل شيء في هذا العالم. ومن أجل أن تكون هذه الأزمة واسعة المدى، وتثقل على الجسم والروح يجب أن تصل في مدة من الحياة تكون فيها قوى الروح والجسم شابة، وتضرب قلباً ملؤه الحياة، فتحدث عند ذلك جرحاً عميقاً ينضج ألماً كبيراً؛ ولا يمكن لأي شخص أن يخرج من هذه المعاناة دون تغيير شاعري ما: فإما أن يأخذ طريق السماء أو ينخرط في هذا العالم، إن بقي في هذه الدنيا، ليكذب على العالم، ويلعب فيه دوراً؛ لأنه يعرف عندئذ المزالق التي تستخدم للحساب والبيكاه والسخرية، فبعد هذه الأزمة الجليلة لا توجد أسرار في الحياة الاجتماعية التي تدان منذ ذلك الحين، نهائياً. وهذه الأزمة الأولى، الأكثر حدة من جميع الآلام، تنتج لدى النساء الشابات ممن هن في عمر الركيزة؛ دائماً عن حدث واحد، فالمرأة، وخاصة المرأة الشابة، الكبيرة بالروح ككبرها بالجسم، لا يفوتها أبداً أن تضع حياتها حيث تدفعها الطبيعة والعاطفة والمجتمع لترميها بكليتها، فإذا خذلتها تلك الحياة، وإذا بقيت على الأرض فإنها تعاني فيها أفسى العذابات لذات السبب الذي يجعل الحب الأول أجمل العواطف كلها. لماذا لم يكن لهذا

الشفاء مصورٌ أو شاعرٌ؟ ولكن هل يمكن تصويره، وهل يمكن التغني به؟ كلا، فطبيعة الألام التي يولدها يعجز عنها التحليل والوان الفن. كما أن هذه العذابات لم يُسرَّ بها يوماً، ويجب تخمينتها عند محاولة موااساة امرأة، إذ أنها محتشوة دائماً بمراة، ومعاناة بورع، وتبقى في الروح كالانهيارات المتساقطة في الوديان تحطم كل شيء قبل أن تستقر في مكان. وبعض هذه الألام كأولئك الأطفال الذين ضت الحياة عليهم بنعمها، لكن قلوب أمهاتهم كانت أكثر ارتباطاً بهم من أولئك الذين أنعمت عليهم لحسن حظهم بالمواهب. فليس، على الأرجح مثل هذه الكارثة المروعة، التي تقتل كل ما يحيا خارجنا، بمثل هذه الشدة، وهذا الثمام؛ وقد تفاقمت بشكل قاس بالظروف المحيطة بالمركيزة. رجل محبوب شاب وشهم. لم تستجب أبداً وإياه للشهوات، يموت من أجل أن يصون لها ما اصطلاح المجتمع على تسميته شرف امرأة. فلن يمكنها أن تقول: إنني أتعذب! إن دموعها ستهين زوجها، سبب الفاجعة الأولى. والقواتين والتقاليد تحظر تفجعاتها. والصديقة تستمتع بها والرجل يستغلها. كلا، لا يمكن لهذه المفضوعة أن تبكي كما تشتهي إلا في صحراء تفترس فيها عذابها أو يفرسها، تموت أو تقتل شيئاً فيها، قد يكون وجدانها. وقد بقيت عينها منذ عدة أيام معلقتين على أفق مسطح حيث لا تنتظر أن يتحقق شيء في حباتها القادمة، ولا أن تأمل في شيء، وكل شيء يرى بنظرة عابرة، وحيث لا تصادف إلا صور من الأسى البارد الذي يمزق دون انقطاع قلبها؛ أصبح يحيم عليها الضباب، وسماء قليلة الصفاء، وغيمات تجري قريباً من الأرض تحت قبة رمادية تتلام مع أطوار مرضها المعنوي؛ وقلبها لا يفيض بل يعتوره الذبول تقريباً. كلا فطبيعتها النضرة المزهرة تنحجر ببطء بتأثير ألم لا يحتمل لأنها دون هدف، إنها تولمها وتآلم من أجلها. لكن ليس هذا العذاب الخطوة الأولى للانانية؟ وهكذا فإن أفكاراً رهيبه خطرت في وجدانها مجرحة له. والتفتت إلى نفسها بحسن نية فوجدتها وكأنها قد تضاعفت: ففيها امرأة تتعقل وأخرى تحس، امرأة تتآلم وأخرى تريد أن تتجنب كل ألم. وتحوكت إلى أفراح طفولتها التي مرت دون أن تشعر بسعادتها، وتراءت أمامها صورها صافية جملة واحدة، كأنها توجه الاتهام لخبيات أمل زواج ملانم في أعين

الناس، ورهيب في حقيقته . ماذا أفادها حياؤها الناعم أيام شبابها، وكبت مسراتها، وتضحياتها المذولة في المجتمع؟ ورغم أن كل ما فيها يعبر عن الحب وينتظره، فإنها تتساءل الآن ما فائدة هذا التناسق في حركاتها، وابتسامتها، وروقتها؟ إنها لأثوب أبداً أن تشعر بالنضارة أو الإثارة كما لأحب تُرداد صوت دون هدف؛ حتى أنها ترى جمالها غير محتمل إذ لا فائدة منه . وهي تستشف برعب أنها لا تستطيع من الآن فصاعداً أن تكون مخلوقاً سوياً، ألم يفقد الأنا الداخلي فيها القدرة على تذوق الانطباعات في هذا الحديد الثمين الذي يضيء كثيراً من المرح على الحياة؟ وفي المستقبل فإن جميع أحاسيسها ستمحى غالباً عند تلقيها، وكثيراً من تلك التي أثرت فيها سابقاً ستغدو لا أهمية لها، فبعد صبوة المخلوق تأتي صبوة القلب . والحال أن حبيبها حمل إلى القبر هذه الصبوة الثابتة . وهي ما تزال شابة في شهواتها، لكنها فقدت هذا الشباب الكلي في الروح الذي يعطي لكل شيء في الحياة قيمته وطعمه . ألم تحتفظ في نفسها بمبدأ الحزن، والارتباب الذي ينسب من انفعالاتها ريعانها المفاجئ، وإغراءها؟ لأن لاشيء يتمكن من أن يعيد لها السعادة التي كانت ترجوها، وتعلم بجمالها، ودموعها الأولى الحقيقية أطفأت تلك النار السماوية التي تنور انفعالات القلب الأولى، وستقاسي دائماً لأنها لم تكن ما باستطاعتها أن تكون . من هذا الاعتقاد تنجم خيبة الأمل المرة التي تدفع إلى إشاحة الرأس عندما تسنح الفرصة مجدداً للمتعة، فهي تدين الحياة كمعجوز يوشك أن يفارقها . وبالرغم من إحساسها ببيعة الصبا، فقد كانت تخيم على قلبها مجموعة أيام دون ملذات فتسحقها وتجعلها عجوزاً قبل الأوان . كانت تطلب من العالم بصيحة فئوس ماذا منحها بدلاً من الحب الذي ساعدها على الحياة وفقدته، ونساءلت إن لم يكن الفكر في غرامياتها المتلاشية، بطهرها ونقاها، أكثر إجراماً من الفعل، صارت مذنبه مجاناً لتلعب العالم ولتتعزى لأنها لم تقم مع من نيكه ذلك التواصل التام الذي يضعف بتوفيقه الأرواح الواحدة مع الأخرى، ألام تلك التي تبقى، يبقينها أنها قد نعمت كلياً بالسعادة، وعرفت كيف تمتعها تماماً، وتحتفظ في ذاتها بيصمة من غاب . كانت مستاءة كمثلة فشلت في دورها لأن ذلك الألم هز جميع أوتار كيانها،

وفديها، ورأسها. وإذا كانت طبيعتها قد تكذرت في أميائها الأكثر حميمية، فإن الزهو لم يكن أقل تأثراً من الطيبة التي تدفع المرأة للتضحية. وبإثارة جميع المسائل وتحريك جميع نوابض الكيانات المختلفة التي تمنحنا إياها الطبائع الاجتماعية والمعنوية والفيزيائية فقد تخلت عن جميع قوى النفس حتى أنها وسط الأفكار الأكثر تناقضاً لم تستطع أن تدرك شيئاً، وهكذا كانت عندما يحل الضباب أحياناً تفتح نافذتها، وتبقى أمامها دون أية فكرة مشغلة باستشاق الرائحة الرطبة والترابية المنتشرة في الأجواء بشكل آلي، وتنف ساكنة، بلها ظاهرياً، لأن ظنين لها يجعلها غير عابئة بإيقاعات الطبيعة وروائع الفكر.

في ظهر أحد الأيام، وفي المدة التي نغم فيها أشعة الشمس الكون، جاءت وصيفتها، دون أن تستدعيها وقالت: «هي ذي المرة الرابعة التي يأتي فيها الكاهن لرؤية السيدة المركيزة، وهو يلح الآن مصمماً على مقابلتك، ولا نعلم بماذا نجيه».

إنه يريد دون شك بعض المال لفقراء المحلة، هي ذي خمس وعشرون لويسية تقدمينها له نيابة عني.

انطلقت الوصيصة بالدرهم لكنها عادت بعد لحظة وقالت: سيدتي، رفض السيد الكاهن قبول المال وهو يرغب بالتحدث إليك.

أجابت المركيزة وقد بدرت منها حركة نأفث تنذر باستقبال فاتر للكاهن الذي أرادت دون شك تحجب مضايقاته بتبرير مقتضب وصریح: فليات إذن.

كانت المركيزة قد فقدت أمها وهي طفلة، وتأثرت تربيتها بشكل حقيقي بالتراخي الذي حلل الروابط الدينية في فرنسا خلال الثورة. والورع فضيلة نسوية تتناقلها النساء وحدهن جيداً، والمركيزة ابنة القرن الثامن عشر وقد تربت على معتقدات والدها الفلسفية، وهي لم تمارس الطقوس الدينية؛ والكاهن بالنسبة لها موظف عام يبدو لها مشكوكاً بفائدته؛ وصوت الدين في وضعها الرهن يزيد من شجونها، ثم أنها لا تنق أبداً بخوارنة القرى ولا بإثاراتهم؛ لذلك فقد قررت أن توفق كاهنها عند حدة، دون خشونة، وأن تتخلص منه على طريقة الأغنياء، بتقديم

بعض الإحسان . ودخل الكاهن ، ولم يغير مظهره أفكار المركيزة ، إذ رأت رجلاً قصيراً بدينًا ، ذا بطن بارز ، ووجه محمر لكنه متغضن ظاهر الشبخوخة ، وهو يتكلف الانسجام لكن ابتسامته خالية من البشاشة ، وراسه أصلع نخترقه عرضانيًا تجاعيد عديدة تصل بشكل ربع دائرة إلى وجهه فتصفره ، وبعض أشعار بيضاء تزين ففا جمجمته وترتد إلى ما قبل أذنيه . غير أن مظهر هذا الكاهن منبسط بطبيعته . فشفاه الشخبتان ، وأنفه القصير المدبب قليلاً ، وذقنه المختفية ضمن طبة مضاعفة من التجاعيد تشير إلى طبع رضي . لم تلحظ المركيزة أولاً إلا ملامحه العامة ؛ ولكن ما أن نطق بأولى الكلمات حتى تنبّهت لعدوية صوته ، فدققت فيه النظر ، ولاحظت تحت حاجبيه الموحطين بالشيب عينين عرفنا البكاء ، ثم أن استدارة وجنته في منظر جانبي يعطي لرأسه تعبير ألم جليل جعل المركيزة ترى في هذا الكاهن رجلاً .

- سيدي المركيزة ، إن الأغنياء لا يتمنون إلينا إلا عندما يتألمون ، وآلام امرأة متزوجة ، شابة ، وغنية ، وجميلة ؛ لم تفقد أولاداً أو أملاً ، يمكن تخمين مسبباته بجراح لا يخفف ألماها الوحازة إلا الدين . إن روحك في خطر يا سيدي ، وأنا لا أحدثك في هذه اللحظة عن الحياة الأخرى التي تنتظرنا ! كلا فأنا لست أمام كرسي اعتراف ، لكن أليس من واجبي أن أسلط لك الضوء على مستقبل وجوئك الاجتماعي ؟ ستغفرين إذن لعجوز مضايقة هدفها سعادتك .

- لم تعد السعادة ، ياسيدي استحقاقاً لي ، فأنا سأنتهي لكم قريباً ، كما ذكرت ، ولكن بشكل دائم .

- كلا ياسيدي ، لن نموت من الآلام التي ترهقك وترسم على قسمااتك ، ولو وجب أن نموت لما كنت الآن في سان لانج . فنحن أقل تعرضاً للمهلك ، بتأثيرات أسف أكيد ، مناشك الناجمة عن آمال خائبة . عرفت ما لا يمكن تحمّله ، إلا ما من الأكثر رهبة دون أن تؤدّي إلى الموت .

بدرت من المركيزة إشارة عدم تصديق . واستأنف الكاهن : سيدي ، أعرف رجلاً بلغ من الشقاء حدًا تبدو فيه معاناتك خفيفة نسبة لما يرضي روحه .

عند ذلك وسواء أبدأت عزلتها تشغل عليها، أو أن القدرة على أن تكشف لقلب صديق أفكارها المؤلمة قد أثارت اهتمامها، فإنها وجّهت إلى الكاهن نظرة متسائلة كان من المتعذر عليه أن يخطئ مدلولها.

- استأنف الكاهن: سيدي، كان هذا الرجل رب عائلة كثيرة العدد، ولم يبق لديه إلا ثلاثة أولاد؛ إذ فقد على التتابع أهله، ثم ابنته وزوجته الأثيرتين إلى قلبه، وبقي وحده في عمق منطقة يعيش في ملكية صغيرة عرف فيها السعادة طويلاً. وكان أولاده الثلاثة في الجيش، ولكل منهم رتبة تتناسب مع مدة خدماته. وخلال حكم المئة يوم انتقل الابن البكر إلى الحرس الامبراطوري وغدا عقيداً؛ وكان الأوسط رئيس كتيبة مدفعية؛ أما الابن الأصغر فكان قائد سرية خيالة. كان هؤلاء الأولاد الثلاثة يحيون والدهم قدر محبته لهم. وإذا كنت تعرفين لأميالة الشباب المنجرفين مع أهوائهم، دون أن يتوفر لهم وقت يخصصونه لعواطف العائلة، ستدركين باطلاعك على حدث واحد مدى حيوية مودتهم لوالدهم العجوز المسكين الوحيد الذي لا يعيش إلا بهم ومن أجلهم. كان لا يمضي أسبوع إلا ويتلقى رسالة من أحد أولاده؛ لكنه لم يكن بالنسبة إليهم ضعيفاً فيقل احترامهم له، ولا قاسياً بشكل جائر فيتكذرون منه، ولا ضئيلاً بتضحية فيبتعدون عنه. كان لهم أكثر من أب، جعل نفسه أختاً لهم أيضاً وصديقاً. وأخيراً ذهب ليودعهم في باريس عند توجههم إلى بلجيكية. أراد أن يرى جودة خيولهم ويعنى بتأمين ما ينقصهم. وهامهم يتلفون ويعود الأب إلى منزله. وتبدأ الحرب، ويتلقى رسائل وجهت منهم إليه وهم في فلوريس ثم في ليني، وكل شيء على ما يرام. وتدور معركة واترلو، وأنت تعرفين النتيجة. عم الحداد فرسة دفعة واحدة، حل القلق العميق لدى جميع العائلات؛ والأب، كما يمكن أن تتوقعي، يا سيدي، ينتظر؛ لا يهدأ له بال، ولا يذوق طعم الراحة. يتابع قراءة الصحف، ويذهب بنفسه يومياً إلى دائرة البريد، وأعلن له مساء أحد الأيام وصول خادم ولده، ورأى ذلك الرجل منقطعاً حصان معلمه، ولم يعد ثمة حاجة للسؤال. مات الكولونيل منقطعاً نصفين بقذيفة مدفع. ونحو نهاية السهرة وصل خادم أصغر الأولاد ليني؛ بوفاة معلمه غداة المعركة، وعند منتصف الليل حضر

مدفعي ليعلمن وفاة ثالث الأولاد، الذي غدا في مدة قصيرة من الزمن، أمل والده الوحيد في الحياة. نعم ياسيدي ماتوا جميعاً! وبعد لحظة توقف، أمكن للكاهن فيها أن يقهر انفعالاته، أضاف بصوت عذب هذه الكلمات: وبقي الأب حياً، يا سيدتي، وأدرك أن الله تركه على الأرض ليستمر معذباً عليها، وقاسى العذاب، لكنه ارتمى في أحضان الدين. فماذا يمكن أن يكون؟ رفعت المركيزة عينيها إلى وجه الكاهن، وقد سما بالحزن والاستسلام للفدر وانتظرت تلك الكلمة التي أسالت عبراتها: كاهناً! يا سيدتي، رُسم بالدموع، قبل أن يُنذر أمام مذبح الله.

ساد الصمت برهة، حدثت المركيزة والكاهن فيها النظر من النافذة إلى الأفق المغشى بالضباب كان باستطاعتها أن يريا من فُقدًا إلى الأبد.

استأنف الكاهن: لم يُسم كاهن مدينة، بل خوري قرية<sup>(١)</sup> بسيطاً.

قالت وهي تمسح دموعها: في سان لانغ.

- نعم ياسيدي.

لم يظهر أبداً جلال الألم لجولي يمثل هذا الكبير من قبل، وسقطت عبارة نعم يا سيدتي مباشرة على القلب كأنها ثقل ألم لا نهاية له. فهذا الصوت الذي يرنّ بعذوبة في الأذن يخرق الأحشاء. أه! إنه حقاً صوت الشقاء، هذا الصوت الممتلئ الرصين، الذي يبدو كأنه يجرف سبباً نفاذاً.

قالت المركيزة بشكل أقرب إلى الاحترام: سيدي، ماذا سأعقدو إذن إن لم أمت.

أليس لك ولد يا سيدتي؟

قالت بيروود: نعم، لي ابنة.

(١) هو كاهن من سلسلة كهنة الريف الحائزين على إعجاب بلزك: جانغيه في «طب الرحمة» وبيروودا في «العالم». وبنوه في «كاس العزة». وفقدانه لأولاده الثلاثة دفعه إلى الكهنوت أما شكله فمماثل لبلزك.

ألقى الخوري على تلك المرأة نظرة مماثلة لتلك التي يلقيها طبيب على مريض في خطر، وصمّم على أن يبذل جميع جهوده لينتزعها من قبضة سلطان الأذى الذي يسطر هيمنة عليها.

- كما ترين يا سيدتي، حكم علينا العيش مع الأمانا، والدين وحده يقدم لنا المواساة الحقيقية، فهل تسمحين لي بالعودة لأسمعك صوت رجل يعرف كيف يتوافق مع الهموم والذي ليس عنده، حسب اعتقادي، ما يرعب؟

- نعم يا سيدي، عد منى شنت، وأنا أشكرك لتفكيرك بي.

- حسن يا سيدتي، إلى لقاء قريب.

أراحت هذه الزيارة، إن صح القول، نفس المركيزة؛ وقد كانت قواها مستشارة يعنف بالخرن والعزلة، فقد مسح الكاهن جراح قلبها بعطر بلسمي، ويوقع الكلمات الدينية الناجع، وأحسّت بعدها بذلك النوع من الرضى الذي يبهج سجيناً يسمع بعد معاناته لعمق عزلة، وثقل قيوده، قرعاً على جدار زنزانته يتعرف فيه على جار له يمكنه أن يتبادل معه أفكاراً مشتركة، ووجدت في الكاهن نجياً لم تتوقع لقياءه. لكنها ارتدت سريعاً إلى تأملاتها المرة. وقالت في نفسها، كما يقول السجين، إن رقيقاً في الألم لن يخفف قيودها ولا يؤس مستقبلها. ولم يرد الكاهن أن يشير ذعر متألمة معتزة بذاتها منذ أول زيارة، لكنه تأمل، بفضل فنه، أن يحقق نجاحاً للدين في مقابلة ثانية، وعاد بعد يومين، وتبين له في الواقع، من ترحيب المركيزة بقدمه، الرغبة في زيارته.

قال الخوري العجوز: إيه! يا سيدتي المركيزة، هل فكرت قليلاً بمدى الألام الإنسانية؟ هل رفعت عينيك إلى السماء؟ وهل رأيت فيها سعة تلك العوالم، التي تنقل من أهميتنا، ونسحق كبريانا وبذلك تخفف ألمانا؟ . . .

أجابت: كلا يا سيدي، فالقوانين الاجتماعية تثقل كثيراً على قلبي، ونقطع نياحه بحدّة حتى أنني لا أستطيع أن أرفع ناظري إلى السماء. لكن القوانين قد تكون أقل قسوة من ممارسات المجتمع. أوه! يا للمجتمع!



- يجب علينا يا سيدي، أن نذعن لهذه ونلك؛ فالقواتين هي الكلمات،  
والممارسات هي أفعال المجتمع.

رَدَّتْ المريضة وقد بدرت منها حركة هلع: إطاعة المجتمع؟ . . . إيه! يا سيدي،  
إن جميع مصائبنا تأتي من ذلك. فإله لم يصدر أي قانون يسبب الشقاء لكن البشر  
باجتماعهم حرقوا عمله، فنحن، معشر النساء قد أساءت الحضارة معاملتنا أكثر من  
إساءة الطبيعة. فالطبيعة فرضت علينا متاعب جسمانية لم تطفوها والحضارة تمّت  
فيها عواطف نخدعونها دون انقطاع. الطبيعة تخنق الكائنات الضعيفة؛ وأنتم  
تحكمون عليها بالحياة لتكبدوها شقاءً مستمراً. والزواج وهو المؤسسة التي يرتكز  
عليها المجتمع بحملنا وحننا كل أئقاله: فللرجل الحرية، وعلى المرأة الواجبات.  
نحن نخصمكم بكل حياتنا وأنتم لا تخصصون لنا من حياتكم إلا لحظات نادرة،  
أخيراً يقوم الرجل بالاختيار حيث يجب علينا الإذعان دون أي نصير. إيه! يا سيدي،  
لك يمكن التصريح بكل شيء، والحق يقال إن الزواج كما يمارس حالياً هو بقاء  
مشروع كما يبدو لي. ومن هنا نشأت جميع عذاباتي لكنتي وحدي من جميع  
المخلوقات إنعيسات اللواتي حتمّ عليهن الزواج ملزمة بالصمت! فأنا وحدي صانعة  
شقايتي، فقد أردت هذا الزواج وتوقفت، وذرفت دموعاً مرّةً وبقيت صامتة؛ ثم  
استأنفت.

وفي هذا البؤس العميق، ووسط هذا الأوقيانوس من الآلام وجدت موضع  
قدّم على الرمال حيث يمكنني أن أتألم كما أشاء؛ لكن إعصاراً جرف كل شيء. . . وها  
أنا وحيدة دون سند. جدٌ ضعيفة ضد العواصف الهوجاء.

قال الكاهن: نحن لسنا أبداً ضعفاء عندما يكون الله معنا. وعلى كل حال إن  
لم يكن لديك مودآت تشبعينها في هذه الدنيا، ألا ترتب عليك فيها واجبات تملئونها.

صاحت بنوع من نفاذ صبر: واجبات على الدوام! ولكن بالنسبة لي، أين هي  
العواطف التي تمنحنا القوة لإتمامها؟ يا سيدي، لا يُولد شيء من لا شيء، ولا شيء  
دون نمن هذه هي القوانين الحقّة في الطبيعة مادياً ومعنوياً. أتريد من هذه الأشجار

أن ترفل بالأوراق دون سُخْ بغذيتها ويفتح نضارتها؟ للروح نسفها أيضاً! وهذا النسخ بالنسبة لي قد جف في منبعه .

- لن أحدثك عن العواطف الدينية التي تولد القناعة والاستسلام، لكن الأمور ما سيدي، أليست هي إذن . . . .

- فاطمته المركيزة سريعاً: توقف يا سيدي، فأنا أريد أن أكون صادقة معك . مع أنني، للأسف لن أستطيع ذلك بعد الآن مع أي إنسان . فقد حكّم علي بالتفاق لأن هذا العالم يتطلب ابتسامات مزبّقة عنى الدوام، وهو يلزمنا بإطاعة مصطلحاته تحت طائلة التعرّض للعار . يوجد نوعان من الأمور . وقد كنت أجهل سابقاً هذه التميّزات؛ أما الآن فإنني أعرفها . إنني نصف أم فقط . وكان الأفضل ألا أكون أما أبداً . فهيلين ليست ممن أحب . إيه! لا ترتعش فسان لاج<sup>(١)</sup> مهواة غرقت فيها كثير من العواطف الزائفة، وانطلقت منها ومضات أشعة مشؤومة، وانهارت فيها صروح واهنة لقوانين ضد الطبيعة . لدي وُلْد، هذا يكفي؛ إنني أم هكذا يريدني القانون، لكنك يا سيدي تملك قلباً رحيماً بالغ الرقة، وستدرك على الأرجح صيحات امرأة مسكينة لم تدع لأية عاطفة مفتعلة أن تتسرّب إلى قلبها، سيدينتي الله، لكنني لا أعتقد أنني خالفت قوانينه باستجابتي لعاطفة سكبها في روحي، وهوذا ما حصل لي منها . أليس الولد يا سيدي، صورة مخلوقين، ثمرة عاطفتين اندمجتا بكل حرية؟ فإذا لم يرغب به بكل أحاسيس الجسم وبكل عواطف الروح، وإذا لم يدكّر بالأهواء العذبة، والأزمة والأمكنة التي استمتع فيها هذان الكائنات بالسعادة، ولغتها الممتلئة بالموسيقى الإنسانية، وبأفكارهما الحلوة، فإن هذا الولد مخلوق ناقص . نعم يجب أن يكون بالنسبة لهما ثمرة صغيرة رائعة يسترجعان فيها قصائد حبانتهما المضاعفة السرية؛ وبهين لهما ينسجوا انفعالات غزيرة، وأن يكون في أن واحد كل ماضيهما

(١) يذكر اعترال المركيزة في سان لاج بعزلة اللبدي برندون مع ولدها في حال الرقاد . وكذلك السبعة دي بوسيان في «الزفة الصغرى» . طل ووضع كونه مونسان في «الزفة» .

وكل مستقبلهما . وطفلي الصغيرة المسكينة هيلين ابنة أبيها، ابنة الواجب والمصادفة، وهي لاتصادف في نفسي إلا غريزة المرأة، والقانون الذي يدفعا بشكل لايقاوم لحماية المخلوق المولود من رحمتنا . أنا لا أأم من وجهة النظر الاجتماعية، ألم أضح من أجلها بحياتي وسعادتي؟ وصراخها بشير إشفاقي، وإن سقطت في الماء، فسألني بنفسي فيه لإنقاذها . لكنها ليست في قلبي . أه! جعلني الحب أحلم بأمومة أكثر سموًا، وأكثر كمالاً . داعبت في حلم متلاش الطفل الذي تصورته رغباتي قبل أن يتكون . خلاصة القول، وكذت هذه الزهرة الحلوة في الروح قبل أن ترى النور . وأنا بالنسبة لهيلين ما يجب، في النظام الطبيعي، أن تكونه أم من أجل ذريتها، وعندما تستصل إلى العمر الذي لا تحتاج به لي ينتهي كل شيء، يتسفي السب فيتوقف مفعوله . وإذا أحست الأم بتلك الميزة المشتهة التي تدفعاها إلى بسط أمومتها على حباة ولدها بكاملها، ألا يجب أن يُسب إلى نالقات حملها المعنوي هذا الاستمرار الإلهي في العاطفة؟ عندما لا يكون للولد روح أمه غلاًفاً أولاً، تتوقف الأمومة بعدئذ في قلبها، كتوقفها عند الحيوانات . هذه حقيقة أحس بها: فمع نمو ابنتي الصغيرة المسكينة ينقبض قلبي، فالتضحيات التي بذلتها من أجلها تفصلني عنها . بينما لو كان الأمر مع ولد آخر لأحسست بأن عواطف قلبي لاتنفد، فبالنسبة لهذا الآخر ليس ثمة تضحية وكل شيء متعة . هنا ياسيدي العقل والدين، فكل شيء يغدو مجرداً من القوة أمام عواطفني . فهل تخطئ: امرأة ترغب بالموت لأنها ليست أمًا ولا زوجة؟ وقد شاء سوء حظها أن تستشف الحب في مفاته اللانهائية، والأمومة في مباحها اللامحدودة؟ ماذا سيحصل لها؟ هل أخبرك عما تحسه؟ منة مرة خلال النهار، ومنة مرة خلال الليل، نلهب رعدة رأسي وقلبي وجسمي عندما تحمل لي ذكرى لم تجد مقاومتها صور سعادة أفترض أنها أكبر مما هي . هذه الزوات الباهتة تهدد عواطفني بالأفول، وأقول في نفسي: كيف كانت ستغدو حياتي لو . . . ؟ وأخفت وجهها بين يديها واسترسلت في اليكاء . ثم استأنفت هوذا قلبي في صميمه . لو أن لي ولدًا منه لارتضيت أفسى المصائب! والمسيح الذي مات متحملاً كل خطايا الأرض سيغفر لي هذه الفكرة القائلة بالنسبة لي . لكنني أعرف أن

العالم فاس لا يرحم، وكلماني بالنسبة له تحديف. وأنا أشتم كل شرانعه. أه! أريد أن أعلن الحرب على هذا العالم لتجدد شرانعه وتصرفاته، ولتحطيم! ألم يجرحني في جميع أفكارني وجميع مشاعري، وعواطفني، ورغباتني، وأمالي، في المستقبل والحاضر والماضي؟ فالنهار بالنسبة لي ممتلئ بغياهب الظلمات، والفكر سيف مصلّت، والقلب جرح دام، وابنتي مظهر سلبي. نعم، عندما تحدّثني هيلين أودّلو أن لها صوتاً آخر، وعندما تنظر إليّ أودّ لها غير هاتين العينين؛ إنها هنا لتبين لي كل ما يجب أن يكون وكل ما لم يكن، إنها مصدر إزعاج لي! ابتسم لها، وأحاول أن أعرضها عن العواطف التي أسرفها منها. وأنالم! أه! ياسيدي، إنني أتالم كثيراً في تحمّل الحياة وأنا أعدّ امرأة فاضلة! لم أرتكب أيّ أخطاء! وسأحظى بالاحترام! قاومت الحب اللاإرادي ورأيت وجوب عدم الانقياد له. ولكن في محافظتي على الشرف الفيزيائي، هل تمكّنت من صيانة قلبي؟ وأردفت وهي تضع يدها اليمنى على ثديها الأيسر: كان هذا القلب لمخلوق آخر. وهكذا فإن ابنتي لم تتخضع به؛ توجد نظرات، وأصوات، وحركات للام تكيف بقوتها روح الأولاد، وصغيرتي المسكينة لا تشعر بارتعاش ذراعي، ولا بتهدج صوتي، ولا بعدوية عيني عندما أنظر إليها أو أحدها أو اضمهما بذراعي، إنها ترميني بنظرات اتهام لا تحمّلها! أرتعش أحياناً عندما أجد فيها محكمة سديني دون سماع دفاعي. أرجو السماء ألا تقيم الحقد بيننا ذات يوم! أيها الإله القادر! الأولى أن تهين لي قبوري، وتجعلني أنتهي في سان. لانج! أريد أن أذهب إلى العالم الذي سأجد فيه وروحي الأخرى، حيث سأكون بالفعل أمّاً! أه! عفوك ياسيدي. أكاد أجنّ فهذه الكلمات كانت تخفني، وقد صرّحت بها. أه! إنك تبكي معي! وأنت لا ترديني. ثم صاحت بنوع من القنوط وهي تسمع وقع خطا ابنتها عائدة من زرتها: هيلين، هيلين، تعالي بابنتي.

وجاءت الصغيرة ضاحكة، هانفة، وهي تحمل فراشة أمسكت بها، وصمت عندما رأت أمها باكية، ووقفت إلى جانبها. ورفعت لها رأسها لتقبل جبينها.

قال الكاهن: ستغدو صبية جميلة.

أجابت المركيزة وهي تقبل ابتها بحرارة كأنها نفي ديناً مستحقاً أو تبعد نيكيت  
ضمير : إنها نسخة عن أبيها .

-إنك حارة يا ماما .

أجابت المركيزة : اذهبي ، واتركينا يا ملاكي .

وذهبت الطفلة دون أسف ، ودون أن تنظر إلى أمها ، سعيدة تقريباً لأنها تهرب  
من أمام وجه حزين ، كأنها تدرك أن العواطف المعبر لها عنها مناقضة للحقيقة .  
فالإبتسامة خاصية الأمومة ولغتها ، وتعبيرها . والمركيزة لا تستطيع الابتسام .  
واحمرت وهي تنظر إلى الكاهن : تأملت أن تظهر أمًا ، لكنها لم تستطع لاهي ولا  
ابتها الكذب ؛ والواقع أن قبيلات المرأة المخلصة لها طعم العمل الإلهي الذي يضع  
في تلك الدعاية روحاً ، وناً نفاذة يلج منها القلب . والقبيلات المجردة من تلك  
الطلاوة المعتمة مرّة وجافة . وأحس الكاهن بهذا الفرق ، وأمكنه أن يسبر الهوة  
الموجودة بين أمومة الجسد وأمومة القلب . وهكذا بعد أن ألقى على تلك المرأة نظرة  
فاحصة ، قال لها :

إنك على حق يا سيدتي ، أفضل لك أن تموتي .

أجابت : أه ! إنك تدرك عذاباتي ، كما أرى . لأنك ، وأنت الكاهن المسيحي ،  
تخمن هذه القرارات المشؤومة التي أوجت بها وتقرها . نعم ، أردت أن أقتل نفسي  
إنما لم أملك الشجاعة الضرورية لتنفيذ مرامي . لكن جسيمي كان يضعف عندما  
تقوى روحي ؛ وعندما لا ترتعش يدي تتربح روحي ! وأنا أجهل سر هذه الصراعات  
وهذه التناوبات ، إنني دون شك ، وبشكل محزون جداً ، امرأة لاثبات في إرادتها ،  
وهي قوية لتحب فقط . إنني احتقر نفسي ! في المساء عندما ينام خدمي ، أذهب إلى  
بئر المياه بكل جراءة . وعندما أصل إلى الحافة تخشى طبيعتي الواهة الدمار . إنني  
أعترف لك بضعفي . وعندما أجد نفسي في السرير ، أحجل من جبني ، واسترد

شجاعتي ، وفي إحدى هذه المرات أخذت لودانوم وعانيت من آلام شديدة لكتتي لم أمت . اعتقدت أنني تناولت كل ما تحتويه الزجاجاة ، ولكن يبدو أنني توقفت عند منتصفها .

قال الخوري برصانة وبصوت يتهدج بالدموع : إنك ضائعة ، ياسيديتي ، تدخلين في العالم وتخدعين العالم ؛ ستبحثن فيه ، وستجدين ما تريه تعويضاً عن شقائك ؛ ثم تحملين ، في يوم ما ، همّ ملذاتك .

صاحت : أنا ، أنا سأبحث عن أولئك محتال يعرف أن يُمثل أدوار الهوى وأسلمه آخر ثروات قلبي وأثمنها ، وأفسد حياتي من أجل لحظة متعة مشكوك بها؟ كلا إن حياتي ستهلك بلهيب نقي . ياسيدي ، إن لجميع الرجال أحاسيس جنسهم ، لكن من له الروح ، ويرضي مستلزمات طبيعتنا كلها بتناسقها المنسجم غير المتأثر إلا بضغط العواطف لا يصادف مرتين في الحياة . أنا أعرف أن مستقبلتي رهيب ، فالمرأة لاشيء دون الحب ، والجمال لاشيء دون المتعة . ولكن ألا يستكر العالم سعادتي إن تهيأت مرة أخرى لي؟ إنني ملزمة بأن أكون أمّاً شريفة لابنتي . أه! إنني ملقاة في طوق حديدي لا أستطيع الخروج منه دون خزي . والواجبات العائلية المنجزة دون جزاء ستضايقني ؛ وسألعن الحياة لكن سيكون لابنتي ، على الأقل ، شبه أم جيدة . سأحسك لها كنوز الفضيلة عوضاً عن كنوز المحبة التي حرمتها منها . وأنا لا أربح حتى بالعيش لتذوق المسرات التي تمنحها سعادة الأولاد لأمهاتهم . أنا لا أؤمن بالسعادة ، ماهو مصير هيلين؟ ذات مصيري على الأرجح ؛ إذ ما هي الوسائل التي يمكن أن تتوفر لأي أم لتتأكد من أن الرجل الذي ستسلمه ابنتها هو الزوج الذي يلائم قلبها؟ إنكم تشهرون بالمخلوقات المسكينة اللواتي يبعن أجسادهن بيبضع دراهم لرجل غايب ، والجوع والحاجة يغفران هذه الاتصالات العابرة ؛ بينما المجتمع يتساهل في اتحاد فوري ، بل ويشجعه رغم رهيبته ، بين فتاة ساذجة ورجل لم تشاهده لثلاثة أشهر مضت ، وتباع له للحياة كلها . صحيح أن الثمن مرتفع ! فلو أنكم بعدم سماحكم لها بأي تعويض عن ألامها تحترمونها لهان الأمر ، ولكن كلاً ، فالعالم

يفتري على الأكثر فضيلة بيتنا! وهذا هو قدرنا برؤيته من الوجهين: دعارة عامة وعار، ودعارة خفية وتعاسة. أما البنات الفقيرات دون بائة، فمصيرهن الجنون أو الموت؛ ولن يلقين أية رحمة أو شفقة! والجمال ومكارم الأخلاق ليست قبيحا في بازاركم البشري، وتسمون مجتمعا وكسر الأناية هذا. لكن احرموا النساء من الموارث! إنما أتموا على الأقل قانون الطبيعة باختياركم رفيقات حياتكم والزواج منهن وفق أمنيات القلب.

- سيدتي، كلمائك تبرهن لي أنك غير متأثرة بالروح العائلية أو بالروح الدينية. لذلك لا ترددي بين الأناية الاجتماعية التي تجرحك، وأناية المخلوق التي ستجعلك تشتهن الملمات.

- هل العائلة موجودة ياسيدي؟ إنني أنكر العائلة في مجتمع تتوزع فيه الأملاك عند موت الأب أو الأم بين الأبناء ليذهب كل منهم في جهته<sup>(١)</sup>، فتعدو العائلة تجمعا موقنا وعرضيا يحلّه الموت بسرعة، وقد حطمت قوانيننا البيوتات، والموارث، ودوام القدوات والتقاليد، ولا أرى إلا انقراض اسمها جولي.

- سيدتي، لن تعودني إلى الله إلا عندما تستقل يده عليك، وأتمنى أن يتوفر لك الوقت لتتصالح معي. إنك تفتشين عن تعزياتك وأنت تحوكين أنظارك إلى الأرض بدلا من أن ترفعي عينيك نحو السماء، فالتفلسف والمصلحة الشخصية نهشا قلبك. وأنت تُصمّين سمعك دون صوت الدين، على شاكلة أبناء هذا القرن عديمي الإيمان! إن مسرات العالم لا تولد إلا العذاب. وستغيبين ألامك، هذا كل ما في الأمر.

قالت وهي تبسم بمرارة: سأعمل على تكذيب نبوءتك؛ وسأبقى مخلصة لمن مات لأجلي.

أجاب الكاهن: ليس الألم قابلا للاستمرار في الحياة إلا في النفوس التي أعدّها الدين لتقبّله. وغضّ طرفه باحترام ليحجب الشكوك التي يمكن أن تعبر عنها

(١) هذا هو موقف السيد شوليه في «مذمورات زوجتين ثابتين» حول موضوع تقسيم الملكية.

نظرت، فالطاقة الظاهرة في الشكاوي المنطلقة من المركيزة أحزنته، وترأث له فيها الأنا البشرية بأشكالها المتعددة، وقنط من نظرية هذا القلب الذي جفقه الشقاء بدلاً من أن يلبته، وتوقع ألا تنتش فيه حبة البدار السماوي لأن صوته العذب كان يخبث في ضجيج الأناثية الكبير والرهيب. غير أنه أظهر مشاركة الرسل وعاد لزيارة المركيزة في مناسبات عديدة مؤملاً على الدوام أن يعيد إلى حظيرة الله تلك الروح النبيلة المعتزة. لكنه فقد الأمل في اليوم الذي لاحظ فيه أن المركيزة لا تحب التحدث إليه إلا لأنها تجد في محاورته حلاوة التحدث عن ذلك الذي لم يعد موجوداً<sup>(١١)</sup>، ولم يرد أن يحط من قيمة كهنوته بإظهاره الرضى عن هوى محرم، فأوقف مداولاته، وعاد تدريجياً إلى الصيغ والأماكن المشتركة في الحديث. وحل الربيع، ووجدت المركيزة ما يسليها عن عميق حزنها، واهتمت بالبطالة السائدة في أرضها، وراق لها أن تدير بعض الأعمال فيها. وفي شهر تشرين أول تركت قصرها القديم في سان لانج حيث استعادت نضارتها وجمالها في بطالة ألم كان عنيماً أولاً، كقرص رمي بقوة، وانتهى إلى التخادم في الكابة، كما يتوقف القرص بعد ترجحات تضعف بشكل تدريجي. والكابة تتألف من تسابع ترجحات متماثلة معنوية تلامس الأولى منها القنوط بينما تصل الأخيرة إلى البهجة، فهي في الشباب شفق الفجر، بينما هي في الشيخوخة غسق الغروب.

عندما مرت العربة في القرية، تلقت المركيزة تحيات الكاهن الذي كان عانداً من الكنيسة إلى دار خورنيت؛ لكنها بردها تحبه خففت عينيها وأشاحت برأسها كي لا يتبين ملامحها. لقد كان الكاهن على حق في موقفه ضد تلك المسكنة المماثلة لأرغميز أنفس.

(١١) أهو تذكير بموقف المركيزة دي كاستري التي بقيت على وفائها لترنيخ !!



## في عمر الثلاثين

في حفلة رقص أقامتها السيّدّة فيرمياني، ظهر شاب تبدو عليه بشائر نجاح فاتق، ينتمي إلى أحد هذه البيوت التاريخية التي تبدو أسماؤها على الدوام، رغم حظر القوانين أحياناً، على صلة وثيقة بأمجاد فرنسة. وكانت تلك السيّدّة قد أعطته بعض رسائل توصية، اثنتين أو ثلاثاً إلى صديقاتها في نابولي؛ وجاء السيد شارل دي فاندنس<sup>(١)</sup>، وهذا هو اسم الشاب، ليشكرها ويودّعها. كان فاندنس قد أنهى بمهارة عدة مهام كلف بها والحق مجدداً بأحد وزراءنا المفوضين المرسلين إلى مؤتمر لايباخ<sup>(٢)</sup> وأراد أن يستغل رحلته لدراسة إيطالية. كانت حفلة الرقص هذه، بالنسبة للشباب، نوعاً من الوداع لمباحج باريس، ولتلك الحياة السريعة، وتلك الدوامّة من الأفكار والمرآت التي يُعْتَرى عليها غالباً، ولكن من الممتع الانصراف إليها. كان فاندنس قد ألف منذ ثلاث سنوات أن يحبي العواصم الأوروبية، وأن يُقَادِرَها وفقاً لآراءه وقدره الدبلوماسي، غير أن ما بأسف عليه عند مغادرة باريس قليل جداً. فالنساء

(١) أوجد بلزك شخصية شارل دي فاندنس في «المرأة في الثلاثين» وهو الأخ الأكبر لفيليكس دي فاندنس بطل «الطغاة في الرودس». ويحمد شارل بنح الملك إلى غان خلال حكم المئة يوم وبشترك في مؤتمر فيينا ويغدو في ما عرفه زوج إيميلي دي فونتين أرملة الأميرال دي كرجاروه، وهو يعاشر في رواية «مات زوس» المتهتكين في مختلف الصالونات الباريسية وخاصة صالون المركيزة دي إغلمون والكوتنة دي لسنوير والسيدة فيرمياني.

(٢) مؤتمر لايباخ (حالياً لومبانا) جمع ملوك النمسة وبروسية وروسية ونابولي وفرنسة وإنكلترة لبحث وسائل سحق الحركات الثورية النابوليتانية وحصل من نتيجة فيه على حق بلاده في إقامة النظام. وقد انعقد هذا المؤتمر بتاريخ ١٢ أيار ١٨٢١ بعد أربعة أشهر من المفاوضات.

لا يمارس أي تأثير عليه سواء لأنه لا ينظر إليهن بهوى حقيقي لأنهن يشغلن مكاناً كبيراً في حياة رجل سياسي، أو لأن الاهتمامات الحقيبة المتعلقة بمغازلات سطحية تبدو له فارغة جداً نسبة لشخصية قوية. ونحن جميعاً نملك ادعاءات كبيرة تتعلق بقوة الروح، وما من إنسان في فرنسة، وإن كان نافعاً، لا يوافق على عدّه، بكل بساطة، روحانياً. وهكذا فإن شارل، على حادثة سنّ (على مشارف الثلاثين من العمر) تعود فلسفياً أن يرى الأفكار، والنتائج، والوسائل حيث يبصر الرجال ممن في عمره العواطف والمسرات والأوهام، وهو يعد حرارة الشباب وحماسهم الطبيعية إلى أعماق روحه، التي تتميز بشهامة فطرية ويعمل بكل رباطة جأش وتنظيم دقيق، وحسن تصرف لوضع قدراته المعنوية التي بعدها ولبدة المصادفة، في صيغ محببة، ومظاهر إغراء، وهي مهمة حقيقية لرجل طموح، ودور شاق يطلع به هادفاً للوصول إلى ما نسبه مكانة رفيعة. وألقى نظرة أخيرة على الصالونات حيث يجري الرقص، فقد أراد، على الأرجح، قبل أن ينادر هذه الحفلة أن يحمل في ذاكرته صورة عنها كمشاهد لا يخرج من مقصورته في الأوبرادون أن يتأمل المشهد الأخير لكن بنزوة أيضاً، سهل فهمها، كان السيد دي فاندنس يدرس هذه الحركة الفرنسية الخالصة، وألقى الوجوه الضاحكة في هذه الحفلة الباريسية ليقارنها بالفكر مع المظاهر الجديدة والمشاهد الرائعة التي تنتظره في نابولي حيث ينوي أن يقضي عدة أيام قبل أن يلتحق بوظيفته. كان يبدو وكأنه يوازن فرنسة السريعة التبدك، التي درسها واقعياً في الحال، مع بلاد لا يعرف عن تقالدها، ومواقعها إلا ما يسمع ويقال بتناقضاته، أو ما تتضمنه بعض كتب غير موثوقة في معظمها، ومرت في رأسه بعض أفكار شاعرية تقريباً، لكنها عدت شائعة جداً الآن وهي تتجاوب دون علمه تقريباً، مع آمنيات خفية في قلبه، المتشدّد دون نفور، الخالي دون ذبول. وقال في نفسه:

- هي ذي النساء الأكثر أناقة وعنى، وتبلّ محتد في باريس، وهنا مشاهير هذا الزمن، ونوابغ المناير، والشخصيات الأرستقراطية والأدبية، وهناك الفنانون، ورجال السلطة. غير أنني لا أرى إلا دسائس صغيرة، وغراميات مجهضة وابتسامات فاترة، واستخفافاً دون سبب، ونظرات دون بريق، وكثيراً من الذكاء لكنه مشتت

دون هدف؛ وجميع هذه الوجوه البيضاء والوردية تبحث عن اللهب أكثر منها عن المسرة؛ فما من عاطفة حقيقية. فإن أردت حسن ترتيب ريش القبعات، والأثواب المهفهفة، والزينات الأنيقة، والنساء النحيفات القدود؛ إن كانت حيانتك ملامسة السطح دون الغوص في العمق فهوذا عالمك. افنح بهذه العبارات النافهة، وهذه التكثيرات العريضة؛ ولا تطلب عاطفة في القلوب. أمأ أنا فتروغي هذه الدساتس المسطحة التي تنتهي بعقد زيجات، أو بمنصب رئيس منطقة إدارية، أو بوصفات عامة، وإن تعلقت بالحب فبترتبات خفية، إذ يبدو أن الحجل ساند عما يشبه الهوى. وأن لا أدري أياً من هذه الوجوه المعيرة التي تعلن لك روحاً متصرفة إلى فكر كما إلى تكبت ضمير. هنا الأسف أو الشقاء يحتجبان بخجل تحت السخريات، ولا الأحظ أياً من هؤلاء النساء اللواتي أحب الصراع معهن، واللاتي يقدنك إلى هوة لاقرار لها. أين تجد القدرة في باريس؟ الخنجر شيء يثير الفضول يعلق في مسمار مذهب، ويزين بقمد جميل. والنساء والأفكار، والعواطف، كلها تشابه، ولا توجد أهواء لأن الفرديات الذاتية اختفت؛ فالمراتب، والعقول، والثروات قد سويت، وارتدينا كلنا الثياب السوداء كأننا في حداد على فرسة الميتة. ونحن لانحب نظرامنا. فبين عاشقين يجب وجود فروق لتزال، ومسافات ليتم تجاوزها وجاذبية الحب هذه تلاثت في العام ١٧٨٩! ومشكلتنا، وتقاليدنا المضجرة ناتجة عن نظامنا السياسي. ففي إيطاليا على الأقل حسم كل شيء، والنساء ما يزلن فيها حيوانات شرسة، وحوريات بحر خطرات، دون عقل أو منطق إلا أذواقهن وشهياتهن ووجوب الخذر منهن كما يخطر من النور.

جاءت السيدة فيرمياني تقطع عليه هذه المناجاة الداخلية بألاف أفكارها المتناقضة، وغير التامة، والمبهمة التي لا يمكن التعبير عنها. إن مزية حلم اليقظة تنجلي في إبهامه الكلي؛ أليس هو نوعاً من البخار الذهني؟

قالت وهي تأخذ بذراعه: أريد أن أقدمك لسيدة ترغب رغبة شديدة في التعرف عليك بعد أن سمعت الكثير عنك.

وقادته إلى صالة مجاورة، ودلته بحركة، وابتسامه، ونظرة باريسية بالفعل إلى امرأة تجلس قرب المدفأة.

سأل الكونت دي فاندنس بحماسة : من نكون؟

- إنها سيّدة تداولتم، بالتأكيد، في مجالسكم أكثر من مرة لتمدحوها أو تدموها. امرأة تعيش في عزلة، ولغز محير.

- إن كانت الرحمة إحدى مزايا حياتك فأرجو أن تمتي علي باسمها.

- المركيزة دي إغلمون.

- سأذهب لألتقي دروساً منها: فقد عرفت أن تجعل من زوج غير كفؤ عبئاً من أعيان فرنسة، ومن رجل تافه قدرة سياسية. لكن أخبريني، أعتقدين أن اللورد غرنفيل قد ضحى بنفسه من أجلها كما تزعم بعض نساء المجتمع.

- ربّما، فمئذ تلك المغامرة، صحيحة كانت أو كاذبة، تغيّرت تلك المرأة المسكينة، وهي ما تزال نادرة الظهور في المجتمع، وهذا أمر يسترعي الانتباه في باريس، خاصة وأنه استمرّ أربع سنوات، وإذا كنت تراها الآن هنا... وتوقفت السيدة فيرمياني ثم أضافت بمظهر مآكر: نسيت أن من واجبي السكوت. اذهب وتحدّث معها.

بقي شارل لوقت ساكناً، وقد أسند ظهره برفق إلى إطار الباب مستغرقاً بتأمل امرأة غدت مشهورة، دون أن يهتم أحد بالتفكير في الأسباب الموجبة لشهرتها، فالعالم يقدم كثيراً من هذه الشواذات المثيرة للفضول. فشهرة السيّدة دي إغلمون ليست بالتأكيد أكثر غرابة من تلك التي يتمتع بها بعض الرجال المنصرفين باستمرار إلى عمل مجهول: إحصائيون متمسكون بعمق الإيمان بحسابات يحرصون على عدم نشرها، وسياسيون يعيشون على مقال في صحيفة، ومؤلفون أو فنانون لا يغادر نساخهم الحقائق؛ وعلماء مع أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن العلم على مثال سغانارل\* المتحدّث باللاتينية مع أولئك الذين يجهلون اللاتينية؛ رجال اصطاح على

\* سغانارل: شخصية في مسرحيات مولير.

منحهم قدرات في مجال ما، سواء في إدارة الفنون، أو في بعثات هامّة. ويبدو أن هذه العبارة العجيبة: هذا موضوع اختصاص قد أحدثت لهذه الأنواع من الرؤوس الفارغة السياسية أو الأدبية. وبقي شارل مدة طالت أكثر مما أراد، ولم يكن مسروراً لهذا الشعور بالاهتمام الشديد بامرأة، وما أحدثه وجودها من نقص للأفكار التي تصوّرها الدبلوماسي الشاب عند تأمله مظهر حفلة الرقص.

كانت المركيزة آنذاك في الثلاثين من عمرها، جميلة رغم نحولها الظاهر ورقة نقاطيعها تستمد جاذبيتها الكبرى من مظهر يكشف هدوؤه عن عمق روحي مذهش، فعينها تشعان بريقاً لكنه يبدو محتجياً بفتاح من فكرة ثابتة تتم عن حياة محمومة وإذعان تام لمشيئة القدر. وأجفانها مطأطئة بطهر إلى الأرض بشكل دائم تقريباً، ولا ترتفع إلا نادراً عنها، فإذا ألقت نظرات حولها فبحركة حزينة كأنها تحتفظ بألق عينها لتأملات خفية، وهكذا يشعر كل رجل سام بأنه منجذب بفضول نحو تلك المرأة اللطيفة الصامتة. وإذا أراد العقل أن يخمن غوامض ردة الفعل الدائمة التي ترتد من الحاضر نحو الماضي، ومن العالم إلى عزلتها، لن تكون النفس أقل اهتماماً بالإلام بأسرار قلب معتز، تقريباً، بالأمه؛ ومع ذلك فما من شيء فيها يكذب الأفكار التي تُسج حولها، وكجميع النساء ذوات الشعر الطويل، تقريباً، كانت تبدو شاحبة بيباض تام، وببشرة ذات نعومة فائقة<sup>(١)</sup>، هي عرض نادراً ما يخضع، يُعلن عن حساسية حقيقية تؤكدها طبيعة قساماتها المتميزة بهذا الكمال الرائع الذي يعبر عنه الرسّامون الصينيون في صورهم الخيالية؛ وربما كان عنقها أطول من المعتاد، لكن هذه الأشكال من الاعتناق هي الأكثر جاذبية، وتعطي لرؤوس النساء تماثلاً مبهماً مع تموجات الأقمى المغناطيسية لو لم توجد أكثر من ألف قرينة تكشف للملاحظ الطبايع الأكثر استنارة لكفاه أن يتأمل بعناية حركات الرأس، ولقنات العنق المتنوعة والمعبرة إلى أبعد الحدود ليحكم على طبع امرأة.

(١) وصف حولي دي إغلمون يذكر هنا المركيزة دي كاستري التي تودد إليها بلزك وحوال وبعدها لكنها صدته إنما استمر على صداقة فائرة معها.

ومرأى السيدة دي إغلمون ينسجم مع الفكرة السائدة عن شخصيتها، وضافت شعرها المحبوك بشكل عريض تشكل فوق رأسها تاجاً سامياً لا تختلط فيه أية زينة إذ يبدو أنها ودعت إلى الأبد الاستعانة بوسائل التجميل، لذلك لا تلاحظ لديها أبداً تلك الحسابات الصغيرة من الفنج التي تفسد كثيراً من النساء، ولكن أياً كانت بساطة صدارها فإنها لا يخفي أناقة قوامها، كما أن أبهة ثوبها الطويل تعتمد على تفصيل فائق التميز، وهو يبين مدى دقة الأفكار المبدولة في اختيار النسيج ورتيبه، حتى ليتمكن القول أن الطيات العديدة والسيطة فيه تصفي عليها علامة النبيل الكبيرة، غير أن مواطن الضعف المستعصية لدى المرأة قد تظهر في تلك العناية الفائقة التي توليها لقدميها ويديها، لكن إن كانت تظهرها ببعض سرور، فإنه يتعذر على أمكر منافسة لها أن تكتشف التكلف في حركانها التسمية بطابع لا إرادي، أو الناحجة عن عادات طفولية. وهذه البقية من غنج تلقى العذر لعدم مبالاة الطريقة. وهذه الكتلة من الملامح وهذه المجموعة من الأشياء الصغيرة التي تجعل المرأة دميعة أو جميلة، جذابة أو بغیضة، لا يمكن إلا أن تذكر خاصة وأن الروح لدى سيّدة كالمركيزة دي إغلمون تربط جميع التفاصيل وتطبعها بوحدة حلوة. كما أن تصرفها يتوافق تماماً مع قسما وجها ووضعها، فبعض النساء في عمر ما فقط، بعض النساء المتميزات يعرفن وحدهن أن يعطين لغة لظهورهن. أهو الشقاء، أهو الهناء، الذي يضي على المرأة في عمر الثلاثين، على المرأة المحظوظة، أو التعمية سرّ هذا المظهر المعبر؟ إنه دائماً لغز حقيقي يفسره كل واحد حسب رغبانه، أو أماله، أو أسلوبه، والطريقة التي أسندت فيها المركيزة مرفقيها على مسندي كنيها، وضمت أطراف أصابع كل يد فبدت كأنها تعزف على البيانو، وانحناء عنقها، والعقوية في إراحة جسمها التعب، إنما المرن حتى يبدو كأنه مثني بأناقة على الكرسي، وعدم التحفظ في مدساقها، واللامبالاة في وضعها وحركانها التي يبدو فيها السأم؛ كلها تكشف عن امرأة ملت الحياة، ولم تعرف أبداً مسرات الحب، لكنها حلمت بها، وهي تنحني تحت الأفتال التي ترهقها بها ذاكرتها: امرأة قنطت منذ مدة طويلة من المستقبل أو من نفسها. امرأة بطالة تُعدّ الفراغ عدماً. ونأمل شارل دي فاندنس بإعجاب هذه اللوحة الرائعة، إنما

كنتاج صُنع أكثر مهارة من نتاج النساء العاديات . فهو يعرف دي إغلمون، ومن النظرة الأولى التي ألقاها على تلك المرأة التي لم يرها من قبل، أدرك الدبلوماسي الشاب عندئذٍ عدم التناسب، أو بالأصح، التناقض بين هذين الشخصين وهو من القوة حتى ليتعذر على المركيزة أن تحب زوجها . غير أن السيدة دي إغلمون حافظت على سيرة فاضلة، وعفتها لا تزال تقيّم عالياً جميع الألفاظ العصية التي يمكن للملاحظ أن يستشفها في حبانها . وبعد أن تجاوز دي فاندنس أول مظاهر الدهشة التي عرته، فنش عن أحسن الوسائل للتصدّي لمخاطبة السيّدّة دي اغلمون، وبدءاً شائع تقريباً في الدبلوماسية، التزم أن يضايقها ليعرف كيف تقابل حماقة . قال وهو يجلس إلى قربها :

سيدتي، مصادفة فضول سعيدة، جعلتني أعرف، دون أن أعلم بأية صفة، أن الحظ قد حالني لأكون موضع التفاتة كريمة منك، وأنا مدين لك بالشكر لأنني لم أكن أبداً محطّ مثل هذه الحظوة . لذلك خذني بالحسبان أحد عيوبي ؛ فمن الآن وصاعداً، لن أكون أبداً متواضعاً . . .

قالت ضاحكة : أنت مخطئ، ياسيدي، فيجب أن تترك الزهو لأولئك الذين ليس لديهم شيء آخر يتباهون به .

بدأت عندئذٍ محادثة بين المركيزة والشاب، استعرضا فيها، حسب العادة، في مدة قصيرة، مواضيع متعددة : الرسم والموسيقى، والأدب، والسياسة، والناس، والأحداث والأشياء، ثم وصلّا إلى المنزل غير المحسوس المتعلق بالموضوع الأزلي في الأحاديث الفرنسية والأجنبية، الحب، والعواطف، والنساء .

قالت : إننا إماء .

قال : بل أنتن ملكات .

كانت العبارات المتبادلة بين شارل والمركيزة تنم عن ذكاء تقريباً ويمكن أن تختصر بذلك التعبير البسيط الذي ينطبق على جميع الأحاديث الحالية والمستقبلية الجارية حول هذا الموضوع؛ ألا تعني هاتان العبارتان دائماً القول في زمن محدد:  
- أحييني - سأجيك .

هتف شارل دي فاندنس بلطف: سيدتي، ستجعليني أتأسف بشدة على مغادرتي باريس، فأنا لن أجد، بالتأكيد، في إيطاليا ساعات يمثل روحانية هذه الساعة الحاضرة .

- قد تحظى بالسعادة يا سيدي، وهي أفضل من جميع الأفكار البراقة الحقيقية أو المزيقة التي تقال في باريس كل مساء .

قبل أن يحيي شارل المركيزة مستأذناً بالانصراف، حصل منها على إذن بزيارتها مودعاً قبل سفره . وعد نفسه سعيداً جداً لأنه أعطى لالتماسه الأسلوب اللائق بسلامة النية، خاصة وقد تعذر عليه، مساء عندما أوى إلى فراشه، وطوال نهار اليوم التالي أن يبعد ذكرى تلك المرأة عن خاطره . تساءل حيناً ما الذي دفع المركيزة إلى إيداء رغبتها في التعرف عليه . وما هي نواياه بنوره عندما طلب رؤيتها مجدداً . وخطرت له تبريرات متعددة لم تنقطع، واعتقد حيناً آخر الاهتداء إلى أسباب هذا الفضول؛ وانتشى عندئذ بالأمال أو فترت همته وفق التفسيرات التي علل بها تلك الأمنية المهذبة، المألوفة في باريس . تارة هي كل شيء، وتارة أخرى هي لاشيء . أخيراً أراد أن يقاوم الميل الذي يجذبه نحو السيدة دي إغلمون، لكنه ذهب إليها؛ إذ توجد أفكار تدعن لها دون أن ندركها: وهي فينا دون علمنا . ورغم أن هذه الحاضرة يمكن أن تبدو موهمة بالتناقض أكثر من الصحة، فإن كل شخص حسن النية يجد ألف برهان عليها في حياته . ويتوجه شارل إلى منزل المركيزة كان يدعن إلى أحد هذه الأفكار السابقة الوجود، ولن تكون خبرتنا واستمالات نفسنا إلا تطوراتها المحسوسة . فللمرأة في سن الثلاثين جاذبية لا تقاوم على شاب، ومامن أمر أكثر واقعية، وأشد متانة، وأحسن انسجاماً، من مودات عميقة يقدم العالم لنا كثيراً من



الأمثلة عنها بين امرأة كالمركيزة دي إغلمون ورجل مثل فاندنس والواقع أن الفتاة الشابة العزباء كثيرة الأوهام، عديدة التجربة، والجنس كثير الإغراء في الحب وبه يتمكن الشاب من أن يرضي زهوه، بينما تعرف المرأة مدى التضحيات المقدمة عليها. وحيث تكون الأولى منجذبة بالفضول، والإغراءات الغريبة عن إغراءات الحب فإن الثانية تلبى نداء عاطفة واعية. الأولى تستسلم، والثانية تختار؛ أليس في هذا الاختيار إطرأ فائق. أليست المرأة ذات الخبرة، المسلحة بمعرفة دفعت ثمنها غالباً بأوقات شقاء، تبدو وهي تستجيب للحب وكأنها تمنح أكثر من نفسها، بينما الفتاة العزباء جاهلة، ساذجة، لا تعرف شيئاً، ولا يمكنها إجراء أي مقارنة، أو تقييم، تقبلُ الحب وتتعلم، بينما المرأة ذات الخبرة تعلمنا، وتنصحنا في سن نحب فيها أن نتقبل الإرشاد، ونسرِّ بالطاعة<sup>(١)</sup>. الأولى تريد أن نتعلم كل شيء، وتبدو ساذجة في مجال تبدو فيه الأخرى غاية في الرقة. تلك لا تهين لك إلا انتصاراً واحداً، وهذه تلزمك بخوض معارك مستمرة. ليس للأولى إلا الدموع والمسرات، وللثانية الملدأت والندم. لتغدو الفتاة خلية يجب أن تكون في متهى الفساد، وتُهجر عندئذٍ باسمنزاز، بينما للمرأة ألف وسيلة للاحتفاظ بقدرتها وعزة نفسها. الأولى بنى لآخس معها بطعم الراحة والأخرى عسرت كثيراً فلا تطلب من الحب تحولاته المتعددة؛ العار يلحق بالأولى وحدها، أما الثانية فنقتل عائلة كاملة من أجلك. ليس للفتاة إلا تدلل واحد. وتعتقد أن كل شيء قد قيل عندما تتعمرى من ثيابها، أما المرأة فلا يحرص تدللها وهي تحتجب تحت ألف فناع؛ أخيراً هي تداعب كل مظاهر الزهو بينما تقتصر المبسدة على إرضاء مظهر واحد. لكن الخبرة والرغبة والمخاوف والاضطرابات والعواصف تتحرك لدى امرأة الثلاثين عاماً مما لا يصادف أبداً في حب الفتاة؛ وعندما تصل المرأة إلى ذلك العمر فإنها تطلب من الشاب أن يعيد لها التقدير الذي ضحت به من أجله، فهي لا تحيا إلا له، وتهتم بمستقبله، وتريد له حياة

(١) هذا يذكر بقرام بلزك بالنساء الأكبر عمراً منه فالسيدة دي برني تزده ٢٢ عاماً، والدوقة دابرنس أصغر منه بخمسة عشر عاماً.

جميلة، وتأمرة أن يجعلها مجيدة؛ وهي تطيع، وترجو، وتأسر، وتتواضع وتتسامى، وتعرف كيف تناسي في مناسبات عديدة حيث لا تعرف الفتاة إلا أن تنتهز. أخيراً، فإن المرأة في الثلاثين، عدا عن مزايا وضعها، يمكن أن تظهر كفتاة، وتلعب جميع الأدوار، وتبدو حيّة. وتزداد جمالاً حتى في الشقاء؛ وبين الاثنين ما لا يقاس من الفروق الممتدة من المتوقع إلى غير المتوقع، ومن القوة إلى الضعف. المرأة في الثلاثين تشبع كل الرغبات، والفتاة تحت طائلة ألا تكون، لا تشبع شيئاً. هذه الأفكار تنمو في قلب الشاب، وتشكل لديه أقوى الأهواء، لأنها العواطف المقتعلة المتولدة عن الطبايع إلى العواطف الحقيقية الناتجة عن الطبيعة. الدور الرئيس والحاسم في حياة النساء هو بالضبط ذلك الذي تنظر إليه امرأة دائماً كأنه عديم الشأن؛ فعندما تتزوج تفقد أثوثها، وتغدو ملكة وأمة المنزل العائلي. وقدسية النساء غير قابلة للتوفيق مع واجبات وحرمان المجتمع؛ فمنح النساء الحرية إفساد لهن، إلا يعني إعطاء غريب حق الدخول إلى حرّم العائلة القدسي الوقوع تحت رحمته؟ لكن ليس خطأ أن تحتذبه المرأة إلى ذلك الحرم، أو بتحري الدقة بداية الخطأ؟ يجب قبول هذه النظرية بكل صرامتها، أو الصفح عن الأهواء. وحتى الوقت الحاضر عرف المجتمع في فرنسا أن يتبع حداً متوسطاً ويسخر من المصائب. وكالإسبارطين الذين لم يكونوا يعاقبون إلا لرعونته، يبدو أن مجتمعنا قد ارتضى السرقة. لكن قد يكون هذا الأسلوب عاقلاً جداً؛ فالأزدراء العام بشكل أفضع العقوبات لأنه يصيب المرأة في القلب؛ فالنساء بحرصن، ويجب عليهن جميعاً أن بحرصن على أن يحظين بالاحترام، فدونه لا وجود لهن، وهكذا فأوك ما يطلبت في الحب رفع هذه العقوبة، والأكثر فساداً بينهن توجب، قبل كل شيء صفحاً عن الماضي بيعها مستقبلها، وتحاول أن تفهم عشيقها أنها تستبدل بمنع لا تقاوم الإكرام الذي حرّمها العالم منه؛ وما من امرأة تستقبل في منزلها لأول مرة شاباً وهي بمفردها معه إلا وتتصور هذه الأفكار خاصة إن كان مثل شارل دي فاندنس على قدر من الوسامة أو الذكاء؛ وبالمقابل فقلائل الشبان الذين لا نخالجهم بعض أمنيات خفية حول واحدة من آلاف الأفكار التي تبرز حبهم الفطري للنساء الجميلات، والنيهات والتعبسات مثل السيدة دي

إغلمون . وهكذا اضطريت المريضة عندما أعلن لها عند قدوم السيد دي فاندنس ، كما بدا على الشاب الخجل تقريباً رغم الثقة بالنفس التي تُعدُّ لدى الدبلوماسيين مألوفة كالبرية التي يتأنفون بها تقريباً . لكن المريضة اتخذت سريعاً ذلك المظهر الودود الذي تلتجى النساء إليه ضد تأويلات الزهو وهو مظهر يستبعد كل قصد خفي ويفسح المجال ، إن صح القول ، لإظهار العاطفة بتلطيفها ضمن أداب حسن الاستقبال والترحيب ، ويمكن للنساء أن يبقين ما شئن في ذلك الوضع المبهم ، كما على مفترق طرق يودي ، إلى الاحترام كما يودي إلى اللامبالاة أو الدهشة أو الهوى . وفي عمر الثلاثين فقط ، يمكن للمرأة أن تعرف مخارج هذا الوضع ، ويمكنها أن تضحك فيه ، وتغرح ، وتتلاطف بتودد ، دون تورط ؛ وهي تمتلك عندئذ البقاة الضرورية لتضرب على جميع الأوتار الحساسة عند الرجل ولتدرس الأصوات التي تحدثها وتستخلص النتائج . صمتها خطر ككلامها ، ولا يمكن أن تعرف أبداً في ذلك العمر إن كانت صريحة صادقة أو متكلفة متكتمة ، إن كانت تسخر أو تعبر عن نية سليمة في اعترافاتها . وبعد أن تمنحك حق الصراع معها ، تنهي المعركة فجأة بكلمة ، أو نظرة ، أو بإحدى هذه الحركات التي تعرف مدى قدرتها ، وتهمل موقفك لتبقى سيدة سرى ، وهي حرة في أن تضحى بك بدعابة ، حرة في أن تهتم محتمة في ذات الوقت بضعفها وبقرتك . وبالرغم من أن المريضة وضعت نفسها خلال هذه الزيارة الأولى ، على تلك الأرض المحايدة ، فإنها عرفت كيف تحتفظ برفعة المرأة السامية ، وكانت ألامها الخفية تخيم دائماً على مرحها المتكلف كسحابة خفيفة تحجب جزئياً أشعة الشمس . وخرج فاندنس بعد أن شعر في تلك المحادثة بمشع مجهولة ، لكنه بقي مقتنماً بأن المريضة هي إحدى أولئك النساء اللواتي يكلف غزو قلوبهن ثعناً غالباً قبل الاستجابة لميل الوقوع في حبهن .

قال في نفسه وهو يعاد المنزل : ستكون عاطفة على مد النظر ، ومراسلات ترهق رئيس ديوان طموح ! إنما إن أردت جيداً . . . هذه العبارة المشؤومة إن أردت جيداً أصاعت باستمرار المكابرين . فالاعتزاز بالنفس في فرسة يقود إلى الهوى . وعاد شارل إلى زيارة السيدة دي اغلمون وبدا له أنها تشعر بالارتياح لمحادثة ؛ وبدلاً

من أن ينصرف بيراة إلى الاستمتاع بالحب، أراد أن يلعب دوراً مضاعفاً، فجرب أن يظهر مغرماً على أن يحلّل بيروود سير هذه الخدعة، أن يكون عاشقاً ودبلوماسياً، لكنه شاب وشهم، وهذه المحاولة يمكن أن تقوده إلى حبّ لا حدود له، فالمركية مخادعة كانت أو طبيعية هي دائماً أقوى منه. وفي كل مرة يخرج فيها شارل من زيارة السيدة دي إغلمون يزداد اقتناعاً بشكوكه، ويسلط على الأوضاع التدريجية التي تمرّ فيها روحه تحليلاً قاسياً يقتل انفعالاته الخاصة.

قال في نفسه بعد الزيارة الثالثة: أفهمتي هذا اليوم أنها نعيمة جداً، ووحيدة في هذا العالم، وأنها تتحرق شوقاً للموت، لولا وجود ابنتها، كانت مستكنة تماماً للقدر، والحال أنني لست أخاصها ولا كاهن اعترافها، فلماذا تسرّلي. بهمومها؟ إنّي تحبني. وبعد يومين، وأثناء ذهابه لزيارتها انتقد التقاليد الحديثة قائلاً:

ياخذ الحبّ كون كل عصر، فهو في العام ١٨٢٢<sup>(١)</sup>، مذهبي، وقيل أن ينشبت، كما في السابق، بالوقائع، يُناقش، ويُحَثّ تفصيلاً، ويخطب عنه على المنابر، وتردّ مواقف النساء فيه إلى ثلاث وسائل: فهنّ أولاً يطرحن على بساط البحث هواناً، ويرفضن الاعتراف بقدرتنا على الحبّ بقدر ما يحبّين. غنج! وتحدّ حقيقي واجهتني به المركية هذا المساء. ثمّ أنهنّ يبدون تعيسات جداً ليشرن شهامتنا الطبيعية، أو عزة نفسنا؛ ألا يزهو الرجل في مواساته شقية كبيرة؟ أخيراً فإن لديهنّ هوس البكارة! إنّها تنزع إلى التفكير بأنني أعتقد أنها ماتزال في غمام جدتها، وسلامة طويّتي يمكن أن تغدو مضاربة فائقة.

وفي أحد الأيام بعد أن استنفذ شكوكه، تساءل إن كانت المركية صادقة، وإن كان يمكن لمثل هذه الألام أن تحدث، ولماذا التظاهر بالاستكانة؟ كانت تحبني في عزلة عميقة، وتفترس بصمت أحزانها فلا يمكن تخمينها إلا بالانتباه الدقيق إلى أهة مكبوتة تقريباً. ومنذ تلك اللحظة أبدى شارل اهتماماً كبيراً بالسيدة دي إغلمون؛

(١) نتمج إلى كتاب سندان: «من الحب» الذي ظهر في العام ١٨٢٢.

غير أنه بحضوره إلى موعد معتاد غذا ضرورياً لكل منهما وتحدد وقتة تلقائياً بالفطرة، وجد حبيته مأكرة أكثر منها صادقة، وكانت فكرته الأخيرة:

- هذه المرأة بارعة جداً بالتأكيد. ودخل فرأى المريضة في وضعها المفضل، وضع نكتفه الكأبة، ورفعت نحوه عينها دون أن تبدي أية حركة، وألقت عليه إحدى هذه النظرات المتأملة الأشبه بالابتسامة. كانت السيدة دي إغلمون تعبر عن ثقة، وعن صداقة حقيقية، لكن ليس عن حب. وجلس شارل ولم يستطع أن يتفوه بكلمة، كان تحت تأثير أحد هذه الانفعالات التي تعجز اللغة عن التعبير عنها.

قالت له بصوت رقيق: مالك؟

- لاشيء ثم استدرك: بلى، أفكر بشيء لم يخطر أبداً على بالك.

- وماهو؟

- ولكن... إن المؤتمر قد انتهى.

- إيه! هل كان عليك أن تذهب إلى المؤتمر؟

الجواب المباشر والمناسب هو التصريح العاطفي الأكثر فصاحة ودقة؛ لكنه لم يبد من شارل. فعلامح السيدة دي إغلمون تنطق بصداقة بريئة تحطم كل حسابات الزهو، وجميع آمال الحب، وجميع آرتيبيات الدبلوماسية. كانت تجهل أو بدت أنها تجهل كلياً ما يكته لها من حب واضطر شارل أن ينطوي على نفسه مرتبكاً وأن يعترف ضمناً بأنه لم يفعل ولم يقل شيئاً يتيح لتلك المرأة الشعور بحبه. ووجد السيد دي فاندنس المريضة خلال تلك الأمسية كما هي دائماً: بسيطة، متوددة، صادقة في ألقها، سعيدة لأنها وجدت صديقاً، معترزة بلفانها روحاً تعرف كيف تفهم روحها، لكنها لم تذهب إلى أبعد من ذلك، ولم يفترض أن امرأة تسمح بتعرضها للإغواء مرتين؛ لكنها عرفت الحب وهي تحتفظ به دامياً في صميم قلبها، وهي لا تتصور أن السعادة يمكن أن تحمل لامرأة نشوتها مرتين، لأنها لا تؤمن فقط بالنفس وإنما بالروح، والحب بالنسبة لها ليس إغراءً وغم أنه يتضمن كل الإغراءات النبيلة. في تلك

اللحظة غدا شارل شاباً يافعاً، وسيطر عليه ألق هذا الخلق الكبير، وأراد أن يكلم بجميع أسرار تلك الحياة التي أذبلتها المصادفة أكثر من الخطأ. ولم تلق السيدة دي إغلمون إلا نظرة على صديقها وهي تسمعه يطلب منها أن تصارحه بسر هذا الغم الذي يضفي على جمالها كل هذه التناسقات من الحزن. لكن هذه النظرة العميقة كانت كختم عقد مهيب. قالت:

- لا تطرح عليّ أسئلة ماثلة، في مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنوات، مات الرجل الذي أحببته، الرجل الوحيد الذي كنت مستعدة أن أصحي حتى بمكانتي في سبيل إسماعه. مات ليتخذ شرفي. نوقف هذا الحب فتياً، نقياً، ملؤه الأوهام، قبل أن استسلم لهوى يدفعني إليه قدراً مشبهاً له، كنت قد أغويت بما يفضل العديد من الفتيات، برجل تافه لكنه مليح الشكل، وعمرى الزواج أمالي وأسقطها واحدة بعد أخرى. وقد فقدت الآن السعادة الشرعية، وهذه السعادة المسماة جرمية دون أن أعرف طعم السعادة. ولم يبق لي شيء. وإذا لم أعرف أن أموت فيجب أن أبقي أمانة لذكرياتي.

لم تيك بعد هذه الكلمات لكنها طأطأت بصرها ولوت قليلاً أصابعها بعد أن صالبتها بحركتها المألوفة. قالت هذا ببساطة، لكن نبرة صوتها كانت تنطق بقنوط بمثل العمق الذي يبدو في حبها، ولم تترك أي أمل لشارل. هذه الحياة المروعة المعبر عنها بثلاث جمل، والمفسرة بليّ أصابع اليد، وذلك الألم الشديد تعانیه امرأة ضعيفة، وتلك اللجة يفرق فيها رأس جميل؛ وأخيراً الكآبات، ودموع حداد ثلاث سنوات سحرت فاندنس، الذي بقي صامتاً وصغيراً أمام هذه المرأة الكبيرة والنبيلة: لم بعد يرى المفاتن المادية على روعتها وتماها، إنما الروح في متهى حساسيتها. صادف أخيراً تلك المخلوقة المثالية التي طالما حلّم بها خيالياً، وناداهها بقوة جميع أولئك الذين يرهنون حياتهم لهوى يبحشون عنه بحرارة، ويموتون غالباً دون أن يستطيعوا الاستمتاع بحميم كنوزه المرجحة.

وجد شارل، عند سماعه هذه اللغة، وأمام ذلك الجمال السامي، أفكاره محدودة. وأمام عجزه عن إيجاد الكلمات المناسبة لمقام هذا المشهد المتميز في أن واحد بالبساطة والرفعة، أجاب بعبارة مبتذلة حول قدر النساء، وقال:

سيدتي، يجب أن تعرفي كيف تسين الأملك، أو تحفرين لك قبراً.

لكن العقل يبقى ضعيفاً أمام العاطفة، فهو بشكل طبيعي محدود ككل شيء، إيجابياً، أما العاطفة فلانهائية. المحاكمة عقلياً في موقف يقتضي الشعور عاطفياً خاصة نفوس دون سعة في قدراتها لذلك لزم فاندنس الصمت، وتأمل طويلاً السيدة دي إغلمون، وخرس وقد تملكته أفكار جديدة تعظم المرأة. فكان أشبه برسام اقتصرت لوحاته على نماذج محترفة العادية، ثم صادف فجأة منموزين\* المنحرف.

أجمل التماثيل القديمة وأقلها تقديراً. وأحسن شارل بهيام عميق. فهو يحب السيدة دي إغلمون بتلك النية الصادقة المعيزة للشباب، وذلك الورع الذي يمنح الأهواء الأولى ظرفاً لا يوصف، والظهر الذي لا يجده الرجل إلا أنقاصاً عندما يحب مرة أخرى فيما بعد: أهواء عذبة تشذوقها النساء اللاتي يولدنها بحلاوة دائماً لأن الثلاثين، هذا العمر الرائع هو قمة الشاعرية في حياة المرأة، ويمكنها أن تتقبل فيه كل المغازلات، وأن تنظر إلى الماضي كما تنظر إلى المستقبل؛ فالنساء يعرفن عندئذ كل قيمة الحب ويستمتعن به خشية أن يفقدنه: وهن ما يزلن عندئذ بجمال روح الشباب الذي يبدأ بهجرهن بينما يشتد الهوى باستمرار أمام مستقبل يروعهن.

قال فاندنس في نفسه وهو يفادر منزل المركيزة: وقعت في الحب هذه المرة، ولسوء حظي أجد من أحبها امرأة متعلقة بالذكريات؛ والصراع صعب ضد ميت لم يعد موجوداً، ولا يمكنه أن يرتكب حماقات، لا يسبب كدراً أو تنغيصاً ولا يبقى منه إلا مزايا الطيبة. أليس تحية للكمال عن عرشه محاولة القضاء على مفاتن ذكريات

\* منموزين Mnémosyne: في الميثولوجيا الإغريقية ابنة أورانوس (السماء) وربة الذاكرة وأم زيات الفنون

(م المترجم).

وأمال استمرت حية بعد فقد العاشق لأنه بالضبط لم يوظف إلا الرغبات وهي الأجل  
والأكثر إغراءً في الحب؟

هذه الفكرة الحزينة الناتجة عن القنوط والخشية من عدم النجاح وهما بداية  
جميع الأهواء الحقيقية كانت الحساب الأخير لدبلوماسية دي فاندنس المنلاشية .  
ومن حينها فقد مقاصده الخفية ، وغداً العبة الحبّ وصلّ في توافه هذه السعادة المبهمة  
التي تتعلل بكلمة ، ولحظة صمت ، وأمل غامض . وأراد أن يحبّ أفلاطونياً ، وأن  
بأني كل يوم يتنفس الهواء الذي تستشقه السيدة دي إغلمون ، ويلزم تقريباً منزلها ،  
ويرافقها إلى كل مكان بتسلط الهوى الذي يضم الأثرة والإبشار المطلق . وللحبّ  
غريزته ، وهو يعرف أن يجد طريقه إلى القلب كما تسيير أضعف الحشرات نحو  
زهرتها بإرادة لا تقاوم دون أن ترتعب من شيء . وكذلك فعندما تكون العاطفة  
حقيقية فإن قدرها غير مشكوك فيه . لكن ألا تتعرض المرأة لكل الهموم الرهيبة إن  
فكرت أن حياتها تتعلق تقريباً بالحقيقة ، والقوة ، والاستمرارية التي سيضعها عشيقها  
في رغباته؟! والحال أن من المتعذر على امرأة ، أو زوجة ، أو أم أن تحتريز من حبّ  
شاب ، والشيء الوحيد الذي يمكنها القيام به هو عدم الاستمرار في رؤيته من اللحظة  
التي تخمن فيها هذا السر الكامن في القلب ، والمرأة قادرة على الكشف عنه دائماً .  
لكن هذا الإجراء يبدو حاسماً جداً حتى ليصعب على المرأة اتخاذه في عمر يشغل فيه  
الزواج عليها ويتعبها ويسبب لها الملل ، وعندما تغدو العاطفة الزوجية فاترة جداً ،  
دون أن يكون الزوج قد هجرها . إن كانت النساء دسيمات فباتهن يزهنون بحبّ  
يجعلهن جميلات ؛ أمّا الشباب الظريفات فباتهن يأملن بإغراء واسع على قدر  
إغراءاتهن ؛ وأمّا الفاضلات الورعات ، فنتابهن عاطفة أرضية سامية ليجدن ما لا  
أعلم من غفران يتناسب مع كبير التضحيات التي يبذلنها لعشيقهن وللظفر في ذلك  
الصراع الصعب ؛ وكل ما فيه شرك ، لذلك ما من درس يصل في قوة تعاليمه إلى  
مجاهاة تلك الإغراءات الشديدة . والانعزال الذي كان يفرض على المرأة سابقاً في  
اليونان والشرق والذي غداً موضة في إنكلترة هو الحامي الوحيد للأخلاق  
المنزلية . ولكن في ظلّ هذا النظام فإنّ مباح العالم تزول : فلا المجتمع ، ولا  
التهذيب ، ولا أناة الطابع ممكنة عندئذ ، وعلى الأم أن تختار .



وهكذا فبعد عدة أشهر من أول لقاء لهما، وجدت السيدة دي إغلمون حياتها مرتبطة بشكل وثيق مع حياة دي فاندنس؛ ودهشت دون كثير من الارتباك وبعض مسرة تقريباً في مشاركته الأذواق والأفكار. هل تبنّت أفكار فاندنس، أو أن فاندنس إتلف مع أقل نزواتها؟ لم نتحرر عن ذلك. كانت تلك المرأة الرائعة التي سبق لها أن أسافت مع تيار الهوى تقول في نفسها بحسن نية يزيّفها الخوف: «اوه! كلا! سأبقى أمانة للشخص الذي مات من أجلي».

قال باسكال: الشك بالله يعني الإيمان به. كذلك المرأة لا تتمتع إلا عندما تقع في الشبّك. وفي اليوم الذي اعترفت فيه المركيزة بأنها محبوبة كانت تعوم بين آلاف العواطف المتضاربة؛ فتشاؤمات التجربة تنطق بلغتها. أنتكون سعيدة؟ هل يمكن أن تجد السعادة خارج القوانين التي أقام عليها المجتمع، خطأ أو صواباً، أسسه الأخلاقية؟ حتى الآن لم تقدم لها الحياة إلا المرارة، فهل يوجد حل سعيد يمكن للروابط التي تضمّ كاتين منفصلين باللباقات الاجتماعية؟ ولكن هل تكلف السعادة أيضاً ثمناً عالياً جداً؟ ثم هل يمكن لها أن تصادف أخيراً هذه السعادة المرغوبة بكل هذه الحرارة والتي كان من الطبيعي أن تسمى إليها؟! إن الفضول يشهد دائماً لمصلحة العشاق، وفي خضمّ هذا النقاش السري الخفي حضر فاندنس، فتلاشى بوجوده شبح العقل المتأفزيقي؛ ولئن كانت هذه هي التحولات المتابعة التي تمرّ بها العاطفة، وإن كانت سريعة، لدى شاب وامرأة في الثلاثين من العمر، فستأتي لحظة تنصهر فيها الفروق وتنتهي الحجج إلى استدلال واحد، وتفكير أخير يختلط بالرغبة ويعززها. وكلّما كانت المقاومة طويلة، كلّما كان صوت الحبّ قوياً. هنا ينوقف إذن هذا الدرس، أو بالأحرى هذه الدراسة للمجبرة على المسلوخ<sup>٥</sup>، إن كان من المسموح الاستعارة من الرسم أحد تعابيرهِ الأكثر روعة، لأن هذه القصة تشرح أخطار وآلية

• المسلوخ Eourché: صورة أو تمثال محتم لإنسان يتخذ كنموذج يرسمه طلاب الفنون الجميلة (م. المترجم).

الحب أكثر مما تصوّره . ولكن منذ تلك اللحظة يضيف كلُّ يوم ألوأناً إلى هذا الهيكل العظمي، ويكسوه بمحاسن الشباب، وينضّر الجسد فيه، ويحيي الحركات، ويعبده. اليريق والجسمال وإغراءات العواطف وجواذب الحياة . وجد شارل السيّد دي إغلمون مستغرقة في التفكير ؟ وعندما قال لها بتلك اللهجة التفاضّة التي جعلها سحر القلب الرائع مقنعة : ما لك؟ احترست من الجواب . كان ذلك الطلب الناعم يتمّ عن نفاهم روي تام ، وبغريزة المرأة الرائعة أدركت المركيزة أن الشكاوي أو التعبير عن الشقاء الحميم سيعدُّ بطريقة ما نوعاً من المراودة، وإن كانت سابقاً، كلُّ من كلماتها لها مدلولها المحدّد لدى كلِّ منهما، ففي آية لجة يمكن أن تضع قدميها؟ وأدركت بنظرة واضحة جليّة ما يجول في خاطرها فصمتت وقلّدها فاندس في صمتها .

قالت أخيراً وهي مذعورة من المرامي العالية للحظة تتمكن فيها لغة الأعين من أن تعوّض تماماً من عجز الكلام : إنني متألّمة .

أجاب شارل بصوت ودود لكنه متأثر بعنف : سيدي، للجسد والروح قدرة، بالسعادة تغدين شابة نضرة . لماذا ترفضين أن تطلبي من الحبّ ما كان قد حرّمك منه؟ أنت تعتقدين أن الحياة انتهت في اللحظة التي يجب أن تبدأ بالنسبة لك . نقي بعناية صديق . كم هو عذب أن يكون الإنسان محبوباً!

قالت : إنني عجوز الآن، وما من عذر لي إذن إن لم استمرّ في الألم كما في الماضي . أنقول إن عليّ أن أحبّ؟ إيه! لست ملزمة، ولا أستطيع؛ فما عدك، أنت الذي تسكب صداقتك بعض الحلاوة في حياتي، لا يعجبني أحد، ولا يعرف أحد أن يحو ذكرياتي، إنني أرضى بالصديق، وأهرب من العشيق . ثم أمنّ الشهامة أن أقدم قلباً ذابلاً لمن يعطيني قلباً شاباً، وأستقبل أوهاماً لا أستطيع المشاركة فيها، وأسبّب سعادة لا أؤمن بها أبداً أو أخشى أن أفقدها؟ قد أجيب بانانية رداً على تضحية الحبيب، وبحساب مني على عاطفة منه، وذاكرني تجرح حيوية مسرّاته . كلاً، إن الحبّ الأول لا يمكن استبداله، كما ترى . أخيراً أيّ رجل يقبل قلباً بهذا الثمن؟ .

هذه الكلمات المنطبعة بغنج رهيب كانت آخر جهود التعقل - إيه ! إن نبطت عزيمته فسأبقى وحيدة وأمنية . وردت تلك الفكرة على قلب تلك المرأة ، فكانت بالنسبة لها كما غصن السوحر الضعيف جداً يمك به غريق قبل أن يجرفه التيار . ويسماع هذا القرار أفلتت من فاندنس ارتعاشه لا إراديه ، كانت على قلب المركيزة أشد قوة من جميع مبادراتها السابقة . ما هو أكثر تأثيراً على النساء هو أن يصادفن فينا أحاسيس رقيقة وعواطف مرهفة بقدر مالديهن منها ، ذلك أن الرقة والإحساس بالنسبة لهن قران الصدق . وحرمة شارل تكشف حياً حقيقياً . والسيدة دي إغلمون تعرف قوة عاطفة فاندنس مقارنة بقوة ألمها . قال الشاب بيروود : ربما كنت على حق ، فالحب الجديد ، هم جديد . ثم غير موضوع الحديث ، وتطرق إلى مواضيع مختلفة ، إنما بدا عليه بشكل ظاهر التأثير ، ونظر إلى السيدة دي إغلمون بانتباه مركز ، وكأنه ينظر إليها لأخر مرة . وأخيراً تركها وهو يقول لها بانفعال :

- وداعاً يا سيدتي .

قالت بذلك الدلع الماكر الذي تعرف سره نساء النخبة فقط : إلى اللقاء . لكنه لم يجب وخرج .

بعد أن خلا مكان شارل ، وتكلمت كرسيه الفارغة نيابة عنه ؛ أحست بألف أسف ، ووجدت أخطاءها كثيرة . فالهوى يجري تقدماً هائلاً في اللحظة التي ظنت فيها أنها تصرفت بقليل من الكرم أو أنها جرحت روحاً نبيلة . لا يجب أبداً الاحتراس من العواطف السيئة في الحب فهي نافعة جداً ، والنساء لا يرحزن إلا تحت وطأة القضيلة ، والقول المأثور : الجميم مرصوف بالنوايا الطيبة ليس مفارقة واعظ . انقطع فاندنس عن زيارة المركيزة عدة أيام ، وكانت في كل أمسية ، في الموعد المعتاد تنتظره بفارغ الصبر المغلف بنبكت الضمير . والكتابة له اعتراف ؛ عدا عن أن غريزتها تحدثها بأنه سيعود . وفي اليوم السادس أعلن لها الخادم وصوله ، فنلت سماع اسمه بسرور لا مثيل له من قبل . وذعرت لفرحها .

قالت له : عاقبتني جيداً .

نظر إليها فاندنس كالأبله وردد: عاقبتك على ماذا؟

فهم شارل جيداً مانعنيه المركيزة، لكنه أراد الانتقام للألام التي عاناها، في لحظة اشتبهت فيها بالامه .

سأله مبتسمة : لماذا لم تحضر لرؤيتي؟

قال متجنباً الجواب المباشر : ألم يأت أحد لزيارتك؟

- جاء السيد دي رونكروول، والسيد دي مارسى، ودي اسغرينيون؛ زارني الأوك البارحة، والأخر هذا الصباح وبقي لمدة ساعتين . وقد رأيت على ما أظن السيدة فيرمباني، وأختك السيدة دي ليستومير .

عذاب آخر! وألم لا يفهمه أولئك الذين لا يعانون الحب بتلك الاستبدادية الشرسة المكتسحة، وأقل آثارها غير رهيبة، ورغبة مستمرة في إبعاد المحبوب عن كل تأثير غريب عن الحب .

قال فاندنس في نفسه : ماذا! لقد استقبلت ورات أشخاصاً مرحجين، وتحدثت معهم بينما بقيت وحيداً، تعبساً .

أخفى حزنه وكتب حبة في أعماق قلبه كنعش ملقى في البحر، وطفغ عليه أفكار من تلك التي لا يعبر عنها، ولها سرعة تلك الحموض التي تقتل بتبخرها غير أن جبينه اكفهر كسما غطتها السحب، واستجابت السيدة دي إغلمون لغريزة المرأة، فشاركته ذلك الحزن دون أن تفهمه، فهي لم تكن تفهم الإساءة، ولاحظ فاندنس ذلك، فراح يتحدث عن وضعه وغيرته وكأنها إحدى هذه الغرضيات التي يحلو للعشاق مناقشتها . وأدركت المركيزة كل شيء، وتأثرت إلى درجة لم تستطع فيها أن تحبس دموعها؛ ومنذ تلك اللحظة حلقت في سموات الحب . أليست السماء وجهنم قصيدتين كبيرتين تصوغان نقطتين وحيدتين يدور حولهما وجودنا: السرور أو الألم . ألم تكن السماء، وستكون دائماً، صورة لانهاية عواطفنا التي لن تُصور إلا في تفاصيلها لأن السعادة واحدة؛ ألا تمثل جهنم العذابات اللانهائية لآلامنا التي يمكن أن تصاغ فصيده لأنها متباينة كلياً؟

ذات مساء كان العاشقان وحدهما، جالسين أحدهما إلى جانب الآخر في صمت، منشغلين في تأمل أحد أجمل أطوار القبة الزرقاء، إحدى هذه السموات النقية التي تلقي عليها أواخر إشعاعات الشمس ألواناً ذهبية وأرجوانية ضعيفة. في تلك الأونة من النهار، يبدو أن تدرجات النور البطيئة توقف العواطف الحلوة، فمشاعرنا تهتز باسترخاء، ونستمع بإثارات عنف لا يدرك كنهه وسط الهدوء؛ فالطبيعة تدعونا، وهي تظهر لنا السعادة بصور مبهمة، للتمتع بها ما دامت قريبة منا، أو أننا سنأسف على مسافات عند هروبها.

في تلك اللحظات الخصبية بالمفاتيح، وتحت قبة ذلك الألق الذي تتحد تناسقاته المرهفة مع الإغراءات الحميمية، تصعب مقاومة أمنيات القلب البالغة السحر! وعند ذلك يكلل الحزن، ويُسكِر الفرح، ويُرهِق الألم، وتشجع أبهات المساء على الاعترافات وهي إشارة لها، ويغدو الصمت أكثر خطراً من الكلام بيته في الأعين كل قدرة لانهاية السموات التي يعكسها. فإذا دار الحديث، تمتلك أقل كلمة قدرة لا تقاوم. اليس في الصوت نورٌ عندئذ، وفي النظرة لونُ الأرجوان؟ ألا تبدو السماء وكأنها حلت بنا، أو أننا نبداً وكأننا في السماء؟ غير أن فاندنس وجولبيت، إذ أنها أحببت منذ بضعة أيام أن تُنادي بهذا الاسم دون تكلف من قبل من راق لها أن تسميه شارل، كأننا يتكلمان لكن الموضوع الأوكي في حديثهما بعيد جداً عنهما، وهما لا يدركان معنى عبارتهما إنما يستمتعان بالأفكار الخفية التي تغطيها، وكانت يد المركبة في يد فاندنس وهي مطمئنة إلى أنها لا تمنحه بذلك أية حظوة.

انحنى الاثنان معاً ليتأملًا أحد هذه المشاهد الجلييلة، والتلج والجليد والظلال الرمادية تلون سفوح الجبال الخيالية؛ إحدى هذه اللوحات الممتلئة بالتعارضات بين عموجات أنوار الغسق الحمراء، ودكنة السحب السوداء التي تزين السموات كفضيدة عابرة لا يمكن تقليدها؛ أقماط رائعة تزر الشمس، أو كفن جميل تحتضر فيه أشعتها. في تلك اللحظة لامست خصلات من شعر جولبيت خدي دي فاندنس؛ وأحسّت بهذا التماس الخفيف، فارتعشت بعنف، وكانت ارتعاشة دي فاندنس أعنف، لأن

كلأ منهما قد وصل بالتدرّيج إلى إحدى تلك الأزمان التي لا يمكن تعليلها حيث يضيء الهدوء على الحواس إدراكاً دقيقاً جداً حتى أن أضعف الصدمات تدفع إلى انهيار الدموع وتفجّر الحزن، إن كان القلب غارقاً في هذه الكابات . أو أنها تمنحه مسرآت لا توصف إن كان يسرح في دوار الحب . وضغلت جوليت بشكل لا إرادي تقريباً على يد صديقها . ومنح هذا الضغط الموثوق الشجاعة لحجل العاشق . فانصهرت مسرآت تلك اللحظة وأمال المستقبل في انفعال هو أوك تودّد تجلّى في قبلة طاهرة متواضعة استقبلتها السيّدة دي إغلمون على وجتها . لكن كلما كان الإنعام ضعيفاً بدا أكثر قوة وأشدّ خطراً، ولتعاستها لم يكن فيه نظاهراً ولا نفاقاً، إنّما هو تفاهم وروحين جميلتين، تفصل بينهما كل الشرائع، بينما توحدهما كل إغراءات الطبيعة .

في تلك اللحظة دخل الجنرال دي إغلمون، وقال : تغيرت الوزارة، وعمك هو أحد أعضاء التشكيلة الجديدة، وهكذا فتحظك كبير في أن تسمى سفيراً يا فاندنس .

تبادل شارل وجولي النظرات وقد تورّدت وجتاهما، وكان خجلها المشترك رابطة أخرى تضمهما . طرأت لكليهما الفكرة ذاتها وتبكيّت الضمير ذاته ؛ رابطة رهيبه أقرب بقوتها إلى مشاركة قاطعي طريق في قتل رجل، منها إلى موقف عاشقين تبادلوا قبلة . لكن كان على فاندنس إجابة المركيز ، فقال :

لكنني لا أريد مغادرة باريس .

عقب الجنرال مبدياً حذق الرجل الذي يكتشف سرّاً : إنك لا تريد الابتعاد عن عمك ليسميك وريثاً لمنصب العين الذي يشغله .

لجأت المركيزة إلى غرفتها وهي تقول في نفسها تلك الكلمة الرهيبه عن زوجها : إنه أيضاً أحمق كبير .

## IV

### إصبع الله

ما بين حاجز إيطالية وحاجز الصحة على الجادة الداخلية، المؤدية إلى حديقة النباتات في باريس، يوجد منظر جدير بأن يسحر الفنان وحتى المسافر غير المبالي بمتعة المشاهدة، فإذا وصلتكم إلى إحدى الروابي الصغيرة التي تبدأ عندها الجادة، المظلمة بالأشجار الكبيرة المورقة، بالالتفاف على جمال أحد الممرات الحراجية الخضراء والصامتة، تصادفون أمامكم، على الحواف الممتدة عند أقدامكم وادباً عميقاً تنتشر فيه مصانع نصف قروية، وتتناثر فيه الخضرة، وتسقيه مياه البيفر<sup>(١)</sup> أو الغوبلنز العكرة، وعلى السفح المقابل بضعة آلاف من السطوح المتراسة كرزوس جماهير متزاحمة، وهي تكشف عن بؤس ضاحية سان-مارسو، وقبة البانتيون الرائعة، مع قبة قال-دي-غراس القائمة الكثيرة تهيمنان بزهو على مدينة كاملة بشكل مدرج ترسم درجاته شوارع متعرجة بأشكال غريبة، ومن هناك تبدو نسب هاتين الأبدتين عملاقة؛ تسود في ذات الوقت على المساكن الهزيلة وعلى أشجار الحور في الوادي الصغير؛ وإلى اليسار، المرصد، الذي يخترق نوافذه، وأروقه النور محدثاً بهرجات لا تُفسر؛ وهو يبدو كطيف أسود معروق. ثم على البعد مصباح الإنقاذ الأنيق يتوهج بين كتل أبنية اللوكسمبورغ المزرقّة وأبراج سان بوليس الرمادية؛ مناظر تختلط فيها الخطوط المعمارية، مع خضرة الغصون، وهي تخضع لتزوات سماء يشغير لونها، أو نورها، أو مظهرها دون انقطاع، وعلى مسافة منك، تغطي الأبنية

(١) البيفر Bièvre: بنح نهر بيفر من فرساي قرب سان سير، ويصب في السين بواسطة فراهين ما بين

محطة أوستر لينز ونصر بوربون، وهو بطول نحو ٤٠ كم.

المساحات، ومن حولك تلوى صفوف الأشجار المتموجة وشعاب الدروب الريفية. وعلى الجهة اليمنى، ترون في فريضة عريضة ساطق قناة سان مارتن الأبيض الطويل، وقد أحاطت بها أحجار ضاربة إلى الحمرة، وتزينها أشجار الزيزفون، وتحف بها منشآت رومانية حقيقيّة تشكّل عتابر الخصب، وفي اللوحة الخلفية هضاب بلقبيل الغارقة في الضباب، والحافلة بالنازل والطواحين، وهي تمزج تضاريسها مع موجات السحب. غير أن مدينة نوجد غير مرئية بين صفوف السطوح المحيطة بالوادي، وهذا الأفق اليهم كذكرى طفولة. مدينة واسعة تانهة بين قسم هضاب «الرحمة» وأعلى مقبرة «الشرق»، بين العذاب والموت، وهي تسمع هبنة صماء أشبه بهدير المحيط خلف جرف جبلي. كأنه يقول: إنّي هنا. وعندما تسكب الشمس دفقات أشعتها على هذا الوجه من باريس، وتغني الحطوط فيها وتمبّعها، وتضيء الواجهات الزجاجية، وتبهج الأجر، وتوهج الصلبان المذهبة، وتبيّض الجدران، وتحوّل الجو إلى غلالة شفافة، وعندما تخلق نباتات ثريّة مع الظلال الخيالية وتتحول السماء إلى لآزورد، وترتعش الأرض، وتكلم الأجراس، عندها ستأملون باعجاب إحدى هذه الروائع المثررة التي لا نساها الخيكة أبداً، بل ستهيمون بها بورع كأنها إحدى أعاجيب نابولي أو استبول أو فلوريدا<sup>١</sup>، فهذا التوافق لا ينقصه أي انسجام، فهنا يتمتم ضجيج العالم، وسلام العزلة الشاعرى، وصوت ملايين الكائنات وترنمة الله، هنا ترقد عاصمة بين أشجار سرو مقبرة الأب لاشيز.

في صباح يوم ربيعي، وفي اللحظة التي تلمّع فيها الشمس كل مفاتن هذا المنظر التي كنت أنأمكها بإعجاب وأنا مستند إلى جذع شجرة دردار ضخمة ترسل مع الريح أزهارها الصفراء، ومع مظهر هذه اللوحات الثرية والسامية، كنت أفكر بمرارة بازدرائنا لبلادنا في الوقت الحاضر حتى في الكتب التي ندرسها. ولعننت هؤلاء

١ بيسر بلزاق عن إعجابيه بشبه جزيرة فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية ويعدّها بمتجمعاتها البحرية «إبامبي وباليم بيتش» مدينة واحدة.



الأغنياء المساكين الذين اشمأزوا من وطننا الفرنسي الجميل فذهبوا يشترون بسعر ذهبي حتى الاستهانة بوطنهم وهم يزورون على عجل ، ويفحصون عبر المناظير مواقع البلاد الإيطالية التي غدت مبتذلة . وتأمّلت بهيام باريس الحديثة ، وسرحت في حلم ، وسمعت فجأة ضجة قبلة عكّرت وحدتي وأطارت أفكارني الفلسفية . وفي المرآة الجانبية الذي يتوّج السطح الشديد الميل الذي ترتعش المياه في أسفله ، اكتشفت وأنا أنظر إلى ماوراء جسر غوبلتر امرأة بدت لي أنها ما تزال شابة وهي في هندام بسيط غاية في الأناقة وقد عكّس مظهرها الناعم بهجتها السعيدة بجمال الطبيعة المحيطة بها ، وشاب وسيم يجلس على الأرض أجعل ولد يمكن أن تراه العين ، حتى أنني لم أعرف إن كانت القبلة قد رنت على وجتي الأم أم على وجتي الولد . كانت فكرة واحدة ناعمة وحيّة تبرق في عيني الشابين ، وحرثانها وابسامتهما ، فيشابكان ذراعيهما بحركة سريعة مرحة ، يتقاربان فيها بتفاهم رائع ، وهما منشغلان عمّا حولهما حتى أنّهما لم يلاحظا وجودي ، بينما ألقى عليّ ولد آخر ، حرد ومتكدر ، كان يدير ظهره لهما ، نظرات مشوبة بتعبير مؤثّر . كان قد ترك أخاه يركض لوحده ، مرّة خلف أمّه والشاب ، ومرّة أمامهما . وهذا الولد بذات لباس الآخر وجاذبيته ، إنّما أكثر نعومة في المظهر ، وقد بقي صامتاً ، ساكناً ، في موقف حيّة متخدرة . وتبينته فتاة صغيرة ؛ وآلية لا أدري كنهها ظهرت في نزهة المرأة الجميلة وصاحبها ، فقد اكتنفا ، ربّما لمجرد التسلية ، أن يتجولا ذهاباً وإياباً عبر المسافة القصيرة القانمة بين الجسر الصغير وعربة متوقفة في منعطف الجادة ، وكانا يبدأ أن مشوارهما باستمرار في وقفة ، ينظر فيها كل منهما إلى الآخر ، ويضحكان مستسلمين لنزوات محادثة تتجدّد حرارتها مرّة بعد مرّة هو جاء أو رصينة بعد فتور .

كنت محتجباً خلف جذع شجرة الدردار الضخم ، وأنا أرقب بإعجاب هذا المشهد الطريف ، وكنت سأحترم دون شك خفاياه ، لو لم أفاجا على وجه الفتاة الصغيرة الحاملة ، الصامتة بأثار فكرة أكثر عمقاً مما يمكن أن يعي من أي عمرها . فعندما كانت أمّها والشاب يرجعان بعد وصولهما إلى قريتها ، غالباً ما كانت تميل برأسها بشكل مراوغ ، وتلقي عليهما وعلى أخيها نظرة خفية غريبة ؛ من الصعب التكهن بما

تنضمته من حيلة ناقية، وسذاجة ماكرة وانتباه فظاً ترتسم على قسمات هذا الوجه الطفولي ذي العينين التبعيتين قليلاً؛ وعندما كانت المرأة الجميلة أو رفيقها يداعبان خصلات شعر الطفل الشقراء، ويضغطان بلطف على عنقه النضر بياقته الصغيرة البيضاء، في اللحظة التي يحاول فيها بمرح الطفولة السير معهما؛ كان يبدو، بكل يقين اتفعل الرجل على المظهر الهزيل لتلك الفتاة الصغيرة الغريبة الأطوار. إنها تتألم أو تفكر. والحال من يتنبأ بمزيد من التأكيد بالموت لدى هذه للمخلوقات وهي في عمر الورود؟ أمو الألم الكامن في الجسم أم الفكر العمجول يفترس أرواحها وهي في طور النمو؟ قد تعرف الأم ذلك. أما أنا فلا أعرف شيئاً أكثر رهبة من تفكير عجوز على جبين طفل. إن التجديف على شفتي عذراء أقل فظاظة من ذلك. وهكذا كان الموقف شبه الأبله لتلك الفتاة المفكرة، وندرة حرركاتها، كل شيء يشير اهتمامي. ورحت أتأملها بفضول. وبتزوة طبيعية لدى الملاحظين، كنت أقارنها بأخيها، وأنا أحاول الكشف عن أوجه الشبه والخلاف بينهما. كانت الأولى ذات شعر كستاني، وعينين سوداوين وقدرة مبكرة وهي تشكل تبياناً ثرياً مع شعر أخيها الأشقر وعينه الخضراوين بلون مياه البحر، وضعف الحدانة الحلو. كانت الكبرى بعمر سبع أو ثمان سنوات تقريباً أما الصبي ففي السادسة تقريباً. وكانا يرتديان ثياباً متشابهة، غير أنني بالنظر إليها بمزيد من الانتباه، لاحظت على ياقتي قميصيهما فرقاً نافعاً تقريباً كشف لي فيما بعد حكاية كاملة عن الماضي، ومأساة عن المستقبل، وهذا شيء قليل، فعلى ياقة الفتاة السمراء كفاف يزورها، بينما تظهر تطريزات جميلة تزين ياقة أخيها. وتكشف عن سر قلب، وعن تفضيل ضمني يقرأه الأولاد في نفوس أمهاتهم، وكان روح الله حلت فيهم. كان الصبي لامبالياً ومرحاً، وهو يشبه بشفرته طفلة صغيرة لنضارة بشرته البيضاء، وحر كانه الجذابة، ومظهره الناعم؛ بينما أخته البكر رغم قوتها، وجمال تقاطيعها، وبريق لونها أشبه بصبي مريض، فعيناها اليقظتان محرومتان من الألق الرطب الذي يمنح مزيداً من الجاذبية لنظرات الأطفال وتبدو ان كاعين المتملقين جافتين بنار داخلية. أخيراً يخالط بياض بشرتها مسحة

كامدة مائلة للون اخضرار زيتوني، وهي دلالة عزيمية قوية؛ وقد جاء أخوها الصغير مرتين يعرض عليها، برقة مؤثرة، ونظرة ناعمة، وهشة معيرة تسحر شارله<sup>(١)</sup> لورأها، بوق الصيد الذي كان يتفخ فيه أحياناً، لكنها في كل مرة لم تكن تجيب إلا بنظرة شرسة على عبارته التي يطلقها بصوت متودّد:

- خذي يا هيلين، ألا تريدان هذا البوق؟ وتبدو الفتاة الصغيرة قائمة ورهية تحت مظهرها اللامبالي ظاهرياً، وترتعش بل وتحمربشدة عندما يقترب أخوها منها؛ ويبدو أن الصغير لم يكن يلاحظ مزاج أخته المتكدر، وانتهت لامبالاته المختلطة بالسعي لتحقيق رغبته إلى إثارة طبع الفتاة الحقيقى واهتمامها بمعرفة الناس المتجلى على وجهها الصغير المكفهر بأفكارها القائمة.

صاح الصبي الصغير الذي انتهز اللحظة التي وقفت فيها أمه مع الشاب صامتين على جسر غوبلنز لبضج يشكواه: ماما، إن هيلين لا ترغب في اللعب.  
- دعها يا شارل، أنت تعلم أنها دائمة التذمر.

هذه الكلمات التي رمتها الأم دون تبصر، واستدارت بعدها فجأة مع الشاب، اقتلعت الدموع من عيني هيلين؛ فحدقت بهما صامته، ثم ألقت على أخيها إحدى هذه النظرات العميقة التي بدت لي عصبية على الفهم وتحوكت بنظرة شريرة إلى الحافة التي وقفت في أعلاها ثم إلى نهر البيفر والجسر وإلى ما يحيط بها.

خشيت أن تلحظ الأم ورفيقها اللاهين وجودي وقد عكّرت دون شك حديثهما فانسحبت بهدوء لأختى؛ خلف سياج من جنبيات اليلسان تحجبني أغصانها الخضراء كلياً عن الأنتظار كلها. وجلست بهدوء في أعلى المنحدر أنظر بصمت مرة بعد أخرى إما إلى بهاء الموقع وتغيراته، وإما إلى الفتاة الصغيرة الشرسة التي أمكنتني الاستمرار في مراقبتها عبر فجوات السياج بعد أن وضعت رأسي على مستوى الجادة

(١) شارله، نيكولا توسين (١٧٩٢، ١٨٤٥) رسّام وطبّاع عنى الحجر المشهور برسوم رجال الحرس الامبراطوري والأطفال، وبعد من أشهر الفنانين الشعبيين كما ذكر في مقال يُنسب إلى بلزك ظهر في مجلة لامور في ١٨٣٠.

نفسياً . وبدت هيلين قلقة بعد أن غابت عن ناظريها ، وراحت عيناها السوداوان  
نفتشان عني في عمق المرء ، وخلف الأشجار بفضول لا يمكن تفسيره . ماذا أعني إذن  
بالنسبة لها؟ وفي تلك اللحظة انطلقت فمقهاات شارل ترن في صمت المكان كترقزة  
عصفور ؛ فالشاب الوسيم الأشقر مثله كان يرقصه بين ذراعيه ، ويقبله ، وهو يناغيه  
ويضحكه بهذه الكلمات الصغيرة بلا نَسَق ، والمحركة عن معناها الحقيقي التي جرت  
العادة على توجيهها بنودد إلى الأطفال ؛ وكانت الأم تبسّم وهي تشاهد هذه  
الألعاب ، وتنطق بين حين وآخر ، بصوت منخفض دون شك ، بكلمات خارجة من  
القلب ، لأن رفيقها كان يتوقّف وينظر إليها بعين زرقاء تشع دفناً وهياماً ، وتختلط  
أصواتها مع هتاف الصبي فتشير ما لا أدري من حبور ؛ كان الثلاثة في منتهى الظرف ،  
وعمّ هذا المشهد العذب وسط هذه الطبيعة الرائعة بحلاوة لا تُصدّق . امرأة جميلة ،  
بيضاء ضاحكة ، وطفل محبوب ، ورجل يتألّق شباباً ، وسماء صافية ؛ أخيراً توافقت  
كل تناسقات الطبيعة لتبهج الروح ، وفتنت بما حولي وتملكني الابتسام كأن سعادة  
هؤلاء الناس سعادة لي . وسمع الشاب الوسيم رنات ساعة تعلن التاسعة ، فقبل  
رفيقته بحنان ، وبدت عليه الرزانة الأقرب إلى الحزن ، وعاد نحو عربته التي تقدّمت  
ببطء بقودها خادم عجوز . واختلطت مناغاة الطفل المحبوب مع القبلات التي غمره  
بها الشاب ، وبعد أن صعد هذا إلى العربة ، واستمعت المرأة الساكنة إلى ضجّة  
عجلاتها وهي تجري وتتابع أثرها من تصاعد الغبار في ممر الحادة الأخضر ، هرع شارل  
إلى أخته القريبة من الجسر ، وسمعته يقول لها بصوت فضي الرنة : لماذا لم تأت  
لتودّعي صديقي الطيب؟ .

عندما رأت هيلين أختها على حافة المنحدر ، ألقت عليه أروهب نظرة أبرقت في  
عيني طفلة ودفنعة بحركة غاضبة ، وانزلق شارل على السطح الوعر واصطدم ببعض  
الجدور التي ألقت بهتاف على حجارة الجدار الحادة فتحطّم جبينه وهوى والدماء  
تنفجر من رأسه في مياه النهر الموحلة . وتباعدت الموجة في ألف دفقة عكرة تانثرت  
تحت الرأس الأشقر الجميل ، وسمعت صرخات الصغير المسكين الحادة ، ولكن  
سرعان ما غابت نيرانها مختنفة في الوحل حيث اختفى محدثاً رجة ثقيلة كرجة حجر

يفرق . لم يكن البرق أكثر سرعة من تلك السقطة . ونهضت فجأة وأسرعت بالنزول عبر أحد الشعاب ، وهيلين المذعورة تطلق صرخات ناقية : - ماما ! ماما ! وكانت الأم هناك ، قريبة مني ، فقد هرعت كعصفور طائر ، لكن لم تستطع عينا الأم ولا عينا ي أن تتعرف على المكان الذي غابت فيه جثة الطفل ، فالماء الأسود يغلي ضمن مساحة واسعة . وسرير البيفر يحوي في ذلك المكان عشرة أقدام من الوحل . ويفترض أن الطفل قدم مات مختنقاً فيها ، ومن المستحيل إنقاذه . ففي تلك الساعة ، واليوم هو الأحد ، كان كل شيء يركن إلى الراحة ، فليس في النهر زوارق أو صيادون ، ولم أر قصة يمكن فيها سبر عمق الماء النتن ، ولا إنساناً على البعد . فلماذا إذن أتحدث عن هذا الحادث المشؤوم أو أقول سر هذه الكارثة؟ ربما انتصمت هيلين لأبيها ، فغيرتها ، على الأرجح ، سيف الله . غير أنني كنت أرتمش وأنا أنظر إلى الأم ، فأني استجواب رهيب ستعرض له من زوجها ، ومن ديانها الأزلي؟ وهي تجرُّ معها شاهداً نزيهاً لا يكذب . فجيبن الطفولة شفاف ، ولونها شفيف ، والكذب عندها كالنور بلون بالحمرة حتى النظرة . ولم تكن المرأة المسكينة تفكر بما ينتظرها من هوان في المنزل . بل بقيت تنظر إلى نهر البيفر .

مثل هذا الحادث يجب أن يحدث تأثيرات مروعة في حياة امرأة ، وهوذا أحد الأصدقاء الأكثر رهبة التي كانت من وقت إلى آخر تعكر غراميات جوليت .

بعد سنتين أو ثلاث سنوات ، وذات مساء ، بعد العشاء ، وفي منزل المريكزي دي فاندنس ، وكان آنذاك في حداد على وفاة والده ، ولديه ميراث يجب تصفيته ؛ وجد كاتب عدل ، غير ذلك القصير القائمة في ستيرن\* ، بل هو كاتب عدل ضخم ويدين من باريس ، أحد هؤلاء الرجال الجديرين بالتقدير الذين يرتكبون الحماقات على المقاس ، ويدوسون بثقل رجلهم الغليظة على الجرح المجهول ، ويسألون صاحبه عن سبب شكواه ، وإذا علموا مصادفة سبب حماقتهم الفاتلة قالوا : - لعمري ، لم أكن

\* ستيرن : Sterne : لورنس ( ١٧١٣ ، ١٧٦٨ ) كاتب إيرلندي فكاهي رفيع اشتهر بمؤلفه « حياة تريستان شاندي وأزواجه » ( ١٧٥٩ ، ١٧٦٧ ) استشهد به بلطف مرات عديدة .

أعلم شيئاً . أخيراً هو كاتب عدل أحرق بحق . لا يرى في الحياة إلا العقود . وكان قرب الدبلوماسي السيدة دي إغلمون ، فقد انسحب الجنرال بلفظ ، بعد العشاء ليصحب ولديه إلى أحد المسارح على الجادة ، الامبيغو . كوميك أو الغيتة ، وبالرغم من أن المبلو دراما تهيج العواطف فإنها تُعدُّ في متناول الأطفال في باريس ودون خطر ، لأن البرامة فيها تنتصر دوماً . وذهب الأب دون انتظار التحلية لأن ابته وابته ألحا عليه للذهاب مبكرين ليصلوا قبل رفع الستارة .

لم يستطع كاتب العدل الثابت اجتنان أن يتساءل لماذا ترسل السيدة دي إغلمون ولديها وزوجها إلى المسرح دون أن تصحبهم ، وبقي منذ العشاء كأنه مسرَّ على كرسيه ، وقام نقاش خلال التحلية أطال مدة تناولها ، وآخر الخدم عن تقديم القهوة . واستهلكت هذه التوافه المعارضة وقتاً ثميناً دون شك ، واقتلعت حركات تصجّر من المرأة الجميلة حتى ليتمكن مقارنتها بحصان أصيل يضرب الأرض بحوافره قبل بدء السباق . لكن كاتب العدل الذي لا يفهم شيئاً عن الخيول أو النساء ، وجد بكل سذاجة في المركيزة امرأة ملوفاً الحيوية والمرح ، وراقت له صحة سيدة على الموضة ، ورجل سياسة شهير ، فأبدى براعته في الفكاهة ، وعدَّ ابتسامه المركيزة الباهتة استحساناً له ، واسترسل في الحديث حتى أفقدها الصبر ، كما أن رب المنزل ، بالتوافق مع رفيقته سمح لنفسه أكثر من مرة بالتزام الصمت في مناسبة توقع فيها كاتب العدل جوانب ثناء وتقريظ ، لكن خلال هذه اللحظات من الصمت كان هذا الرجل الشيطان ينظر إلى نار المدفأة مفتشاً عن طرائف أخرى . ولجأ المركيز إلى ساعته . أخيراً اعتمرت المرأة الجميلة قبعتها استعداداً للخروج ، ولم تخرج . لكن الكاتب العدل لم ير ولم يلحظ شيئاً ، فهو مزهو بنفسه ، واثق من أنه أثار اهتمام المركيزة فتوقفت عن المغادرة ، وقال في نفسه : «من المؤكد أنني سأحظى بهذه المرأة زبونة لي» .

وقفت المركيزة تضع قفازيها وتلوي أصابعها وهي تنظر على التناوب إلى المركيز دي فاندنس الذي يشاركها في تضجرها ، وإلى الكاتب العدل الذي يسمّر كلاً

منهما بإشراقات فكره، ومع كل وقفة يجربها هذا الرجل المحترم، كان الثاني الجميل يتنفس الصعداء، ويعبر بإشارة: أخيراً سيرحل! لكن عبثاً كان كابوساً معنوياً انتهى إلى إثارة هذين الشخصين المشبوبي العاطفة اللذين يتلاعب بهما الكاتب العدل كشيخان يترصد عصفورين، مما يضطرهما إلى بعض تصرفات خشنه؛ وفي خضم رواية عن الوسائل البشعة التي لجأ إليها دوتيه في جمع ثروته، وهو رجل الأعمال الشهير آنذاك. وخلال استرسال الكاتب العدل النبيه في تفاصيل تدايره المعيبة؛ سمع الدبلوماسي الساعة تدق التاسعة، ورأى أن كاتبه العدل رجل بليد حقاً، ويجب صرفه صراحة، ووجه إليه إشارة حازمة بالتوقف. قال الكاتب العدل وهو يتناول الملقط ويقدمه لزبونه: أتريد الملقط، ياسيدي المركيز؟

- كلاً، أيها السيد، لكنني أريد أن أصرفك، فالسيدة المركيزة تريد اللحاق بولديها ولي الشرف في مرافقتها.

قال الكاتب العدل الذي كان يتكلم لوحده منذ أكثر من ساعة: الساعة الآن التاسعة، كم يمر الوقت سريعاً في صحة الأشخاص اللطفاء.

وسعى إلى قبعته ثم ارتد ليتسمر ثانية أمام المدفأة وهو يحبس بصعوبة فواقاً، ويقول لزبونه دون أن يلاحظ النظرات الصاعقة التي ترميه بها المركيزة.

- تلخص القضية، ياسيدي المركيز، فلأعمال الأفضلية. غداً سنوجه تكليفاً للسيد أخيك نلزمه فيه بالبقاء في المنزل لمباشرة عملية الجرد، وبعدها، لعمرى . . .

فهم كاتب العدل نوايا زبونه خطأ حتى أنه تناول القضية بشكل يعاكس تماماً التعليمات المعطاة له، وهذا الأمر العارض كان من الدقة حتى أن فاندنس اضطر مكرهاً إلى تصحيح أفكار الكاتب العدل الأخرق، مما استلزم مناقشة تطلبت بعض الوقت، قال بعدها الدبلوماسي نتيجة إشارة من المرأة الشابة:

- استمع، إنك تسبب لي الصداع، عد غداً صباحاً عند الساعة التاسعة مع محامي.

- لكن لي الشرف ياسيدي المركيز أن ألقت نظرك إلى أننا غير متأكدين من الالتقاء بالسيد دي روش غداً، وإذا لم يوجه التكليف قبل الظهر تفوت المدة، و . . .

في تلك اللحظة دخلت عربة إلى فناء الدار ، وانفتحت المرأة المسكينة عند سماع ضجتها لتخفي الدموع التي ترفرفت في عينيها . ودق المركيز الجرس ليقال للزائر إنه غير موجود لكن الجنرال عاد من الغيبة في وقت غير متوقع ، وتقدم الخادم وهو يمك بإحدى يديه ابنته المحمرة العينين وباليد الأخرى ابنه الذي بدا غافلاً متكلداً .

قالت المرأة لزوجها : ماذا حدث لكم؟

- رد الجنرال وهو يتوجه إلى غرفة جلوس مجاورة كان بابها مفتوحاً وأبصر فيها بعض الصحف : سأخبرك فيما بعد .

عيل صبر المركيزة فألقت نفسها بقنوط على أحد المقاعد ، واعتقد الكاتب العدل أن من واجبه أن يتلاطف مع الأولاد ، فتكلف الابتسام وهو يخاطب الصبي :

حسن يا صغيري ، ماذا رأيت في المسرح؟

أجاب غرستاف متذمراً : وادي السيل<sup>(١)</sup> .

قال الكاتب العدل : قسماً بشرفي ، إن مؤلفي أياماً أنصاف مجانين ! وادي السيل لماذا لا يقولون سيل الوادي؟ من الممكن وجود وادي دون سيل . وبالقول سيل الوادي فإنهم أبرزوا شيئاً واضحاً ، ومعيناً ومميزاً ومفهوماً . لكن لنندع هذا . كيف يمكن أن تصادف مأساة في سيل ، وفي وادٍ؟ ستجيبونني بأن الجاذب الرئيس ، حالياً ، في هذا النوع من العروض يكمن في زخرفاتها وهذا العنوان يشير إلى ذلك تماماً . ثم أضاف وهو يجلس أمام الطفل : هل نسليت جيداً يا شريك الصغير؟

في اللحظة التي كان الكاتب العدل يتساءل فيها عن المأساة التي يمكن أن تصادف في قاع سيل ، التفت ابنة المركيزة ببطء باكية ، وكانت الأم مغلظة بعنف فلم تلاحظ حركة ابنتها .

(١) وادي السيل أو النسيم والغائل : مسرحية لدوينتي ميري منكت في العام ١٨١٦ في بورت سان مارتن .



أجاب الولد : أوه! نعم يا سيدي، تسليت جيداً، يوجد في التمثيلية ولد صغير لطيف جداً، لكنه وحيد في العالم لأن أباه الحقيقي لم يستطع أن يظهر أبوته له، وهكذا فعندما وصل إلى أعلى الجسر فوق السيل، جاء رجل ضخم خبيث ذو لحية ويرتدي ثياباً سوداء كلهما وألقى به في الماء، وعندها بدأت هيلين تبكي وتتحب، وصاح بنا جمهور القاعة فأسرع والذي وأخرجنا من المسرح.

بقي السيد دي فاندنس والمركيزة مندهشين، كأن مصيبة لحقت بهما فمعتهما من التفكير والحركة.

صاح الجنرال : غوستاف، اسكت، سبق أن منعتك من التحدّث عما تشاهد في عرض مسرحي، وقد نسيت الآن توصياتي.

قال الكاتب العدل : سامحه يا سيادة المركيز، كان خطي أنني سأنته وأنا أجهل خطورة الحدّث . . . .

قال الأب وهو ينظر إلى ابنه بيروود : كان يجب عليه الأيرد.

بدا سبب عودة الولدين المفاجئة مع والدهما واضحاً جداً للديبلوماسي والمركيزة. ونظرت الأم إلى ابنتها فوجدتها تبكي، فنهضت لتذهب إليها لكن وجهها انقبض بعنف، وظهرت عليه علامات قسوة لا يخفف منها شيء.

قالت : يكفي يا هيلين، اذهبي إلى غرفة الجلوس وجففي دموعك.

قال الكاتب العدل الذي أراد أن يهدئ غضب الأم وبكاء الابنة : ولكن ماذا فعلت هذه الصغيرة المسكينة؟ إنها من الجمال حتى لتبدو أعقل مخلوقة في العالم، إنني متأكد يا سيدي أنها لا تسبب لك إلا المرات، أليس كذلك يا صغيرتي؟

نظرت هيلين إلى أمها وهي ترتعش، ومسحت دموعها، وحاولت أن تظهر بوجه هادئ وهربت إلى غرفة الجلوس.

استمر الكاتب العدل في كلامه : بالتأكيد يا سيدي، إنك أم طيبة جداً، توزعين الحب بالتساوي على ولدك، وفضيلتك الكبيرة أبعد عن ذلك التفريق

المحزن الذي تنكشف آثاره الضارة بشكل خاص، لنا نحن الكتّاب العدل. فالمجتمع يربُّ بين أيدينا، وهكذا فنحن نرى الأهواء بصورتها الأكثر بشاعة، صورة المصلحة. فهنا أم تريد حرمان أولاد زوجها من الميراث لمصلحة الأولاد الذين تفضلهم؛ بينما الزوج من جهته يريد أن يحتفظ بشروته للولد الذي يحظى بكره أمه؛ وعندها تقوم المعارك، والمخاوف، والإجراءات، والسندات المضادة، والمبيعات الصورية، والهبات الإيصائية، أخيراً فوضى يرثي لها، قسماً بشرفي، يرثي لها! وهناك آباء يفضون حياتهم في حرمان أبنائهم من الميراث، بسرفة أملاك زوجانهم. . . نعم سرقة، هي الكلمة. إننا نتحدث عن مأساة، أه! أؤكد لك أننا لو نستطيع كشف سر بعض الهبات، لنمكن مؤلفونا أن يصوغوا منها مسرحيات مأساوية بورجوازية. أنا لا أعلم أية قدرة تستخدمها النساء لتحقيق كل ما تريد. إذ بالرغم من الظواهر، ومن ضعفهن، فإنهن المنتصرات دائماً. أه! غريب أمرهن، لكنهن لا يخدعنني، فأنا أدرك دائماً سبب تفضيلاتهن التي تُعت بطريفة مهذبة في المجتمع بأنها غير قابلة للتحديد! لكن الأزواج لا يتكهنون بها. هذه حقيقة يجب الاعتراف لهن بها. سنجيبني على هذا، هناك ظُرفٌ و . . . . عادت هيلين مع أبيها من غرفة الجلوس إلى الصلاة، وأصفت بانتباه إلى الكاتب العدل وبدا أنها تعي جيداً ما يقول حتى أنها ألقت على أمها نظرة خائفة وهي تستشعر بكل حدس عمرها الغض أن هذه الظروف ستضاعف القسوة التي تدوم حولها. وشحب لون المركيزة وهي توجّه انتباه مضيفها بحركة مذعورة إلى زوجها الذي كان مطرقاً غارقاً في التفكير وهو ينظر إلى أزهار وشي السجادة. وفي تلك اللحظة لم يعد الدبلوماسي يطبق، رغم لباقتة، هذر كاتب العدل، وألقى عليه نظرة صاعقة، وهو يقول له:

تعال معي. وتوجّه بسرعة إلى الغرفة الواقعة قبل الصلاة.

تبعتها كاتب العدل وهو يرتعش دون أن ينهي عبارته. أغلق المركيز بعنف باب

الصلاة التي ترك فيها المرأة وزوجها وتوجه إلى الكاتب العدل بغضب مركز قائلاً:

- أيها السيد، منذ العشاء، وأنت ترتكب هنا الهفوات وتنطق بالحماقات .  
كرمي لله ! انصرف قبل أن تسبب أكبر المصائب ؛ فإن كنت كاتب عدل ممتاز، الزم  
مكتبك ؛ وإن شأمت المصادفة ووجدت في المجتمع، فحاول أن تكون متبصراً في  
كلامك . . . ثم دخل إلى الصالة وترك الكاتب العدل دون أن يحييه . وبقي هذا  
للحظة ذاهلاً خاملاً، دون أن يعلم أين هو ؛ وعندما هدأ الطين في أذنيه، خيل إليه  
أنه يسمع تنهدات وذهاباً وإياباً في الصالة حيث أجراس استدعاء الخدم تفرع بعنف،  
وخشي أن يرى مجدداً المركيز رب المنزل ؛ وعندما شعر أن ساقيه تقويان على حمله  
أسرع إلى الدرج لانذاراً بالفرار . لكنه اصطدم عند خروجه بالخدم وهم يهرعون لتلبية  
أوامر سيدهم .

قال في نفسه عندما وصل إلى الشارع وهو يفتش عن عربة أجرة نقله إلى  
منزله : هكذا هم جميع هؤلاء النبلاء، يحملونك على الكلام، وبحروضوك عليه  
بالمديح، وتعتقد أنك نسلهم، إطلاقاً ! ثم يلومونك بوقاحة، ويوقفونك عند  
حدك، بل ويظردونك دون حياء . أخيراً، كنت نبيهاً تماماً، فلم أقل إلا الكلام  
المعقول، والرصين، والملائم لعمرى، طلب المركيز أن أكون أكثر تبصراً، وهذا لا  
ينقصني . إيه ! إنني كاتب عدل، ومعلم في مكتبي . أما هو فسفير متقلب ؛ ولا حرمة  
لشيء لدى هؤلاء الأشخاص . غداً سأطلب منه تبريراً لقوله : إنني لم أفعل في منزله  
إلا ارتكاب الهفوات والنطق بالحماقات . أعني سأطلب منه حسن المحاكمة .  
وبالإجمال ربما كنت مخطئاً لعمرى، إن طبييتي تدفعني لإجهاد الفكر ! إنما مالي  
ولهذا الأمر ؟ .

عاد الكاتب العدل إلى منزله، وعرض هذا الأمر الغامض على زوجته وهو  
يروى لها أحداث المساء نقطة نقطة .

- يا عزيزي كروتا، إن سعادة السفير محق تماماً في قوله إنك لم تفعل إلا  
ارتكاب الهفوات والنطق بالحماقات .

- لماذا ؟

- يا عزيزي إن قلت لك فهذا لن يمنعك من أن تكرر ذلك غداً في مكان آخر .  
سأوصيك فقط بعدم التحدث في المجتمع إلا في موضوع الأعمال المكلف  
بها .

- إن رفضت قول ذلك لي ، فسأطلبه غداً من . . .

- يا إلهي ، إن أشد الناس غباءً يحرصون على كتمان هذه الأمور ، وأنت تعتقد  
أن سفيراً سيصرح لك بها . ولكن يا كروتا ، لم أرك من قبل يمثل هذا القدر من عدم  
الإحساس .

- شكراً يا عزيزتي ! .

## اللقاءان

حضر ضابط قديم من مرافقي نابوليون، سنطلق عليه فقط اسم المركيز أو الجنرال، وهو من جمع ثروة طائلة بعد ذلك في عهد الملكية الثانية، إلى فرساي ليقضي أيام العز في فرساي حيث سكن في بيت ريفي يقع بين الكنيسة وحاجز مونروي على الطريق المؤدي إلى شارع سان كلو، فوظيفته في القصر لاتسمح له بالابتعاد عن باريس.

بني هذا البيت سابقاً ليستعمل ملاذ غراميات عابرة لأحد كبار النبلاء، وكانت له ملاحق واسعة، فالحدائق المحيطة به من كل جانب تبعده في ذات الوقت، من اليمين واليسار عن بيوت مونروي الأولى، وعن الأكواخ المقامة في جوار الحاجز، وهكذا كان ينعم سادة تلك الملكية، دون أن يشعروا بالعزلة، وهم على بعد خطوتين من مدينة، بجميع مباحج الوحدة. وفي تناقض غريب كانت واجهة وبوابة المنزل تطلان مباشرة على الطريق الذي لم يكن مطروفاً كثيراً في السابق، على الأرجح. وتبدو هذه الفرضية محتملة إذا فكرنا بأنه ينتهي إلى الدارة الرائعة التي أمر لويس الخامس عشر ببنائها للأنسة دي رومانس؛ والتي كان الفضوليون يعرفون بوجود أكثر من كازينو هنا وهناك، يفضح وضعه الداخلي وزخرفته خلائع جودونا الممتعة التي كانوا يحرصون مع ذلك على أن تتم في الخفاء والغموض رغم ما تتهمهم به من فجور.

في إحدى أمسيات الشتاء، كان المركيز وزوجته وأولاده وحيدين في ذلك المنزل الثاني، بعد أن منحوا خدمهم الإذن بالذهاب إلى فرساي للاحتفال بعرس أحد

رفاقهم ، وظنّ الخدم أن أبهة احتفالات عيد الميلاد المقترنة بتلك المناسبة تمنحهم عذراً مقبولاً لدى أسيادهم ، ولم يتورعوا عن أن يخصّصوا لذلك الاحتفال وقتاً يزيد عمّا منحهم الإذن المنزلي . ولما كان الجنرال معروفاً بأنه رجل لا يتراجع أبداً عن تنفيذ كلمته باستقامة صارمة ، فإنّ العاصين منهم كانوا يحسّون بالندم وهم يتابعون الرقص عندما انتهت مدة الإذن وحين موعد العودة . ودقّت الساعة معلنة الحادية عشرة ، ولم يعد أيّ خادم . وكان الصمت العميق المخيم على الريف يتيح سماع ريح الشمال تعصف بين حين وآخر عبر أغصان الأشجار السوداء ، أو تهدر بين المنازل ، أو تتغلغل في الممرات الطويلة . وقد نفى الجليد الهواء وصلّب الأرض وسحّر حجارة رصف الطرقات ، ممّا منح كل شيء تلك الرثة الجفاقة التي تدهشنا ظواهرها دائماً ، فترنح سكير متأخر أو ضجيج عربة عائدة إلى باريس ، يرنان بشدة ، ويُسْمَعان لمسافة أبعد من المعتاد . وأوراق الأشجار المتساقطة ، المترقصة ببعض دوامات مفاجئة تحفّ وهي ترنح على حجارة الفناء فتعطي صوتاً لليل يريد أن يكون صامتاً . كانت أخيراً إحدى تلك الليالي القارسة التي تنتزع من أنانيتنا شفقة عميقة على فقير أو مسافر في العراء ؛ وتجعل ركن المدفأة ألدّ مكان في نظرنا . كانت العائلة في تلك اللحظة مجتمعمة في الصالة ، لا يفلقها غياب الخدم ، ولا التفكير بمن هم دون ماوى ، ولا الشعر الذي يمكن أن تجود به الفرائح في سهرة شتائية ، فالعائلة غير مهتمة بفلسفة دون سبب ، والزوجة والأولاد مطمئنون لحماية عسكري قديم ، وهم منصرفون إلى الاستمتاع بمسرات تولدها حياة داخلية لا حرج فيها للعواطف ، والمودة والصراحة تنعش الأحاديث ، والنظرات والحركات .

كان الجنرال جالساً ، أو بالأصح غارقاً في كنبه عالية عريضة ، قرب المدفأة التي تنوهج فيها نار متأججة تنشر جواً من الدفء المنعش المنبئ عن البرد الشديد في الخارج ، وكان رأس هذا الأب الطيب مستنداً إلى ظهر المقعد ، ومرتداً قليلاً في وضع مشراخ يعبر عن هدوء كامل ، وتهلّل انشراح هادئ . ذراعاه نصف نائمتين وهما متدلّيتان خارج مستدي الكنبه كأنهما يتمّان التعبير عن فكرة سعيدة . كان يتأمل أصغر أولاده صبيّ لما يبلغ الخمس سنوات ، وهو نصف عار يرفض أن تتحمّ له أمه

خلع ثيابه ؛ والطفل يهرب من قميص وطاقية النوم التي تهدده أمه بها أحياناً، وهو يحتفظ بياقته المطرزة، ويضحك لأمه عندما تناديه، ملاحظاً أنها تضحك بدورها من هذا التمرّد الطفولي ؛ وبدأ عندئذ يلعب مع أخته، البرينة مثله، لكنها أكثر حركة وحباً للهو منه، كما أنها أكثر تميزاً في الكلام، لكن عباراتها غير المحددة وأفكارها المشوشة تكاد لاتدرك من قبل ذويها، وموانا الصغيرة التي تكبر أخاها بعامين تشير، بغنج أنثوي، سابق لأوانه، ضحكات لاتنقطع<sup>(١)</sup>، وهي تنطلق كصواربع ولأنفه الأسباب، ولكن رؤية كليهما بتقلب قرب المدفأة، وهما يكشفان دون حجل عن جسميهما الجميلين، وبشرتهما البيضاء الناعمة، وخصلات شعرهما السوداء والشقراء، ووجهيهما المتوردين، والفرح يتألق على قسماتهما البرينة، يدرك الأب، وتدرك الأم خاصة جهور هاتين الروحين الصغيرتين المتميزتين بالنسبة لهما، والمولعين بهما. فأمم تألق الزمان عيونهما المخضلتين، وجناتهما اللامعة، وبشرتهما البيضاء، تشحب نقوش أزهار السجادة الوثيرة، وهي مسرح مرحهما، فعليها يسقطان، ويتقلبان، ويتشاجران ويتدحرجان دون خطر. كانت الأم عند الركن الآخر من المدفأة جالسة على ديوان يواجه كنية زوجها تحيط بها ملابس متناثرة، وماتزال فردة حذاء حمراء في يدها في مظهر معبر عن العفوية. وقساوتها المشكوك فيها تغيب خلف ابتسامة ترسم على شفتيها. كانت في السادسة والثلاثين من عمرها تقريباً، وهي ما تزال تحتفظ بجمال يعود إلى كمال نادر في قسمات وجهها التي تسكب عليها الحرارة والسعادة والنور في تلك اللحظة بريقاً غير طبيعي، وغالباً ما كانت ترتد بناظريها عن أولادها لتحوكها إلى وجه زوجها الرزين، ويتبادل الزوجان عندما تتلاقى أعينهما أحياناً تعابير متع صامتة وأفكار عميقة. كان للجنرال وجه تلوّحه سمرة ظاهرة، وتندلى على جبينه العريض النقي بعض خصلات شعر وخطها الشيب، ويتألق وميض الرجولة في عينيه الزرقاوين، وتسجل تجامعيد وجنتيه الذابلتين معالم الشجاعة والإقدام، وهي تشير إلى أنه حصل بما بذله من جهود قاسية

(١) هي لوحة نافذة لعائلة سعيدة، عرفت العائلة فيها بعد الأزمات السلام الروحي. وفيها يرسم بلزك صورة ولدين مختلفين: موانا ابنة الحب وأبل ابن الواجب.

على تلك الشريطة الحمراء التي تزين عروة سترته دلالة وسام جوقه الشرف المنعم به عليه . كانت أفراح ولديه البرينة ، في تلك اللحظة ، تنعكس على مظهره القوي الحازم الذي تتجلى فيه طيبة وبراءة فائقنا الوصف ، فقد عاد هذا الضابط القديم الى عهد الصبا دون بذل جهود كبيرة . ألا يغرم الجنود قليلاً بأيام الفتوة التي اختبروا فيها مصائب الحياة التي مكنتهم من معرفة شقاء القوة وميزة الضعف؟ وعلى بعد قليل ، وأمام طاولة مستديرة مضاءة بمصابيح كوكبية تصارع أضواؤها الواجحة أضواء الشموع الشاحبة الموضوعة على حافة المدفأة ، جلس فتى في الثالثة عشر من العمر يقلب بسرعة صفحات كتاب كبير ، لا يلهيه عن ذلك صراخ أخيه أو أخته ، وتتم تقاطيع وجهه عن حصول نصيب . وينبرر هذا الاهتمام بالروائع المشوقة التي يتضمنها كتاب ألف ليلة وليلة<sup>(١)</sup> وبزهو الفتى بيزة طالب الكلية . وقد بقي ساكناً ، في موقف متأمل ، مرفقه على الطاولة ، وقد أسند رأسه بإحدى يديه ، فبدأ شعره الأسود يتموج متبايناً مع بياض أصابعه . كان الضوء يسقط عمودياً على وجهه بينما باقي الجسم في الظلمة ، وكان بذلك يشبه تلك الصور المرسومة بأقلام الفحم الأسود التي رسمها رافاييل لنفسه وهو يطرق متأملاً ، يفكر بالمستقبل . وبين تلك الطاولة والمركيزة كانت فتاة طويلة القامة ، جميلة الوجه ، تجلس أمام نول حياكة ، وقد مال جسمها وهي تعمل عليه بينما كان رأسها يبعد ويقرب بحركة متناوبة ، فيعكس شعرها الأسود الإبنوسي النور . كانت هيلين لوحدها تعدُّ مشهداً رائعاً ، فجمالها يتميز بسمة نادرة تجمع القوة إلى الأنافة ، وبالرغم من أنها رفعت شعرها بطريقة يرسم فيها إطاراً حياً حول هامتها فإنه كان من العزارة حتى أفلتت خصلات ندى متعردة على أسنان المشط وتجمعت بقوة عند منشأ العنق ؛ وكان حاجباها كثيفي الأشعار ومنظمي المنبت وهما يتباينان بسوادهما مع بياض جبينها ؛ وظهر على شفتها العليا خال بلون أسمر قاتم ، دلالة شجاعة ترسم تحت أنف إغريقي بدا محبته في منتهى الكمال ؛ لكن الاستدارات الأخاذة في قوامها ، وبراعة التعبير في أساريرها الأخرى . وشغافية بشرتها المرهفة ، وإغراء عذوبة شفتيها ، ونهاه ييضوية وجهها ؛ وخاصة قدسية

(١) تأثر بلاف هذا الكتاب ، وكان يريد للملهاة الإنسانية أن نعدو ألف ليلة وليلة الغرب .



نظرتها العذراء كانت تطبع ذلك الجمال المثين بحلاوة أنثوية، وتواضع ساحر نهفو إليهما لدى ملائكة السلام والحب هؤلاء. غير أن ما من مظهر ضعف لدى تلك الشابة، وقلبها وروحها يمثل عدوية وقوة تناسقاتها الرائعة ووجهها الجذاب. كانت تغلّد صمت أحيها تلميذ الكلية وتظهر فريسة أحد هذه التأملات المقدرة على الفتيات والممتنعة غالباً عن ملاحظة أب أو أم وغالباً عن فطنة ودراية الأمهات: حتى لتنتعذر معرفة إن كان يجب أن تُسبب إلى حركة الضوء أو إلى هموم خفية، تلك الظلال المتغلبة على وجهها كالغمام في سماء نقيّة.

كان كبير الأولاد هذان منسيين في تلك اللحظة كلياً من قبل والديهما؛ غير أن الجنرال وجه أكثر من مرة نظرة متسائلة إلى المشهد الصامت الذي يُظهر في خلفية الصورة إنجازاً عذباً للامال التي تسجلها الجلبة الطفولية المتعالية في مقدمة هذه اللوحة المنزلية. وترف السجف التي تزين ذلك الصالون، وتنوع الأوضاع، وتعارض الملابس المختلفة اللون، وتباينات هذه الوجوه التمييزية بمختلف الأعمار والأطر التي تبرزها الأضواء، تسيطر على هذه الصفحات الإنسانية كل الثراء الذي يرغب به النحاتون والرسامون والكتاب. أخيراً فالصمت والثناء، والعزلة والليل تخلع جلالها على هذا التكوين السامي والساذج، بتأثير عذب للطبيعة. والحياة الزوجية تمتلئ بهذه الساعات المقدسة، التي يعود سحرها الغامض، على الأرجح، لذكرى عالم أفضل، فبعض إشعاعات سماوية تنفجر دون شك، على هذه الأنواع من المشاهد المخصصة لتخفف عن الإنسان قسماً من أحزانه، ولتدفعه إلى قبول وجوده، ويبدو أن الكون هنا يظهر أمامنا، بشكل خلّاب ليسط أفكار نظامه الكبيرة التي تطالب بها الحياة الاجتماعية من أجل قوانينها المتعلقة بالمستقبل. إنّما بالرغم من نظرة الحنان التي تلقيها هيلين على أبل ومروانا عند تسجّر أحد مظاهر سرورهما، ورغم السعادة المرتسمة على وجهها المشرق عندما تتأمل خلسة أباها، فإن شعور كآبة عميقة ينطبع على حركاتها، وموقفها، وخاصة في عينيها المحتجبتين بأهداب طويلة؛ وترتعش يداها البيضاء والقويتان اللتان يخلع عليهما النور أثناء مروره احمراراً شافاً شبه مائع. ومرة واحدة، ودون تحمّل متبادل، اصطدمت عينا هيلين

بعيني المركيزة، وفهمت كل من المرأتين الأخرى بنظرة، كليئة، باردة، مراعية لواجبات الاحترام لدى هيلين؛ قائمة ومهددة لدى الأم. وخفضت هيلين بسرعة بصرها على النول، وسحبت الإبرة بخفة، وبقيت مدة لم ترفع فيها رأسها الذي بدا حملة ثقيلًا جداً عليها. هل كانت الأم قاسية جداً على ابنتها، وهل كانت ترى هذه القسوة ضرورية؟ هل كانت تغار من جمال هيلين، وهي ما تزال قادرة على مناقشتها، إنما مع استخدام كل وسائل الزينة؟ . . أو أن الابنة كشفت، ككثيرات من البنات عندما يغدون نافذات البصيرة، أسرار تلك المرأة، التي تعتقد أنها دفتها في قلبها بمثل عمق قبر، وتبدو في الظاهر أمينة بتقوى لواجباتها؟.

كانت هيلين قد وصلت إلى عمر تحمل فيه طهارة الروح على صرامة تتجاوز المقياس الصحيح الذي يجب أن تبقى فيه العواطف؛ وفي بعض النفوس تأخذ الأخطاء مناسيب الجرمية، ويؤثر الخيال عندئذ على الضمير، وغالباً ما تغالي الشابات آنذاك في العقوبة بشكل متناسب مع مدى تقديرهن لشناعة الجريمة. بدت هيلين تعتقد بأنها غير جدية بإنسان. سرٌّ في حياتها الباطنة، قد يكون حادثاً، غير مفهوم في البدء، لكنه تمام مع حساسية ذكائها المتأثر بأفكار دينية، بدأ منذ مدة وجيزة، وكأنه يحطُّ من قدرها في نظرها بالذات. بدأ هذا التغيّر في سلوكها منذ اليوم الذي قرأت في ترجمة حديثة عن المسارح الأجنبية مأساة غلبوم تل الجميلة لؤلؤها الشاعر شيلر<sup>(١)</sup>. وبعد أن أثبتت الأم ابتها وسحبت منها الكتاب لاحظت أن الدمار الذي سببته تلك القراءة في نفس هيلين ناتج عن المشهد الذي يقيم فيه الشاعر نوعاً من الأخوة بين غلبوم تل الذي يسفح دم رجل ليتخذ شعباً بكامله وبين جان-لي-باريسيد<sup>(٢)</sup>. وغدت متواضعة، خاشعة، ورعة. فلم تعد ترغب في الذهاب إلى المرقص. وزاد تدليل والدها لها، وخاصةً عندما لا تكون المركيزة شاهدة على هذه

(١) شيلر، فردريك (١٧٥٩-١٨٠٥) شاعر وأديب ألماني. له مسرحيات شهيرة منها عذراء أورليان

(١٨٠١) وغلبوم تل (١٨٠٤) نقلت مسرحياته إلى الفرنسية في العام ١٨٢١.

(٢) هو المشهد الخامس من مسرحية غلبوم تل وفيه يقتل جان دوريش عمه الملك.

الملاطفات للابنة الشابة . لكن إن أُجد برود في مودة هيلين لأنها فقد كان من الدقة في عدم الظهور حتى لم يلاحظه الجنرال ، فأباً كانت الغيرة من الرابطة السائدة في العائلة ، لن يكون لأي رجل تلك العين الشاقبة الفادرة على سير عمق هذين القليلين الأثويين : أحدهما شاب وكريم ، والآخر حسّاس ومعتز . الأوك كتر تسامح ، والثاني مفعم بالرقّة والحب . وإذا كانت الأم تكثر إبتهاها باستبداد لبّ ، فهو لا يظهر إلا لعيني الضحية ، ومع ذلك فالحدث وحده يولد هذه التكهّنات غير القابلة للحلّ ، إنّما حتى تلك الليلة لم تسرب أيّة بارقة اتهام من هاتين الروحين ؛ لكن ما بينهما وبين الله كانت ترفّع بالتأكيد علائم سرّ مربع .

هتفت المركزية وهي تغتم لحظة بقي فيها الصبي وأخته موانا ساكنين ، بعد أن نال منهما التعب والصمت : هيا ، تعال ، يا ولدي ، يجب أن تنام . . . وألقت عليه نظرة أمرة ، وأخذته خلصة على ركبتيها .

قال الجنرال : ماذا ، أهي الساعة العاشرة والنصف ، ولم يعد أيّ من خدمن؟! أه ! يا للمكارين . ثم أضاف وهو يلتفت إلى ابنه الأكبر : غوستاف ، لم أعطك هذا الكتاب إلا بشرط أن تتركه في الساعة العاشرة ؛ كان يجب عليك أن تغلقه بنفسك في تلك الساعة المحددة وتذهب إلى النوم كما وعدتني ، إذا أردت أن تغدو رجلاً ذا مكانة فيجب أن تعدّ كلمتك ديناً ثانياً لك ، وتحرص على الالتزام بها كحرصك في الحفاظ على شرفك . كان فوكس \* أحد كبار خطباء إنكلترة متميزاً بكرم سجاياه ، وكان التزامه بعهوده أفضل مزاياه . وكان أبوه إنكليزي من أرومة أصيلة ، وأراد في طفولة ولده أن يعطيه درساً متيناً يكون ذا تأثير خالد على نفس الفتى . وعندما أتى فوكس ، وهو في عمرك ، خلال إحدى العطلّ ، إلى المنزل العائلي ؛ وكان لدى الأب ، كمعظم أغنياء الإنكليز ، منتزه واسع حول قصره . ووجد في هذا المنتزه كشك قديم أن هدمه وبنائه في مكان آخر ذي إطلالة رائعة . وبما أن الأولاد يحبون

\* فوكس ، شارل (1806 ، 1849) سياسي بريطاني عارض سياسة جورج الثالث ، تزعم حزب الهويغ

(الأحرار) المناهض لبث Pitt

كثيراً رؤية التهديم والإعمار، فقد أراد فوكس الصغير أن يمدّ عطلته عدة أيام ليحضر سقوط ذلك الكشك، لكن الأب حرص على أن يعود ابنه إلى الكلية في اليوم المحدّد للافتتاح، لكن الأم، ككل الأمهات، دعمت موقف ابنها؛ ووعد الأب عندئذٍ صراحةً ولده، حسماً للخلاف أن يؤجّل هدم الكشك حتى العطلة القادمة. وعاد فوكس إلى الكلية، وظن الأب أن الفتى المشغول بدروسه سينسى ذلك الأمر العارض، فهدم الكشك وبناه مجدداً في المكان الآخر المرغوب. لكن الفتى العنيد لم يكن يفكر إلا بهذا الكشك. وعندما عاد خلال العطلة التالية، كان أول اهتماماته الذهاب لرؤية الكشك القديم، وعاد في وقت الغداء والحزن يملاً قلبه، وقال لوالده: لقد خدعتني. ورد النبيل الإنكليزي المعجوز بخجل ملؤه الإحساس بالكرامة: هذا صحيح يا ولدي، لكنني سأصحح غلطتي، إذ يجب الحرص على الكلمة أكثر من الحرص على الثروة. فالالتزام بالكلمة تعطي الثروة، لكن كل الثروات لا تمسح عاراً لحق بوجودان حث بكلمته. وأمر الأب ببناء الكشك القديم كما كان، ولما أعيد بناؤه، أمر بهدمه أمام عيني ولده. ليكن لك في هذا الدرس عبرة يا غوستاف.

أغلق غوستاف الكتاب في الحال، بعد أن أصغى بكل اهتمام إلى أبيه، ومرّت لحظة صمت حمل فيها الجنرال موانا، التي كانت تغالب التعاس وضمها برفق إلى صدره، وألقت الصغيرة رأسها المترنّح على كتفه، وغفت للحال وقد أحاطت خصلات شعرها الجميل الذهبية كخطأ بظورها. وفي تلك اللحظة سمع وقع خطوات سريعة في الشارع، ثم على المدخل، وقرع الباب فجأة بثلاث ضربات رتّت أصداؤها في المنزل. كان لهذه الضربات القوية المتطاولة نبرة سهيل فهمها كصرخة رجل يتهدده خطر الموت، وعلا نباح كلب الحراسة مزمجراً بغضب، وارتعش غوستاف وهيلين والجنرال وزوجته بشدة؛ لكن أبّل الذي أنهت أمه تغطيته وموانا لم يستيقظا.

صاح الرجل العسكري وهو يضع ابنته على الكتبة: كم هو عجول هذا الطارق.

وخرج فجأة من الصالون دون أن يستجيب لرجاء زوجته .

- لا تذهب يا صديقي . . .

دخل المركيز غرفة نومه وتناول منها مسدساً ، وأشعل فانوسه الأصم ، وانطلق نحو السلم ، ونزل بسرعة البرق ، ووجد نفسه سريعاً على بوابة المنزل حيث تبعه ابنه بإقدام .

سأل : من هنا؟

أجاب بصوت يكاد يخنق بأنفاسه المنقطعة : افتح .

- هل أنت صديق؟

- نعم صديق .

- هل أنت وحدك؟

- نعم ، ولكن افتح ، فها هم قادمون .

وانزلق رجل تحت كفة المدخل بمثل سرعة ظل وهمي عندما فتح الجنرال البوابة بانفراج بسيط تمكن الغريب من وضع قدمه فيه ، وأتم فتحها بفسرية قوية من الرجل الأخرى ودخل وأغلقها خلفه مستنداً بظهره عليها ، كأنما يحاول منع إعادة فتحها .

رأى الجنرال وهو بصوب مسدسه إلى رأس الرجل بسرعة ليوقفه عند حدة ويرفع مصباحه حتى صدره ، رأى رجلاً متوسط القامة ، متدنئاً بمعطف مبطن بالفرو ، لباس عجوز واسع يبدو أنه ليس له وقد أغرق رأسه حتى أذنيه ، سواء عن حرص أو مصادفة ، بقبعة غطت جيئه وحجبت عينيه .

- قال الغريب مخاطباً الجنرال : سيدي ، أبعد فوهة مسدسك ، فأنا لا أنوي البقاء في منزلك دون موافقتك ؛ لكنني إن خرجت فالموت ينتظرني على الحاجز . وأي موت ! ستكون مسؤولاً عنه أمام الله . إنني أطلب ضيافتك لمدة ساعتين . ففكر

بذلك يا سيدي . وأياً كان توسلّي فقد افتضته وطأة الضرورة . أريد الضيافة العربية التي تؤمّن لي حمايتك ، وإلا افتح ، فسأذهب إلى الموت . يلزمني الكتمان والتخفي ، وأمان الملجأ ، والماء . أوه ! أين الماء ؟  
ردّد بصوت أشبه بالخرجة .

سأله الجنرال ، وهو مندهش من الطلاقة المحمومة التي يتكلّم بها المجهول :  
من أنت ؟

- أه ! من أنا ؟ افتح وسأبتعد . أجاب الرجل بلهجة تنضمّن سخرية هائلة .

رغم مهارة المركز في تسليط أشعة مصباحه على الرجل ، فإنه لم يتمكن إلا من رؤية أسفل وجهه ، وما من شيء يشجع على منحه ضيافة ، طولب بها بمثل هذه الغرابة . كانت وجناته مرتعشة ، وقسماته متشنّجة بشكل رهيب ؛ وعيناه ترتسمان في الظل الذي تلقبه حافة قبعته مثل ومأضين يشحبان تقريباً مثل نور الشمعة الضعيف . غير أن من الواجب إعطاء جواب .

قال الجنرال : أيّها السيد ، إن كلامك شديد الغرابة ، حتى ليدفع من في مكاني إلى ...

صاح الغريب بصوت رهيب مقاطعاً مضيفه : إنك تتصرف بحياتي .

قال المركز متردّداً : مدة ساعتين .

كرّر الرجل : مدة ساعتين .

لكنه فجأة أراح قبعته بحركة فنوط وكشف عن جبينه وألقى نظرة ، كمحاولة أخيرة ، تغلّغت بجلائها إلى روح الجنرال . هذه النفثة من الذكاء والإرادة كانت أشبه بالبرق ، وبدت ساحقة كالصاعقة ، إذ تمرّ لحظات ينمتع فيها الرجال بقدرة لا يمكن تحديدها .

استأنف ربّ المنزل برصانة كمن يستجيب إلى إحدى هذه الحركات الغريزية التي لا ينسى للإنسان شرحها دائماً : هياً ، فأياً كنت ، ستجد تحت سقفي الأمان .

أضاف الغريب وقد أطلق تنهدة ارتياح عميقة : جزاك الله خيراً .

سأله الجنرال : هل أنت مسلح؟

اختصر الغريب جوابه بفتح طرفي معطفه بسرعة ثم طيها؛ بدا دون سلاح ظاهر، وفي بزة شباب خارج لشوة من حفلة رقص . وأياً كانت سرعة تحمري العسكري المرتاب، فقد رأى ما يكفي لقوله : في أي مكان شيطاني تمكنت أن تلتجئ ثيابك في مثل هذا الطقس القارس الجاف؟

أجاب الغريب متعاليًا : أمزيد من الأسئلة أيضاً!

في تلك اللحظة أبصر المركيز ابنه خلفه وتذكر الدرس الذي لقنه إياه حول ضرورة التنفيذ القطعي للكلمة تعهد وبدا عليه الاستياء بشدة لهذه المصادفة مما دفعه إلى أن يوجه له اللوم بلهجة متمترجة ببعض الغضب :

- كيف صدف أيها الولد الماكر، أنك هنا بدلاً من أن تكون في سربك؟ .

أجاب غوستاف : اعتقدت أن بإمكانني تقديم العون لك في حال الخطر .

قال الأب متلطفًا وقد راق له جواب ابنه : هياً اصعد إلى غرفتك . ثم توجه إلى الغريب قائلاً : وأنت تعال معي .

ساد بين الرجلين الصمت كلاعيين يتحدى كل منهما الآخر . بل وبدأت تخالج الجنرال هواجس مشؤومة فالغريب بدأ يشغل قلبه كأنه كابوس، لكن سيطر عليه الولاء لكلمة عهد أطلقها له، وقاده عبر ممرات المنزل وسلاله، إلى أن وصل به إلى غرفة واسعة في الطابق الثاني، نفع فوق الصالون، وهي غير مسكونة، وتستخدم في الشتاء مكاناً للتجفيف ولا تتصل بأي من الأجنحة، وهي خالية من أي أثاث أو زينة على جدرانها الأربعة المصفرة، باستثناء امرأة بشعة تركها المالك السابق فوق حافة المدفأة، وأخرى كبيرة الحجم وجدت دون مكان مناسب لها عند انتقال المركيز فوضعت في مواجهة الأولى موقناً . كانت أرضية تلك السقيفة

الواسعة وسخة لم تكنس يوماً، والهواء فيها بارد جداً، وكريسيان قديمان زال قشهما مرميان في إحدى الزوايا.

قال الجنرال بعد أن وضع مصباحه على حافة المدفأة مخاطباً الغريب: إن سلامتك تتطلب أن تكون هذه السقيفة البائسة ملجأ لك، وبما أنني أعطيتك كلمتي بالمحافظة على سرّك فاسمح لي بأن أحبك هنا.

طأطأ الرجل رأسه موافقاً وقال: لا أطلب إلا الملجأ وكتيمان أمرّي، وتأمين ماء لي.

أجاب المركيز الذي أغلق الباب بعناية، ونزل بتلمّس حذر إلى الصالون ليأخذ شمعدانا ويذهب بنفسه إلى غرفة الخدمة ليأتي بدورق ماء: لك ماطلبت.

سألت المركيزة زوجها بحرارة: ويعد ياسيدي، ما الأمر؟

أجاب بيروود: لاشيء يا عزيزتي.

- لكننا استمعنا جيداً إلى أنك تقود أحد الأشخاص إلى الطابق العلوي...

- استأنف الجنرال كلامه وهو ينظر إلى ابنته التي رفعت رأسها متسائلة نحوه: هيلين، فكّري بأن شرف أبيك منوط بكتيمانك. تصرفي وكأنك لم تسمعي شيئاً.

أجابت الفتاة الشابة بإيماءة ذات دلالة من رأسها. وبقيت المركيزة مندهلة، ومتضايقة في سرها من الطريقة التي اتبعها زوجها في فرض التزامها بالصمت. وحمل الجنرال دورق الماء والكأس إلى الغرفة التي ترك فيها سجينه؛ فوجده واقفاً، مستنداً إلى الجدار، قرب المدفأة عاري الرأس، بعد أن ألقي قبعته على أحد الكرسيين. ولم يكن يتوقع على الأرجح أن يسلط عليه الضوء إلى هذا الحد؛ فتغصّن جبينه، وبد الفلق على وجهه عندما التفت عيناه بعيني الجنرال الثاقبتين، لكنه هدأ وبدت على ملامحه علامات اللطف وهو يشكر مضيفه. وعندما وضع الأخير الكأس والدورق على حافة المدفأة، قطع الغريب الصمت، وألقى على المركيز نظرة متقدة، وقال بصوت هادئ: خلا من التشنجات الحلقية السابقة غير أنه لا يزال يتم عن ارتعاش داخلي:



- سيدي، سأبدو لك غريب الطبع . اعذر نزواتي التي تقتضيها الضرورة،  
وإذا بقيت هنا فأرجوك ألا تنظر لي وأنا أشرب .

اغتاظ الجنرال من الإذعان دائماً لرجل لا يروق له، لكنه استدار فجأة مشيحاً  
بوجهه عنه، وتناول الغريب من جيبه منديلاً أبيض أحاط به يده اليمنى وتناول  
الدورق، وشرب محتواه من الماء دفعة واحدة . ونظر المركيز بصورة آلية إلى المرأة  
الكبرى، دون أن يفكر بالإخلال بوعده السابق المضمّر . لكن تقابل المرأتين أتاحت  
له الإحاطة بجميع حركات الغريب، ورأى عندئذ المنديل يصطفيح بالخمرة القانية  
فجأة عند ملامسة اليدين المثلثتين دماً .

صاح الرجل بعد أن شرب والتف مجدداً بمعطفه ونظر إلى الجنرال نظرة  
مشكك : أه ! نظرت إليّ . لقد وضعت ، لقد أتوا، هاهم !  
- لم أسمع شيئاً، قال المركيز .

- لأن ليس لديك مثل اهتمامي في التنصت عبر القضاة .

قال الجنرال وقد بدا عليه التأثر بعد أن لاحظ بقع الدم الكبيرة التي تلتصق  
ثياب ضيفه :

أنت خارج من مبارزة إذن، تناثر الدم فيها هكذا على ثيابك .

ردّد الغريب وقد أبرقت شفاهه بانتسامة مرّة : نعم، هي مبارزة كما تقول .

في تلك اللحظة سُمع وقع خبيب عدة أحصنة على البعد . لكن ضجيجها  
كان بعيداً كاشعة الصباح الأولى . وعرفت أذن الجنرال الخبييرة فيه انتظام جري  
خيول مفرزة عسكرية .

قال : إنهم رجال الدرك .

ألقى على أسبیره نظرة من طبيعتها أن تبدّد الشكوك التي أثارها فضوله

اللاإرادي ، وحمل المصباح ، وعاد إلى الصالون ، وما كاد يضع مفتاح الغرفة العليا على المدفأة حتى تزايد ضجيج الخيالة واقترب من المنزل بسرعة جعلته يرتعش . والواقع أن الخيول توقفت أمام بابه . وبعد أن تبادل أحد الخيالة بعض الكلمات مع رفاقه ، نزل وقرع الباب بعنف ، مما اضطر الجنرال إلى الذهاب ليفتح له ، وقد انتابته الدهشة خفية لم رأى ستة دركيين بقمباعتهم المحاطة بالفضة وهي تلمع تحت ضوء القمر .

قال له أحد الرقباء : ألم نسمع يا صاحب السعادة منذ لحظة ضجة رجل يركض نحو الحاجز ؟

- نحو الحاجز ؟ كلاً .

- ألم تفتح باب منزلك لأي شخص ؟

- وهل جرت العادة أن أفتح أنا بالذات باب منزلي ؟

- العفو ، ياسيدي الجنرال ، في هذه اللحظة يبدو لي . . .

- أه! ما هذا؟ صرخ الجنرال بنبرة غضب ، هل تريدون المزاح؟ هل يحق لكم . . .

- أبداً ، أبداً ، يا صاحب السعادة ، استأنف بلطف الرقيب : اغفر لنا حميتنا . نحن نعلم أن عيناً من كبار أعيان فرنسا لن يُعرض نفسه لاستقبال قاتل في هذه الساعة من الليل ، لكن الرغبة في الحصول على بعض المعلومات . . .

صاح الجنرال : قاتل ! من يكون إذن . . .

استأنف الدركي : لقد قُتل السيد البارون دي موني بضربة فأس . ولوحق القاتل بسرعة ، ونحن متأكدون أنه في الجوار ، وأنا سنضيق الخناق عليه . اعذرنا ، ياسيدي الجنرال .

قال الدركي هذه الكلمات وهو يمتطي حصانه . فلم يتمكن لحسن الحظ أن

يرى وجه الجنرال لكن ربّما، وهو المتعوّد على مختلف الاحتمالات، خالجه بعض الشكوك لرؤية هذا المظهر المتلون بكل حركات الروح.

سأل الجنرال: هل عُرِف اسم القاتل؟

أجاب الفارس: كلا، وقد ترك خزانة المكتب مملثة بالنقود الذهبية والعملات الورقية دون أن يلمس شيئاً منها.

قال المركيز: هذه عملية انتقام.

- أه! على رجل عجوز؟ . . . كلا، كلا، يبدو أن الوقت لم يتوفر لهذا الشخص الجري، ليحقق الغاية من ضربته.

والتحق الدركي برفاقه الذين ابتعدوا في جريهم، وبقي الجنرال زماً وهو فريسة حيرة يسهل معرفة سببها، سمع بعدها ضجة خدমে عاندين وهم يتناقشون بنوع من الحرارة جعلت أصواتهم تتعالى عند مفروق طرق مونروي، وعندما وصلوا صبّ عليهم جام غضبه ببريق الصاعقة، وهو من يفتش عن ذريعة لينث سعار نفسه، ورنّت أصداه صوته في المنزل. ثم هدا فجأة، عندما أبدى له وصيفه، وهو أكثرهم شجاعة ولباقة، اعتذاراً عن تأخرهم قاتلاً: إنهم أوقفوا على مدخل مونروي من قبل الدرك وأفراد الشرطة المتحرّين عن قاتل. وصمت الجنرال بغتة، وذكرته هذه الكلمة بواجبات وضعه الغريب، فأمر بشكل فظّ خدمه بالذهاب للنوم على الفور، مع ما اعتراهم من دهشة للسهولة التي اقتنع بها بكذبة وصيفه.

لكن بينما كانت هذه الأحداث تجري في فناء المنزل، فإن أمراً عارضاً في الظاهر غير حالة هؤلاء الأشخاص المتمثلين في هذه القصة. فما كاد المركيز يخرج عند وصول الدرك، حتى وجهت زوجته عينيها إلى مفتاح السقيفة، وإلى هيلين، وانتهت إلى القول بصوت منخفض وهي تميل على ابنتها:

- هيلين لقد ترك والدك المفتاح على حافة المدفأة.

رفعت الشابة رأسها بدهشة، ونظرت بخجل إلى أمها وعيناها تبرق فضولاً.

وقالت بصوت مرتبك: إيه! ما ذا تقصدين يا أمي؟

- أريد أن أعرف ما يجري في الأعلى ، فإن وجد شخص ، فهو ما يزال هناك دون حراك ، اذهبي إذن .

- أنا؟ قالت الفتاة مذعورة .

- هل أنت خائفة؟ .

- كلا ، ياسيدي ، لكن يخيل إلي أنني ميّزت خطوات رجل .

- لو كان بإمكانني الذهاب بنفسني ، لما رجوتك الصعود . ثم تابعت الأم بنبرة وقار باردة : هيلين ، إن عاد والدك ولم يجدني فسيبحث عني على الأرجح ، بينما لن يلاحظ غيابك .

- أجابت هيلين : سيدتي ، سأذهب بناءً على أمرك ؛ لكنني سأخسر تقدير أبي .

قالت المركيزة بلهجة ساخرة : كيف ! لكن بما أنك أخذت على محمل الجد مزاحاً ، فأنا أمرك الآن بالذهاب لثري من في الطابق الأعلى . هوذا المفتاح يا ابنتي ! فوالدك عندما أمر بالتزام الصمت عما يجري الآن في منزله ، لم يمنعك أبداً من الصعود إلى تلك الغرفة .

اذهبي واعلمي أن ما من أم يجب أن تتعرض يوماً لحكم ابنتها .

بعد أن لفظت هذه الكلمات الأخيرة بكل قسوة أم مهانة ، أخذت المركيزة المفتاح وناولته لهيلين دون أن تنفوه بكلمة وغادرت الصالون .

- إن أمي تعرف دائماً كيف تحصل على صفّحه ، أما أنا فسأفقد مكانتي في نفس أبي . أتريد أن تحرمني من الحنان الذي يخصني به ، وأن يطردي من منزله؟

كانت هذه الأفكار تختمر في رأسها وهي تسير دون نور عبر الممر المؤدّي في أنصاه إلى الغرفة السريّة ، وعندما وصلت إليها كان اضطراب أفكارها قد انتهى إلى أمر مشؤوم ، فهذا النوع من التأمل المشوّش عمل على فيض ألف عاطفة كامنة حتى

ذلك الحين في قلبها ، وقد انتهت ، وهي التي لم تكن تعتقد ، على الأرجح ، بمستقبل سعيد ، في تلك اللحظة الرهيبية إلى القنوط من الحياة ، وارتعشت باختلاج وهي تقرب المفتاح من القفل ، وبلغ انفعالها درجة من العمق توقفت خلالها لحظة لتضع يدها على قلبها كأن لديها القدرة على تهدئة ضربانه العميقة الرجاجة . أخيراً فتحت الباب . وطرق صرير المحور ، دون شك ، إنمّا عيّن ، أذن القائل ؛ ورغم أن سمعه مرهف جداً ، فإنه بقي شبه ملتصق بالجدار ، ساكناً كأنه فقد أفكاره . كانت دائرة النور الساقطة من المصباح نصبته بشكل ضعيف ، فكان في هذه المنطفة من الظل والضوء أشبه بنمائل هؤلاء الفرسان الفاتحة المنصوبة على الدوام في زاوية بعض القبور السوداء تحت المصليات القوطية . كانت قطرات من العرق البارد تخذد جبينه الأصفر العريض وجراً فائقة تبرق على ذلك الوجه المنقبض بشدة ، وعينه التاريتان الثابتان والجافتان تيدوان وكأنهما تتأملان معركة في الظلمة المحبطة به ، وأفكار جياشة مرّت سريعة على ذلك الجبين الذي يشير بمظهره الحازم الرصين إلى روح عالية . فجمسه ، وموقفه ، وتناسب أعضائه تتوافق مع عبقرته المتوحشة . كان هذا الرجل كلّه قوة وقدرة ، وهو يتأمل غياب الظلمة كأنها صورة مرئية لمستقبله . ولم ينتبه الجنرال المتعود على رؤية الوجوه القوية للعمالقة المتفنين حول نابوليون ، والمهتم بفضول معنوي ، إلى هذه الميزات الجسدية الخاصة لهذا الرجل غير العادي ؛ لكن هيلين ، المتعرضة كجميع النساء للانطباعات الخارجية ، بُهرت بمزيج الظل والنور ، وبالمهابة والهوى ، وبفوضى شاعرية تعطي للغريب مظهر شيطان ينهض من سقفته . وفجأة ، وكأنما بفعل السحر ، هدأت العاصفة المنطبعة على وجهه ؛ وانتشرت السيطرة البهيمية حوله ، وقد كان دون علمه على الأرجح ، مبدأها ونتيجتها ، وهي تتقدّم بسرعة الفيضان ، ونجم عن جبينه سيل من الأفكار في اللحظة التي عادت فيها قسماته إلى شكلها الطبيعي . وأمكن للفتاة ، المفتتة سواء بغرابة هذه المقابلة ، أو بالغموض الذي تغلغلت فيه ، أن ترى بإعجاب سيماء ناعمة ، تثير الاهتمام .

وبقيت ، لمدة من الوقت ، في صمت مدهش ، وفريسة اضطرابات لم تعرفها روحها الفتية من قبل . لكن ، سواء بدرت من هيلين حركة أو صيحة تعجب ، أو أن القاتل يعودته من العالم المثالي إلى العالم الحقيقي ، سمع تنفساً آخر غير تنفسه ؛ فأدار رأسه نحو ابنة مضيقه ، ولاحظ في الظل بشكل غير واضح الوجه السامي ، والمظهر الجليل لمخلوقة رأها ساكنة ومبهمة كأنها ظهور ملاك قالت بصوت واجف : أيها السيد ! .

ارتعش القاتل ، وهتف برفق : امرأة! هل هذا ممكن ؟ ثم تابع : ابتعدي . لا اعترف لأي إنسان بحق الإشفاق عليّ ، أو بالصفح عني ، أو إدانتني . يجب أن أحيأ وحيداً . اذهبي يا ابنتي . وأضاف بمظهر مهيم : سأجحد فضل سيد هذه الدار إن سمحت لأي من الأشخاص الذين يسكنونها أن يتنفس ذات الهواء الذي أنتفسه . يجب أن أذعن لقوانين العالم .

نطق بهذه العبارة بصوت منخفض . وبإنهائه الإحاطة بحدسه العميق بالهموم التي أبغظتها هذه الفكرة الكثيرة ، ألقى نظرة ثعبان على هيلين فحرك في قلب تلك الشابة الفريدة عالماً من أفكار كانت مازال هاجعة لديها ، فكأنه سلط ضوءاً أنار لها بلداناً مجهولة ، وصعق روحها وسيطر عليها دون أن تجد قوة تدافع فيها عن نفسها ضد القدرة المغناطيسية لهذه النظرة ، أيما كان الشكل اللاإرادي الذي ألقبت به ، وخرجت خجولاً مرتعشة ، ولم تعد إلى الصالون إلا قبل لحظة من رجوع أيها ، فلم تستطع أن تقول شيئاً لأمها .

راح الجنرال المستغرق في أفكاره يتجول بصمت ، وقد صالب ذراعيه ، وسار بخطوة منتظمة من النوافذ المطلّة على الشارع إلى النوافذ المطلّة على الحديقة . وكانت زوجته تلتزم أبل النائم ، وموانا موضوعة على الأريكة كعصفور في عشه تغفو مطمئنة . والأخت الكبرى تمسك بكبة حرير في يد وإبرة في اليد الأخرى ، وهي تتأمل نار المدفأة ، والصمت سائد في الصالون وخارج المنزل لا تقطعه إلا جرجرة خطوات الخدم الذاهبين واحداً بعد الآخر إلى النوم وهم يطلقون بعض

ضحكات مختنقة هي الصدى الأخير لفرحة احتفانهم بزفاف زميلهم ؛ ثم بعض كلمات يتداولونها وكل منهم يفتح باب غرفته الخاصة ثم يغلقه . وبعض ضجة تحدث قرب الأسرة ككرسي تسقط ، أو سعال حودّي عجوز يتناوب بضعف ثم يصمت . وفجأة ساد في كل مكان الجلال القائم الذي يتفجّر في الطبيعة الهاجعة عند منتصف الليل . فالنجوم وحدها تلمع والبرد يعم الأرض ، وما من كائن يتكلم أو يتحرك ، ونار المدفأة وحدها تدمدم كأنها تشير إلى إدراك عمق الصمت . ودقّت ساعة مونروي معلنة الواحدة بعد منتصف الليل ، وفي تلك اللحظة ، سُمع وقع خطوات خفيفة في الطابق الأعلى . ونسب المركيز وابته المتأكدان من حبسهما قاتل السيد دي موني هذه الحركات لإحدى النساء ، ولم يدهشا لسماع انفتاح أبواب الغرفة الواقعة قبل الصالون .

وفجأة ظهر القاتل في وسطهم . وأتاح له ذهول المركيز ، وفضول الأم الشديد ، ودهشة الابنة أن يصل إلى وسط الصالون . وقال للجنرال بصوت رخيم وهادئ للغاية : يا صاحب السعادة أوشكت الساعتان على الانقضاء .

صاح الجنرال : أنت هنا ! بأية قدرة ؟ ووجه نظرة رهيبة متسائلة إلى زوجته وأولاده . وغدت هيلين محمرة كشعلة نار . وتابع العسكري بلهجة نفاذة : أنت في وسطنا ! قاتل ملطخ بالدماء هنا ! إنك تلوث هذه اللوحة . ثم صاح به بلهجة غضب : اخرج ! اخرج !

عند كلمة قاتل أطلقت المركيزة صرخة . أما هيلين فقد قرّرت هذه الصرخة حياتها . ولم تبد على وجهها أية دهشة . وبدت وكأنها تنتظر هذا الرجل ؛ فأفكارها الشديدة السعة اهتدت إلى معناها . والعقوبة التي ادّخرتها السماء لأخطائها قد تفجّرت . فهي تعتقد أنها بمثل إجرام هذا الرجل . ونظرت الفتاة الشابة إليه بعين رائفة ؛ فهي رفيقته ، وأخته . فبالنسبة لها تجلّت لها وصية من الله في هذه المناسبة . بعد عدة سنوات ، سيهتدي الحق إلى الاقتصاص من تبيكات ضميرها التي تجعلها

في هذه اللحظة ، في متسهي الهيجان والحمق ؛ وبقي الغريب ساكناً وبارداً .  
وابتسامة استخفاف تلوح في قسماات وجهه وترسم على شفثيه الحمر اوين  
الثخينتين .

قال بهدوء : إنك لانمي نبل تصرفاتي معك . لم أرد أن المس بيدي الكأس  
التي قدمت لي بها الماء لأطفيظ ظمئي . كما أنني لم أفكر بأن أغسل بيدي المضرجتين  
بالدم تحت سقفك ، وسأخرج من منزلك دون أن أترك فيه من جريمي (وعند هذه  
الكلمة شد على شفثيه) إلا الفكرة ، محاولاً أن أمر من هنا دون أن أترك أي اثر .  
أخيراً لم أسمع لابنتك حتى ي . . .

صاح الجنرال وهو يلقي على هيلين نظرة مروعة : ابنتي ! أه ! أيها التمس ،  
اخرج وإلا قتلتك .

- لما تنته الساعتان ، ولاتتمكن من قلتي أو تسليمي دون أن تفقد تقديرك  
لنفسك وتقديري لك .

عند هذه الكلمة الأخيرة حاول العسكري المندهش أن يتأمل المجرم لكنه  
اضطر إلى غض بصره . فقد وجد نفسه غير قادر على تحمل نظرة لا يطاق بريقها ،  
وقد شوشت للمرة الثانية روحه ، وخشي أن يلين أيضاً باعترافه بما انتاب إرادته من  
ضعف . قال عندئذ وهو يشير بحركة أبوية إلى زوجته وأولاده : قتل عجزو ! كأنك  
إذن لم تشهد أبداً عائلة؟ .

ردد الغريب وقد تقلص جبينه قليلاً : نعم ، عجزو .

صاح الجنرال دون أن يجرو على النظر إلى ضيفه : اهرب ! لقد نُقض  
ميثاقنا . لن أقتلك . كلا ! لن أكون أبداً سادن المفصلة . لكن اخرج إنك تشبر  
اشمترانا .

أجاب المجرم باستكانة : أعلم ذلك . ما من بقعة في فرنسة أستطيع أن أضع  
فيها قدمي بأمان . ولكن لو أن العدالة تعرف ، كمعرفة الله ، كيف تحكم على  
التصرفات ، لو أنها تتكرم في أن تتحقق أيهما الوحش الشرير : القاتل أو الضحية؟  
لبقيت عزيزاً بين الرجال . ألا تخمنون أية جرائم سابقة ارتكبها رجل حطمه فأس؟



أقمت نفسي حاكماً وجلاداً، حللت محل العدالة البشرية العاجزة. هي ذي جريمتي. وداعاً، يا سيدي. رغم المرارة التي ضمّنتها ضيافتك. سأحتفظ بذكراها. وما يزال في نفسي شعور بعرفان الجميل نحو إنسان في العالم، وأنت هو هذا الإنسان... ولكن كنت أود لو تكون أكثر كرمًا.

وذهب نحو الباب. وفي تلك اللحظة اقتربت الابنة من أمها وهمست كلمة في أذنها.

- أه! ... بدرت عن الأم صيحة أرعشت الجنرال كما لو رأى موانا مينة. وكانت هيلين واقفة. والنفت القاتل بشكل غريزي، وبدا على وجهه نوع من القلق على هذه العائلة.

سأل المركيز: ما بك يا عزيزتي؟

قالت: تريد هيلين أن تلحق به.

واحمر القاتل خجلاً.

قالت هيلين بصوت منخفض: بما أن أمي أساءت تفسير بادرة دهشة لا إرادية تقريباً، فإني سأحقق أمنيته وفق تفسيرها.

وبعد أن ألقت الفتاة الشابة نظرة أنفة شبه متوحشة حولها، طأطأت عينيها وبقيت في وقفة مذهشة من التواضع.

قال الجنرال: هيلين، هل صعدت إلى السقيفة حيث وضعت في تلك الغرفة...؟

- نعم يا أبي.

سأل الوالد بصوت متهدج بارتعاشة اختلاجية: هيلين، أهي المرة الأولى التي ترين فيها هذا الرجل؟

- نعم يا أبي؟

- ليس طبيعياً إذن أن يكون فصلك . . . .

- إن لم يكن طبيعياً، فهو على الأقل صحيح يا أبي.

- أه! يا ابنتي؟ . . . قالت المركيزة بصوت منخفض إنما بطريقة يسمعها فيها زوجها. هيلين، إنك تخالفين كل مبادئ الشرف، والتواضع، والفضيلة التي حاولت أن أتيها في قلبك. فإن كان كل مظهرك كذباً حتى هذه الساعة المشؤومة، فلا موجب للأسف عليك. أيفريك حد الكمال الأخلاقي في هذا المجهول؟ أم هو نوع القدرة الضرورية للأشخاص الذين يرتكبون جريمة؟ . . . إنني أجلك عن افتراض . . .

ردت هيلين بيروود: أوه! افترضي كل شيء يا سيدتي.

لكن بالرغم من قوة العزيمة التي برهنت عليها في تلك اللحظة لم يتمكن وهج عينيها أن يمتص إلا بصعوبة الدموع التي تفرقت فيها. وخمن الغريب لغة الأم من دموع الابنة. وأطلق نظرة نسر من عينه على المركيزة التي اضطرت أمام قدرة لا تقاوم أن تنظر إلى هذا المغوي الرهيب. بيد أنها شعرت عند التقاء عينيها بعيني ذلك الرجل برعشة في النفس ماثلة للرجة التي نتابنا عندما نشاهد أحد الزواحف الخطرة أو نلمس زجاجة ليد الكهربائية.

صاحت مخاطبة زوجها: يا صديقي، إنه الشيطان، إنه يخمن كل شيء.

نهض الجنرال ليمسك بشريط قرع الجرس.

قالت هيلين للقاتل: سيخلص منك.

ابتسم الغريب، وتقدم خطوة، وأمسك ذراع المركيز وأجيره على أن يتحمل نظرة رمنه بالحدّر وجرده من طاقته.

قال: سأدفع ثمن ضيافتك وبذلك نكون متخالصين سأجيبك عاراً بتسليم نفسي، فبعد كل حساب، ماذا سأفعل الآن في هذه الحياة.

أجابته هيلين وهي توجه إليه رجاءً لا يبرق إلا في عيني شابّة: يمكنك أن تنوب .

قال القاتل بصوت رنان وهو يرفع رأسه بأنفه: لن أتوب أبداً .

قال الأب لابته: إن يديه ملطختان بالدم .

أجابت: سامحهما له .

تابع الجنرال دون أن يغامر بالنظر إلى الغريب: لكن ألا تريدان على الأقل أن تعرفي إن كان يريدك؟

تقدّم القاتل نحو هيلين، وجمالها، أيّا كانت الطهارة والخشوع ظاهرتين فيه، يبدو وكأنه بضيء بنور داخلي، تلون انعكاساته وتبرز إن صح القول، أدق تقاطيعها ومظاهر فتنتها الأكثر رقة . وبعد أن ألقي نظرة عذبة، إنّما ما تزال رهيبة بلهبها، على تلك المخلوقة الرائعة قال وهو يغالب انفعالاً عنيفاً: ليس جياً خالصاً لك، لذاتك، أن أتخلى عن ساعتَي وجود باعهما لي أبوك وأرفض تضحيتك؟

صاحت هيلين بنبرة تقطع نياط القلوب: وأنت أيضاً ترفضني، وداعاً إذن للجميع، سأذهب للموت .

هتف الأب والأم معاً: ماذا يعني هذا؟

بقيت صامتة وخفضت عينيها بعد أن رمّت المركيزة بنظرة متسائلة فصيحة، ومنذ اللحظة التي حاول فيها الجنرال وزوجته، قولاً وفعلاً، مكافحة الخطوة الغربية التي انتحلها الرجل المجهول لنفسه ببقائه وسطهم، وما أطلقه هذا الأخير من أشعة مدوّخة تبتش من عينيهِ . فقد خضعا لغتور لا يمكن تعليقه، ولم يساعدهما عقلهما المتخدر على دفع القوة غير الطبيعية التي رزحاً تحتها؛ وغدا الهواء ثقيلًا بالنسبة لهما، وكانا يتنفسان بصعوبة دون أن يستطيعا اتهام من يحور عليهما هذا الجور، رغم أن صوتاً داخلياً جعلهما لا يجهلان أن هذا

الرجل الساحر هو سبب عجزهما . ووسط هذا الألم المعنوي الميرح أدرک الجنرال أن جهوده يجب أن تهدف إلى التأثير على عقل ابنته المتداعي . فأحاط خصرها بذراعه وسار بها إلى فتحة نافذة، بعيداً عن القاتل .

قال لها بصوت منخفض : يا ابنتي العزيزة ، إن كان حياً غريباً ولد فجأة في قلبك فحياتك الممتلئة بالبراءة ، وروحك النقية والورعة قدّمتا لي براهين عديدة عن خلقتك تشجعني على الافتراض أن لديك القدرة الضرورية على كسح بادرة جنون . إن سلوكك يخفي سرّاً . إيه ! تأكدي أن قلبي مغمم بالسامح ، ويمكنك أن تُسرّي له بكل شيء حتى لو مزقته ، فسأتمكّن يا ابنتي من إسكات ألامي والمحافظة على إحاطة اعترافك لي بكتمان مطلق . لنتر ، هل تغارين من حبنا لأخويك وأختك الصغيرة؟ هل في عمق روحك هموم حب؟ هل أنت تعيسة هنا؟ ألا تتكلمين؟ اشرحي لي الدوافع التي تحتك على ترك عائلتك ، وهجرها ، وحرمانها من مصدر جاذبيتها الكبرى ، وابتمادك عن أمك ، وأخويك ، وأختك الصغيرة .

أجابت : أبي ، لست غيرى من أحد ، ولا مغرمة بأحد ، حتى ولا بصديقكم الدبلوماسي السيد ذي فاندنس .

شحب لون المركيزة ، وكانت ابنتها تلاحظها فتوقفت ثم استأنفت :

- ألا يجب علي عاجلاً أو أجلاً الذهاب للعيش في كنف رجل؟

- هذا صحيح .

تابعت : هل يمكننا أن نعلم بأي كائن سربط مصيرنا؟ أما أنا فإنتي أثق بهذا الرجل .

قال الجنرال وهو يرفع صوته : ابنتي ، أنت لاتدركين ما ينتظرك من شقاء .

- إنني أفكر بشقائكم . . .

قال الأب : أبة حياة!

أجابت الابنة متمتمة : حياة امرأة .

صاحت المركيزة مطلقاً تعليقها على عبارة ابنتها : ياخبرتك وتعاملك .

- سيدتي ، إن الأسئلة تملني على الإجابات ، لكن إن رغبت يمكنك أن أكون أكثر صراحة ووضوحاً .

- قولي كل شيء ، ياابنتي ، فأنا أم . وهنا نظرت الابنة إلى أمها . وهذه النظرة دفعت المركيزة إلى وقفة استراحة . واستأنفت بعدها القول :

- هيلين ، سأتمم ملاماتك ، وأفضلها ، إن كان لك عليّ لوم ، بدلاً من أن أراك تتبعين رجلاً يهرب منه كل الناس مرتعين .

- أنت ترين يا سيدتي أنه سيكون جيداً دوني .

صاح الجنرال : كفى ، يا سيدتي ، ليس لنا ابنة واحدة ، ونظر إلى مؤاناً ، وهي ما تزال نائمة . وتوجه إلى هيلين بقوله : سأحبك في دير .

أجابت بهدوء بشير القنوط : ليكن يا أبي ، وسأموت فيه ، ولن تكون مسؤولاً عن حياتي وعن روحه إلا أمام الله .

أعقب صيحت عميق فجأة هذه الكلمات ؟ ولم يجسر الحاضرون عند هذا المشهد وكل ما فيه يكدّر إحساسات الحياة الاجتماعية العامة أن يتبادلوا النظرات فيما بينهم ؛ وفجأة لاحظ المركيز مسدساته فتناول أحدها وصلاه بخفة ووجهه نحو الغريب ، والثفت الرجل عند سماع ضجة الصلي ، وألقى نظرة هادئة وثاقبة على الجنرال ، فتراخت ذراعه بفتور لا يقهر وتهدكت بتناقل ، وسقط المسدس على السجادة . . .

قال الأب عندئذ وهو متداع من هذا الصراع المربع : أنت حرة يا ابنتي ، عانقي والدينك إن وافقت . أما أنا فلا أريد أن أراك أو أن أسمعك . . .

قالت الأم للابنة الشابة : هيلين ، فكري بما ستعانين من بؤس .

انطلقت من صدر القاتل العريض نوع من الحشرة إليه الأَبصار ، واصطغ  
وجهه بتعبير مستحشف .

صاح به الجنرال وهو ينهض : كلفتي الضيافة التي منحتك إياها نعتاً غالياً  
جداً . لم تكن قد قتلت منذ قليل إلا عجوزاً ، أما هنا فإنك تقضي على عائلة  
بكاملها . ومهما حدث ، فسيحلُّ البلاء بهذا البيت .

سأله القاتل وهو يثب فيه نظره : وإذا كانت ابنتك سعيدة؟

أجاب الأب وهو يبذل جهداً فائقاً : إن كانت سعيدة معك ، فلن أنأسف  
عليها . ركعت هيلين بخجل أمام أبيها ، وقالت له بصوت ملاطف :

أحبك يا أبي وأجلك ، سواء أغدقت عليّ كنوز طبيبتك ، أو قسوة نعمتك ،  
لكنني أنوسل إليك كي لا تكون كلماتك الأخيرة كلمات غضب .

لم يجرؤ الجنرال على أن يتأمل ابته . وفي تلك اللحظة تقدّم الغريب وألقى  
على هيلين ابتسامة حوت في آن واحد شيئاً ما جهنمياً وآخر سماوياً . وقال  
لها :

- أنت يا من لم يرعها قاتل ، باملاك الرحمة ، تعالي ، بما أنك عازمة على أن  
تعهدي لي بمصيرك<sup>(١)</sup> .

- هتف الأب : غير معقول !

وجّهت المركيزة لابتنتها نظرة خارجة عن المألوف ، وفتحت لها ذراعيها ،  
فأسرعت هيلين لترتمي في حضنها باكية ، وهي تقول :

- وداعاً ، وداعاً يا أمي .

ثم بادرت هيلين بجرأة الغريب بإشارة أروعته . وبعد أن قبّلت يد أبيها ،  
وعانقت بسرعة ، إنما دون متعة ، موانا وأبل الصغير ، اختفت مع القاتل .

---

(١) يذكر هذا المشهد بقصة إيريدور في «الموت» لما تورن حين يطلب المسافر من تلك التي تزوجها سرّاً أن  
تتعمد .

صاح الجنرال وهو يستمع إلى خطوات الهارين : من أين ذهبوا : ثم تابع موجهاً الكلام لزوجته : سيدتي ، يخيل إلي أنني أحلم ، هذه المغامرة نخفي عني سرّاً ، وأنت تعرفينه .

ازتمعتت المركيزة وأجابته : منذ بعض الوقت غدت ابنتك عاطفية مولعة بقصص الحبّ والمغامرات ومتحمسة لها بشكل فريد ، رغم عنايتي بكبح هذا الجموح في طبعها ...

- ليس هذا واضحاً ...

ولكن خيّل للجنرال سماع وقع خطوات ابنته والغريب في الحديقة فتوقف عن الكلام ، وفتح النافذة بسرعة وهو يصيح : - هيلين .

وضاع هذا الصوت في الليل كأنه نبوءة باطلة . وينطق هذا الاسم الذي لم يلق عليه جواباً في العالم ، أحبط الجنرال كفعل رقية السحر الذي كبلته به قدرة شيطانية . وأبرق في خاطره نوع من الإشراق ، ورأى بوضوح المشهد الذي مرّ به ، ولعن الضعف الذي طرأ عليه ولم يفهمه ، وانتابته حمى رعشة انطلقت من قلبه إلى رأسه فقدميه ، وعاد كما كان رهيباً ، توافقاً إلى الانتقام ، وأطلق صيحة مرعبة :

- النجدة ! النجدة !

وهرع إلى أشرطة الأجراس وسحبها حتى كاد يقطعها ، وبعد أن أحدث دوي رنات غريبة ، استيقظ جميع خدمه مذعورين ، أمّا هو فاستمر في الصباح ، وفتح نوافذ الشارع ونادى الدرك ، وهرع إلى مسدساته ، وأطلق منها النار ليبحث الفرسان على سرعة السير ولتشجيع خدمه ، ودعوة الجيران . وعرفت الكلاب صوت معلمها فأخذت تنبح ؛ والحيل تصهل وتضرب الأرض بحوافرها ، وعمت بليلة مريعة وسط ذلك الليل الهادئ . وبنزوله السلالم ليجري وراء ابنته ، رأى الجنرال خدمه يقدون من جميع الأنحاء مذعورين فصاح بهم .

- ابتي؟ خطفت هيلين. اجروا إلى الحديقة! راقبوا الشارع! افتحوا الرجال الدرك! ابحتوا عن القاتل!

وأسرع فحطّم في فورة غضب السلسلة التي تقيد كلب الحراسة الضخم وهو يحثّه بالقول:

- هيلين! هيلين!

وقفز الكلب كتمر، وهو ينبع بغضب، وانطلق في الحديقة بسرعة لم يتمكن الجنرال عندها من اللحاق به وفي تلك اللحظة سُمع وقع جري الخيل في الشارع، وأسرع الجنرال يفتح الباب بنفسه للدرك وصاح:

- أيها الرقيب، هياً اقطع طريق الهرب عن قاتل السيد دي موني. ذهب مع ابتي عبر بسائتي اضرب نطاقاً حول طرقات هضبة بيكاردية، وسأذهب لأتحرق جميع الأراضي، والمتزهات والمنازل. وتوجه إلى خدمه يأمرهم: وأتم راقبوا الطريق من الحاجز وحتى فرساي.

إلى الأمام جميعاً!

وتناول بندقية حملها إليه وصيفه، وانطلق في البساتين، وهو يصيح بكلبه: ابحت! وسمع نباحاً مرعباً يأتي من بعيد فتوجه إلى الناحية التي سمع منها هدير الكلب.

حتى الساعة السابعة صباحاً لم تسفر تحريات الدرك، والجنرال وخدمه وجيرانه عن نتيجة. ولم يعد الكلب، وهذا التعب المركيز وأضناه الحزن، فعاد إلى صالونه، وقد رآه خاوياً رغم أن أولاده الثلاثة موجودون فيه؛ وقال مخاطباً امرأته:

- كنت باردة تماماً مع ابنتك. ثم أضاف: انظري إذن ماذا بقي لنا منها؟ وأشار إلى النول حيث رأى يده تطير زهرة. كانت هنا منذ لحظة. أما الآن فقد ضاعت! ويكى وهو يخفي رأسه بين يديه، وبقي لحظة صامتاً لا يجرؤ على تأمل هذا الصالون الذي كان منذ حين يقدم له أمتع لوعة سعادة منزلية. وكانت أنوار النهار تصارع



أضواء المصابيح المحتضرة، والشموع تحرق حواشيها الورقية، وكل شيء يتوافق مع قنوط الأب.

قال بعد لحظة صمت وهو يشير إلى النول: يجب تحطيم هذا، لا أستطيع أن أرى شيئاً يذكّرني بها . . .

كانت ليلة عيد الميلاد الرهيب التي فجّع بها المركيز وزوجته بفقد ابنتهما البكر، دون أن يتمكنوا من مقاومة السيطرة الغريبة الممارسة من خاطفها غير المتعمّد، بمثابة إنذار وجهه إليهما الحظ، فتغليسة وكيل بنكي أدت إلى إفلاس المركيز. ورهن أملك امرأته في محاولة مضاربة في البورصة ليعوّض على العائلة ثروتها الأولى، لكن هذا المشروع أدى إلى إفلاسه التام، ودفعه القنوط إلى محاولة كل شيء. فهاجر<sup>(١)</sup>، وانقضت ست سنوات على سفره، ولم تصل أخباره إلا نادراً إلى عائلته، إنما قبل عدة أيام من اعتراف إسبانية باستقلال الجمهوريات الأمريكية أعلن عن موعد عودته.

وهكذا ففي صباح يوم جميل، وُجد عدة تجار فرنسيين مثلهمم للعودة إلى وطنهم، يحملون ثروات مكتسبة بجهود أعمال طويلة، ومخاطر أسفار شاقة، أقدموا عليها في المكسيك أو في كولومبية وُجدوا على بعد عدة فراسخ من بوردو، على سفينة شراعية إسبانية، ومنهم رجل شاخ من التعب أو الحزن أكثر من تأثير السنين. وبدا مستنأ على الدرابزين غير متأثر بالمشهد الذي يطل عليه المسافرون المتجمعون على ظهر السفينة بعد أن تجوا من مخاطر الإبحار، واجتذبتهم جمال طقس النهار، فصعدوا جميعاً على جسر السفينة كأنهم يريدون تحية أرض الوطن. فمعظمهم يرغبون رغبة عارمة في رؤية المنارات على البعد، وينابت غاسقونية، وبرج كوردوان، وهي تختلط مع تكاوين خيالية من بعض غيوم بيضاء ترتفع في

---

(١) كان المركيز دي إغلمون أحد ضحايا نوسنجن في قصة أيمت نوسنجن كما دفعه للذهاب إلى أمريكا بحثاً عن الثروة.

الأفق . ولولا الحاشية الفضية التي تتلاعب أمام السفينة ، ولولا التلم الطويل الذي يَمحى سريعاً خلفها لخيّل للمسافرين أنهم ساكنون وسط المحيط ، لشدة هدوء البحر ، ولنقاء السماء الرائع ، وعمق لون القبة التي تندرُج تدرُجاً حساساً لتختلط بلون المياه المزرقّة وتسجّل نقطة التقائها بخط يبرق لمعانه كبريق النجوم ، والشمس تلالى ملايين الوجيهاث على امتداد سعة البحر ، حتى لتبدو سهول الماء الفسيحة أكثر ضياءً من جميع آفاق القبة السماوية . كانت جميع أشرعة السفينة متفتحة بريح رائعة الرقة . وهذه الأشرطة يمثل بياض الثلج ؛ وهذه الأعلام الصفراء المرفرفة ، وهذه المناهعة من الجبال ترسم بدقة متناهية في عمق الهواء اللامع ، وفي السماء والأوقيانوس ؛ ودون أن تتلقى أيّة ألوان إلا الظلال التي تلقىها الأشرعة المضمّبة . يوم جميل ، وهواء منعش ، ومنظر الوطن ، وبحر هادئ ، وحفيف أمواج كثيفة ، وسفينة جميلة وحيدة تنزلق فوق مياه الأوقيانوس كامرأة تسرع الخطا إلى موعد غرام . إنها لوحة ممثلة بالتناغم ، ومشهد يمكن للروح البشرية أن تعانق فيه مجالات لا تتبدل انطلاقاً من نقطة كلها حركة . مفارقة مذهشة بين العزلة والحياة ، والصمت والضجّة ، دون إمكان معرفة أين الضجّة والحياة ، وأين العدم والصمت . وهكذا فما من صوت بشري يعكّر هذا السحر السماوي ؛ فالقبطان الإسباني ، وبحارته ، والمسافرون الفرنسيون ، جلوس أو قوف ، غارقون جميعاً في وجدني عملي بالذكريات ، والحمول يرتق في الجو ، والوجوه المشرقة تعبر عن نسيان كامل للهموم الماضية ، وهؤلاء الرجال يتأرجحون على هذه السفينة الوديعه كما في حلم ذهبي . غير أن الرجل الهرم المستند إلى الدرايزين . كان ينظر إلى الأفق بين وقت وآخر بنوع من القلق ، وعلائم ريبه من صروف الدهر مرتسمة على قسماته ، كان يبدو خائفاً ألا يبطأ أرض فرنسة رغم قربه منها . هذا الرجل هو المركيز الذي واثاه الحظ لم يبق أصم أمام صرخات قنوطه وجهوده . وبعد خمس سنوات من المحاولات والأعمال الشاقة ، وجد نفسه مالكاً لثروة ضخمة . وفي تلهفه لرؤية بلاده من جديد ، وتحقيق سعادة عائلته ، سلك مسلك بعض تجار هافانا الفرنسيين ، بالإقلاع معهم على مركب إسباني متوجه إلى بوردو . غير أن خياله التعب من توقع المصيبة رسم له الصور

الأكثر حلاوة عن سعادته الماضية ، وخيّل إليه وهو يرى عن بعد الخطّ الأسمر الذي يرسم حد اليابسة أنّه يُنعم النظر بزوجه وأولاده . تصوّر مجلسه في المنزل العائلي ، وقد نَمَّ فيه بالعناق والقُبْل ، وبدت له موانا صبيّة ، مفعمة بنضرة الشباب . وعندما ارتسمت هذه اللوحة الخيالية في ذهنه ترقرت الدموع في عينيه ، وعندئذ ، وكأنه أراد أن يخفي تأثره ، نظر إلى الأفق الرطب المعاكس للخطّ الأسمر المشير إلى اليابسة وقال :

- إنّه هو ، إنّه يتبعنا .

صاح القبطان الإسباني : من هو ؟

أجاب الجنرال بصوت منخفض : مركب .

عقب القبطان غوميز : رأيت البارحة . وتأمل الفرنسي كأنه يسأله وهو يهمس في أذنه : إنه كان يطاردنا باستمرار .

ردّ العسكري الهرم : ولا أعلم لماذا لم يدركنا إذ أنّه أفضل شراعاً من سان فرديناند مركبك التمس .

- ربّما أصابه عطل في هذا الممر المائي .

صاح الفرنسي : هاهو يلحق بنا .

همس القبطان : إنّه مركب قرصنة كولومبي ، ومائزال على بعد ستة فراسخ من الأرض ، وقد خفّ الهواء .

- إنه لايجري بل يطير ، كأنه يعلم أن فريسته ستفلت من قبضته خلال ساعتين .  
بالجسارته !

صاح القبطان : إنه هو ؟ أه ! لم يلقّب عطيل عبثاً ، لقد أغرق مؤخراً فرقاطة إسبانية ، وأنا لا أخشى غيره ، لأنني لم أكن أجهد أنه يتجسّر في منطقة الأنتيل . . . ثم تابع بعد وقت استراحة نظر فيها إلى أشرعة مركبه : أه ! أه ! إن الريح تهبّ ، وستصل ، يجب ذلك ، لأن الباريسي لايرحم .

- أجاب المركيز، وهاهو بدوره يصل أيضاً .

لم تعد المسافة الفاصلة بين عطيل والسفينة الإسبانية أكثر من ثلاثة فراسخ، وبالرغم من أن طاقم السفينة لم يسمع محادثة المركيز والقبطان غوميز، فقد قاد ظهور هذا المركب الشرعي معظم البحارة والركاب إلى المكان الذي وُجد فيه المتحاوران، لكن الجميع حسبوا المركب المقبل سفينة تجارية، وراحوا يتأملونه باهتمام، صاح بعده أحد البحارة بنبرة قوية: قسماً بسان جاك سنُصلى ناراً؛ هوذا القبطان الباريسي .

عند هذا الاسم الرهيب، انتشر الرعب على السفينة، وحلت فوضى لا يمكن الإعراب عنها . وحفز القبطان الإسباني بكلماته بحارته على سرعة الحركة، إذ أنه أمام هذا الخطر يريد أن يصل إلى البرّ مهما بلغ الثمن . وأراد أن ينشر قلوبه المربّعة العالية والمنخفضة كلها بسرعة، على يمين السفينة ويسارها ليهيئ للريح كامل مساحة سطوح الأشرعة التي تزود الصواري . ولكن لم تتمّ هذه المناورات دون التعرّض لصعوبات عديدة لا يبالي بها بالطبع الطاقم الماهر الذي يشير الإعجاب في المركب الحربي . وبالرغم من أن عطيل كان يطير كالستونو بفضل توجيه أشرعه، فقد بدا وكأنه لا ينقص كثيراً في الظاهر المسافة الفاصلة بينه وبين السفينة مما ملأ نفوس الفرنسيين المسافرين بالأوهام العذبة . وفجأة وبعد جهود هائلة، وفي اللحظة التي بدت فيها سان فرديناند تتوقّع انطلاقة جديدة، بعد مناورات ماهرة ساعد بها غوميز نفسه بالصوت والحركة، أعقبت حركة دقّة خاطئة، متعمّدة دون شكّ، وضع نوتي الإشارة فيها السفينة بشكل منحرف . وضربت الريح الأشرعة جانبياً فتخلّخت فجأة وتنت وأوشكت أن تنطوي والتفت حبالها وانقص الصاري الخارجي ثم اقتلع وانتاب القبطان غضب فائق الوصف جعله أكثر بياضاً من أشرعه، وبغفزة واحدة وصل إلى نوتي الإشارة لكنه وهو الغاضب أخطأه بضربة خنجر إنما نجح في الإمساك به ورفعها وإلقائه في البحر<sup>(١)</sup>، وأمسك بالدقّة، وحاول أن يصحّح

(١) مشهد مفتعل! فلماذا ينظر القرصان ولديه جاسوس على متن السفينة التجارية وهو بلا حفيها منذ مدة، اقتربها من الشواطئ الفرنسية!!

الانحراف الهائل الذي غير مسار سفينة الجريئة الطيبة . وترقرقت دموع الفئوس في عينيه ؛ إذ أننا نحسّ بالأسى من خيانة قلب ننانج موهبتنا أكثر من معاناة موت محتمّ، إنّما الآن كلّما زادت شنائم القبطان قلّت ننانج العمل المجدي ؛ وأطلق بنفسه مدفع الإنذار، مؤملاً أن يُسمعَ على الساحل . وفي تلك اللحظة رد القرصان، بعد أن وصل بسرعة غير متوقّعة، بطلقة مدفع وقعت قذيفته على بعد عشر قامات من سان فرديناند .

صاح الجنرال : بالبروعة ! كم يجيد التصويب ، يبدو أن مدافعهم معدة خصيصاً لإصابة الهدف .

أجاب أحد البحارة : أوه ! عندما يتكلم هذا ، يجب الصمت . فالباريسي لا يخشى البوارج الإنكليزية .

صاح القبطان بلهجة فنوط بعد أن وجه نظاره باتجاه اليابسة فلم يظهر له شيء : قُضي الأمر ، إننا بعيدون عن فرسة أكثر مما كنت أعتقد .

عقب الجنرال بقوله : ولماذا تهتم ؟ فجميع ركابك من الفرنسيين ، وقد استأجروا سفينتك وهذا القرصان باريسي ، كما تقولون ، وما دام الأمر كذلك فارفعوا علماً أبيض و . . .

قاطعهُ القبطان : وسيغرقنا ، أليس لديه ، حسب الظروف ، كل ما يلزم عندما يريد اقتناص غنيمة ثرية .

- أه ! نعم ، إنّه قرصان .

قال البحار وقد اتابه الذعر : قرصان ! وهو بارع في ظهوره متقيداً بالفانوس ، أو هو يعرف أين يضرب ضربته .

وما أن أنهى كلامه حتى سُمع دوي قذيفة مدفع ثابتة ثقت هيكل سان فرديناند .

قال القبطان بمظهر حزين : أوقفوا الحركة .

قام الملاح الذي دافع بحماسة عن استقامة الباريسي سربياً بتنفيذ هذا الأمر  
بمهارة .

وانتظر بحارة السفينة خلال نصف ساعة قاتلة وهم فريسة الهلع الأكثر شدة،  
فسان فرديناند تحمل أربعة ملايين قرش تشكل ثروة خمسة مسافرين ، عدا ثروة  
الجنرال التي تبلغ مليوناً ومئة ألف فرنك . أخيراً ظهر مركب عظيم على بعد عشرة  
أضعاف مرمى بندقية ، وبدت فوهات مدافعه الاثني عشر مستعدة لإطلاق النار ،  
وهو مدفوع بريح كأن الشيطان هيأها خصيصاً له ؛ لكن عين البحار الماهر نَحَمَنَ  
بسهولة سرّ هذه السرعة ، إذ يكفي تأمل انسياب السفينة القرصانية للحظة ، وشكلها  
المتطاوّل ، وضيقها ، وعلو صواريخها ، وتفصيل أشرعتها ، وخفة تجهيزاتها ، والسهولة  
التي يتمكن فيها جمّع بحاراتها المتحدّين كرجل واحد من إدارة التوجيه الكامل  
للمساحة البيضاء التي تقدّمها أشرعتها . كل شيء يشير إلى مدى القدرة الفائقة  
والأمان في هذه المخلوقة الخشبية الرشيفة ، السريعة ، البارعة كحصان سبق أو طير  
جارج . كان طاقم مركب القرصان صامتاً مستعداً ، في حال المقاومة ، على افتراض  
السفينة التجارية المسكينة التي بقيت لحسن حظها ساكنة مثل تلميذ كشف معلمه  
أخطائه .

هتف الجنرال وهو يشدّ مصافحاً يد القبطان الإسباني : لدينا مدافع !

ألقي هذا الأخير على العسكري الهرم نظرة مفعمة بالجرأة والفتور وقال له :  
ولكن أين الرجال ؟ نظر المركيز إلى طاقم سان فرديناند وارتشم . كان التجار الأربعة  
شاحبين ، مرتعبين ، والبحارة مجتمعين حول واحد منهم ، ويبدو أنهم يشاورون  
لينحازوا إلى عظيم ، فقد كانوا يتأملون مركب القرصان بفضول جشع . وكان  
القبطان ورئيس البحارة والمركيز وحدهم يتبادلون بالنظر أفكاراً شهمة .

قال المركيز : أه ! أيها القبطان غوميز ، ودّعت في السابق بلادي وعائلتي  
والقلب ممتلئ حرارة . فهل يجب أيضاً أن أنخلي عنهم في اللحظة التي جئت أحمل

فيها الفرح والسعادة إلى أولادي . التفت الجنرال ليلقي في البحر دمعة غضب فأبصر  
نوتي الإشارة يسبح باتجاه مركب القرصان .

أجاب القبطان : هذه المرة ستودّعهم نهائياً دون شك .

نظر الفرنسي إلى الإسباني نظرة حمقاء أرعبته . وفي تلك اللحظة كان  
الركبان قد تلاصقا جنياً إلى جنب تقريباً ، ومن منظر طاقم المركب العدو أيقن الجنرال  
بصدق نبوءة غوميز المشؤومة ، فإلى جانب كل حجيرة فيه يتجمع ثلاثة رجال يدون  
بمظاهر أجسامهم الرياضية ، وملامحهم المرئعة وأذرعهم العصبية العارية كأنهم  
نماثيل من البرونز ، فلو أن الموت أصابهم لبقوا واقفين ، والبحارة ، المسلحون جيداً ،  
نشطون ، خفيفو الحركة ، شجعان ، متهيثون بصمت . وجميع هذه الوجوه القوية قد  
لوححتها الشمس ، وقتها الأعمال المستمرة ، فأعينهم تلمع كأن شرر النار يتطاير منها  
وهي تملن عن نياحة قوية ورغبات جهنمية . والصمت العميق سائد على سطح  
المركب القرصاني القائم باكتظاظ الرجال والقبعات ، المنبئ عن نظام صارم توجه به  
إرادة قوية هؤلاء الشياطين البشريين . وكان القائد يقف عند قاعدة الصاري الكبير ،  
ذراعه متصلبان ، دون سلاح ، باستثناء فأس عند قدميه ، وعلى رأسه قبعة من لباد  
عريضة الحواف تقيه من الشمس ويخفي ظلها وجهه ، والمدفعيون ، والجنود ،  
والبحارة أشبه بكلاب تحشو عند أقدام أسيادها توجه بالتناوب عينيها على القبطان  
زعمهم وعلى السفينة التجارية . وعندما تلامس الركبان أيقظت الرجّة القرصان من  
أحلام يقظته ، وهمس كلمتين في أذن ضابط شاب كان على مقربة منه . فصاح  
الضابط : خطاطيف الاقتحام!

وبسرعة عجيبة شبكت سان فرديناند بعطيل ، ووفقاً للأوامر المعطاة بصوت  
منخفض من القرصان ، ومكررة بصوت عال من الضابط ؛ كان الرجال المحددون  
لكل مهمة يذهبون كطلاب مدرسة إكليريكية أثناء توجههم إلى القديس ويهرعون إلى  
سطح السفينة ، يوثقون البحارة والمسافرين ويستولون على الكنوز . وفي لحظة  
نُقلت الدنان الملؤة بالفروش ، والمؤن وطاقم بحارة سان فرديناند إلى سطح عطيل .

وأحسن الجنرال كأنه في كابوس حلم عندما وجد يديه موثقتين وهو ملقى على يالة كأنه رزمة بضاعة . وقامت مداولة بين الفرسان وضابطه وبحار يبدو أنه مسؤول عن الطاقم . وعندما انتهى النقاش الذي لم يستمر طويلاً ، صفر البحار إلى رجاله بناء على أمر أعطي له ، فقفزوا جميعاً إلى سان فرديناند وتسلقوا الحبال وبدؤوا بجردونها عن الصواري ، ويفكونها عن الأشرعة وعن الأعتدة بسرعة مماثلة لسرعة جندي يُعري في ميدان القتال زميلاً له مات ويتزححذاءه ومعطفه وهما هدف جسعه .

قال القبطان الإسباني للمركز بيرود ، وكان قد رصد بعينه حركات قادة مركب الفرسان الثلاثة خلال المداولة ، وحركات البحارة التي سبقت النهب المنظم لسفينة .

- لقد هلكنا؟

- سأله الجنرال بيرود : لماذا؟

أجابته الإسباني : ماذا تريد أن يفعلوا بنا ، أدر كوا دون شك أن من الصعب عليهم أن يبيعوا سان فرديناند في أي من مرفأ فرنسة أو إسبانية وسيخرفونها كي لا تتركهم . أما بالنسبة لنا فهل تعتقد أنهم سيتحملون تأمين تغذيتنا إلى أن يجدوا مرفأ مناسباً يطلقون سراحتنا فيه؟

ما كاد القبطان ينهي كلامه حتى سمع الجنرال صراخاً رهيباً تبعته ضجة صماء ، سببها سقوط عدة أجسام في البحر ، والثفت فلم ير التجار الأربعة ، بل رأى ثمانية مدفعيين ذوي وجوه صارمة ، وماتزال أذرعهم مرفوعة في الهواء ، لحظة نظر إليهم فيها العسكري برعب .

قال له القبطان الإسباني بيرود : هذا ما قلته لك .

رفع المركز رأسه فجأة ، كان البحر قد استعاد هدوءه ولم يستطع حتى رؤية المكان الذي غاص فيه رفاقه النعساء . فهم يتدحرجون في هذه اللحظة ، وأرجلهم



وأيديهم مربوطة، تحت الأمواج، هذا إن لم تكن الأسماك قد التهمتهم. وعلى بعد خطوات منه كان موجة الدفة الخائن وبحار سان فرديناند الذي أشاد سابقاً بقدرة القبطان الباريسي قائد عطليل، وهما يتحادثان بأخوة مع القراصنة ويشيران بالإصبع إلى بحارة سان فرديناند الذين يريانهم جديريين بالانضمام إلى طاقم عطليل. أما الآخرون فقد قام بحاران فتياً بربط أقدامهم رغم الشتائم المقذعة، وعند انتهاء الاختيار، قام المدفعيون الثمانية بالتخلص من المحكومين ورموهم دون أي احتفال في البحر. ورأى القرصان بفضول ماكر مختلف الطرق التي سقط بموجبها هؤلاء الرجال، وتكشيراتهم، وعذابهم الأخير، لكن وجوههم لم تعبر عن سخرية، أو دهشة أو شفقة، فالأمر بالنسبة لهم حدث عادي جداً؛ ويبدو أنهم القوه. أما الأكبر عمراً فقد فضلوا تأمل البراميل الممتلئة بالقروش الموضوعة عند قاعدة الصاري الكبير بابتسامة قائمة ومحددة. وكان الجنرال والقبطان غوميز جالسين على بالة بتشاوران بنظرة شبه قائمة بعد أن وجدا نفسيهما الشخصين الوحيديين الباقيين على قيد الحياة من طاقم سان فرديناند، فالبحارة السبعة الذين اختارهم الجاسوسان بين البحارة الإسبانيين تحولوا بفرح إلى يبروين.

صاح الجنرال فجأة وقد انتابته موجة غضب وأنفة وأسكتت كل ألم وحذر لديه: يا للأندال العتاة.

أجاب غوميز ببرود: إنهم يخضعون لحكم الضرورة. فلو صادفت أحد هؤلاء الرجال، ألا تخرق جسمه بطعنات سيفك؟

قال ضابط القرصان وهو يوجه كلامه للإسباني: أيها القبطان، سمع الباريسي كلاماً عنك، قيل له إنك الرجل الوحيد الذي يعرف جيداً الخروج من مضائق الأنتيل وخفايا سواحل البرازيل، أتريد أن . . .

- قاطع القبطان الضابط الشاب بصيحة ازدهاء وأجاب: أموت بحراً، وإسبانياً أميناً، ومسيحياً، أنسمعني؟

صاح الضابط الشاب: إلى البحر!

عند سماع هذا الأمر أمسك مدفعيان غوميز . صاح الجنرال محاولاً إيضاح  
القرصانين : أيها الجبناء الرعايد!

قال له الضابط الشاب : لا تحمّس كثيراً يا صاحبي ، وإذا كانت شربطك  
الحمرء المتعلّقة بوسام جوقة الشرف ستحظى ببعض إعجاب قائدنا ، فأنا لا أبالي  
بها ، وسيكون لي معك بعد قليل حديث قصير .

في تلك اللحظة سمع وقع ضجّة صمّاء لم تختلط بها أية صيحة شكوى أو  
استعطاف ، فعرف الجنرال أن غوميز انشجاع مات بحاراً .

صاح وقد انتابته موجة عارمة من الغضب : ثروتي أو الموت!

أجابه القرصان ساخراً : أه ! غدوت منطقياً . تأكد الآن أنك ستحظى بشيء ما  
من قبلنا . . . . . وبإشارة من الضابط ، هرع بحاران يقيدان رجلكي الفرنسي لكن هذا  
الأخير ركلهما بجراة غير متوقعة ، وتمكن دون أن يستطيع أحد رده استلال سيف  
الضابط القرصان عن جنبه<sup>(١)</sup> ، وبدأ يجول به ويصول بمهارة جنرال خيالة استبدت به  
نشوة القتال وهو يهتف :

- أه ! أيها اللصوص ، لن تلقوا في الماء كمحارة أحد ضباط نابوليون القدامى .

وانتزعّت الصدّرات ووجهت إلى الفرنسي المنسرد عن قُرب ، مما لفت نظر  
الباريسي المشغل بمراقبة نقل المعدات التي أمر بالاستيلاء عليها من سان فرديناند  
ودون أن يتابه أي انفعال أمسك بالجنرال الشجاع من الخلف ، ورفع بسرعة ، وقاده  
إلى حافة المركب وتهباً لإلقائه في الماء كقطعة صارٍ مهملّة . وفي تلك اللحظة التفت  
عين الجنرال بعين الباريسي الضارية وعرف فيه خاطف ابنته ، كما عرف الصهر حميّه  
وهو بين يديه ، فردّه بحركة مفاجئة معاكسة للأولى وأبعده عن السقوط في البحر ،  
وكان المركيز لايزن شيئاً ، وأوقفه أمام الصاري الكبير ، وارتفعت همهمة على ظهر

(١) نسي بلزك ما ذكره سابقاً عن شد الوثاق حول يدي المركيز .

السفينة، لكن زعيم القرصان وجه نظرة واحدة إلى رجاله، فساد الصمت العميق فجأة.

قال سيد القراصنة بصوت جلي حازم: إنه والد هيلين، والويل لمن لا يقدم له جزيل الاحترام! وتعاليت صيحات التهليل الفرحة ترن على السطح، وتساعدت نحو السماء كأنها صلاة في كنيسة، كأنها أوك تسيحة شكر وقفر صبية البحارة ينار جحون على الجبال، وألقى شباهم قبعانهم في الهواء، ورج المدفعيون الأرض بأقدامهم وقفزوا في الهواء، وتحرك كل فرد أوصاح، أو صفر، أو شتم. وأحل هذا المظهر المتلئى حماساً وعصبية القلق والغم في نفس الجنرال، وردة إلى سر رهيب، وكانت أوك صرخة له عندما استرد وعيه: ابتي! أين هي؟ وألقى سيد القراصنة على الجنرال إحدى هذه النظرات العميقة التي توقع الاضطراب على الدوام، في النفوس الأكثر إقداماً دون معرفة السبب، فألزمه بالصمت أمام رضى بحارته العارم، السعداء لرؤية ما يتمتع به زعيمهم من تأثير على جميع الكائنات. وقاده نحو سلم أنزله عليه إلى أن وصل إلى باب قمرة دفعه بعنف وقال: هاهي.

ثم اختفى تاركاً العسكري القديم غارقاً في نوع من الدهول لمنظر اللوحة الظاهرة أمام عينه. وعند سماع هيلين باب قمرتها يفتح بمثل هذه المباغثة، نهضت عن ديوانة كانت ترتاح عليها، ولما شاهدت المركيز بدت منها صيحة دهشة. كانت قد تغيرت كثيراً حتى لتلزم عين أبيها معرفتها. فشمس المدارين منحت وجهها الأبيض سمرة جميلة، ولوناً رائعاً أعطاها مسحة شعرية تنم من خلالها عن مظهر كبير، وجلال حزم، وعمق عاطفة، تتأثر منها أكثر النفوس غلظة. وكان شعرها الطويل الغزير يتساقط خصللاً تخينة على عنقها المتلئى: نبلاً قبضيف أيضاً مظهر قوة إلى إياه ذلك الوجه. كانت هيلين في وقفتها وحركتها تنجّر ما تمتلك من شعور بقدرتها، وارتياح ظفر يزهو بخفة حول منخريها الورديين، كما تتجلى سعادة هادئة في مظاهر تفتح جميع محاسنها. كانت تملك في أن واحد ما لا أدري من عذوبة العذراء، وهذا النوع من الاعتزاز الخاص بالمحبوبات الأثيرات. أمة وسلطانة، تريد أن تطيع لأنها

تتمكن من أن تسود. كانت في هندام رائع يعبر عن جاذبية وأناقة، فموسلين الهند كفيل بجميع مظاهر زيتتها، لكن الديوانة والوسائد من الكشمير، وسجادة فارسية ثمينة تزين أرضية القمرة الواسعة، وأولادها الأربعة يرحون عند قدميها، وهم يبنون قصورهم العجيبة الغربية من قلائد اللآلئ، والحلي الثمينة، والمصوغات ذات القيمة العالية. وبعض مزهريات من بورسلين سيفر مزخرفة من قبل السيدة جاكوتو<sup>(١)</sup>، تحوي أزهاراً نادرة تطيب الجو بعطرها: ياسمين المكسيك، والكاميليا، وبينها ترفرف عصافير أمريكة الأليفة، فتبدو بألوانها كما الياقوت الأحمر، أو السفير الأزرق، أو العسجد المنقوش؛ ويبانو مستقر في إحدى الزوايا، وعلى جدران القمرة الخشبية المبطنة بالحرير الأصفر، كانت ترى هنا وهناك لوحات ذات أبعاد صغيرة لكنها من رسم أفضل الفنانين: مغرب الشمس لغودن<sup>(٢)</sup> إلى جانب لوحة لثربرخ، وعذراء رفايل تترنم شعراً مع رسم لجيرودو؛ و لوحة لجيراردو تكشف أخرى لدولنغ وعلى منضدة من برنيق الصين يوجد طبق من ذهب ممتلي بشمار شعبة. أخيراً كانت هيلين تبدو كملكة امبراطورية كبيرة وسط غرفة جلوس جمع فيها عشيقها المتوج أكثر التحف أناقة على الأرض. وثبت الأطفال على جدهم عيوناً تبرق حيوية، فهم قد اعتادوا العيش وسط المعارك والعواصف، والصخب، وهم يشبهون هؤلاء الرومانيين الصغار الذين يبدو عليهم فضول الدم والحرب في لوحة بروتوس من رسم دافيد<sup>(٣)</sup>.

صاحت هيلين وهي تمسك أباها وتشدبه لتتأكد من حقيقة رؤيتها: كيف أمكن أن أراك هنا؟

- هيلين.

(١) ماري فيكتور جاكوتو (١٧٧٨-١٨٥٥) عملت في مصنع سيفر، وكانت تنسخ لوحات الرسامين الكبار على البورسلين، وقد منحها شارل العاشر لقب رسامة البورسلين الأولى.

(٢) غودن، نودور Gudon, Th. (١٨٠٢-١٨٨٠): فنان يذكر لأول مرة في الملهة الإنسانية.

(٣) لوحة لدافيد عرضت في صالون ١٧٨٩ وهي حالياً في اللوفر.

- أمي .

واحتضن كل منهما الآخر معانقًا ، ولم تكن معانقة الأب هي الأكثر قوة ومودة .

سألت هيلين : كنت على ذلك المركب ؟ .

أجاب الأب بمظهر حزين وهو يجلس على الدبوانة ويتأمل الأولاد الذين تجمعوا حوله ينظرون إليه بانتباه بريء : نعم ، وكدت أهلك لولا . . .

قاطعته بقولها : لولا وجود زوجي ، أقدر ذلك .

صاح الجنرال : أه ! لماذا يجب أن أعثر عليك هكذا ، يا هيلين ، أنت يا من بكيتها بحرارة ! يجب إذن أن أتأوه أيضاً على مصيرك .

سألت ميسمة : لماذا؟ ألا نسرتَ معرفتك إنني المرأة الأكثر سعادة بين النساء؟

هتف وهو يكاد يقفز مذهولاً : سعيدة؟

استأنفت وهي تتناول يديه وتقبلكهما ، وتشدّهما إلى صدرها الخافق ، وقد بدت قسماً وجهها ، وآثق السرور في عينيها ، مع تلك الملاحظة أشد تعبيراً وأكثر جلاءً .

سال وقد اتناه الفضول للاطلاع على مجرى حياة ابنته ناسياً كل شيء أمام

ذلك المظهر المتهلل : وكيف ذلك؟

أجابت : استمع يا أمي ، إن لي زوجاً ، هو العاشق ، والخدم ، والسيد ، رجلاً ، روحه بسعة هذا البحر الذي لا حدود له ، مفعمة بالرفقة كالسما ، أخيراً هو أحد الأرباب ! ومنذ سبع سنوات لم تبدر منه كلمة ، أو عاطفة ، أو حركة ، يمكن أن تنمّ عن تباين مع الانسجام المعبود لأحدثه ، وملاحظاته ، وحيه . هو ينظر إليّ دائماً وعلى شفثيه ابتسامة صديقة ، وفي عينيه شعاع فرح . هناك على ظهر المركب يسيطر صوته الداوي غالباً على زمجرات العاصفة أو صخب المعارك ، لكن هذا الصوت

هنا ناعم، شجيّ كموسيقى روميني، التي تصلني أعماله. وكل ما يمكن أن تبتكره  
نزوة امرأة أحصل عليه. بل إنه أحياناً يتعدى رغباتي. أخيراً أنا ملكة البحر، ومطاعة  
كسلطانة. -أوه! سعيدة، قالت مقاطعة نفسها، سعيدة ليست الكلمة المعبرة عن مدى  
غبطتي. إنني أمتلك حصّة جميع النساء. الإحساس بالحب، ومدى التضحية من  
أجل المحبوب، والعثور في قلبه على عاطفة لا متناهية، تضيق فيها روح المرأة على  
الدوام! قل، أهذه سعادة فقط؟ افترست ألف وجود. وأنا وحيدة هنا. وأنا الأميرة  
هنا. ولا مخلوقة من بنات جنسي وضعت قدمها على هذا المركب النيل، حيث  
فيكتور دائماً على بعد خطوات عني. ثم استأنفت بتعبير مآكر ناعم: لا يمكنه أن  
يذهب إلى أبعد مما بين مؤخرة السفينة ومقدمتها. سبع سنوات! حبّ بصمد خلال  
سبع سنوات، مع هذه الفرحة الدائمة، ومع البرهان على الوفاء في جميع  
الأوقات، أهو حبّ فقط؟ كلا! كلا! أوه! كلا! إنه أفضل من كل ما أعرف في الحياة.  
واللغة البشرية يُعجزها التعبير عن سعادة سماوية.

واتهمر سيل من الدموع من عينيها الملتهبتين، وأطلق أطفالها الأربعة آنذاك  
صرخة شاكبة، وهرعوا يتجمعون حولها كما الصيصان حول أمهم. وضرب أكبرهم  
الجنرال وهو يرمقه بنظرة مهدّدة.

قالت الأم مخاطبة ولدها: أبل، ياملاكي، إنني أبكي فرحاً.

وأجلسته على ركبتيها، وراح الطفل يداعبها بمودة وهو يحيط عنقها المهيب  
بذراعيه كشبل يريد أن يلعب مع أمّه.

هتف الجنرال المتدهش من جواب ابنته المتحمس: ألا يتابك الضجر؟.

أجابت: بلى، على الأرض عندما نرسي، ومع ذلك فأنا لا أترك زوجي أبداً.

ولكنك كنت تحبين الاحتفالات، وحفلات الرقص، والموسيقى!

الموسيقى صوته، والحفلات هي التزيّن والبهجة من أجله. أليس رضاه عن

زينة لي، كإعجاب أهل الأرض طراً بها!؟.

هوذا ما يدفني فقط كي لا ألقى في البحر هذه الحلبي والدُرر والقلائد وتيجان  
الجواهر، وهذه الثروات والأزهار وتُحَف الفن التي يغدقها علي وهو يقول لي:  
هيلين، بما أنك لاتذهين إلى العالم، فإنني أريد أن يأتي العالم إليك.

- لكن على هذا المركب يوجد رجال، رجال وقحون، رهيون، ذوو أهواء..

ردت مبتسمة: أدرك ما تعني، يا أبي، إنما اطمئن، ما من امبراطورة تحاط  
بالاحترام بقدر ما يُغدق عليّ منه؛ فهؤلاء الأشخاص متطيرون، وهم يعتقدون أنني  
الجنّة الحارسة لهذا المركب، ولغامتهم، ولجاحتهم. إنما هو ريبهم، حَدث مرة  
واحدة، أن قلل، في يوم، أحد البحارة من احترامه لي... وأضافت ضاحكة:  
بالكلام فقط. وقبل أن يعلم فيكتور بالأمر، قام رجال الطاقم بإلقائه في البحر رغم  
عفوي عنه. إنهم يحيونني كملكهم الطيب؛ وأنا أعنتي بهم عند مرضهم، وأسعدني  
أن أنقذت بعضهم من الموت بسهري عليهم بدأب ومواظبة المرأة، فهؤلاء  
الأشخاص المساكين عمالقة وأولاد.

- وعندما تشب المعارك؟

- أجابت: اعتدت عليها. لم أرعش إلا عند الأولى منها... والآن ألفت  
روحي هذا الخطر، وأردفت: عدا عن أنني ابتك. وأجبه.

- وإذا هلك؟

- سأهلك.

- وأولادك؟

- إنهم أولاد الأوقيانوس والخطر، يشاركون أهلهم الحياة... وجودنا واحد  
لا ينشطر، نحيا ذات الحياة، ومسجلون على لوحة قدر واحد، ومحمولون على  
ذات القارب، ونحن ندرك ذلك.

- تحببه إذن إلى درجة تفضيله على الجميع .

رددت : على الجميع . ولكن لاميرر لتفصي هذا السرّ . انظر إلى هذا الطفل العزيز ، إيه ! إنه هو أيضاً .

وضمتّ أبل بحماسة فائقة وهي تغدق القبلات على وجنتيه وشعره . . . .

صاح الجنرال : لكنني لن أنسى أبداً أنه ألقى بسبعة أشخاص في البحر .

أجابت : كان يجب ذلك ، دون شك ؛ فهو إنساني وشهم ، وتجنب سفك الدماء قدر الإمكان ولا يقدم عليه إلا لحماية العالم الصغير الذي يتولّجه ولصيانه مصالحه والدفاع عن المبدأ المقدس الذي يدين به . حدثه عما يبدو لك خطأ ، وسترى كيف يقنعك بتغيير رأيك .

قال الجنرال وكأنه يحدث نفسه : وجرمته ؟

عقبت برزانة باردة : لكن قد تكون فضيلة ؟ قد تكون عدالة البشر عاجزة عن الاقتصاد له ؟ .

صاح الجنرال : سيقتصر لنفسه !

سألت : ما هو الجحيم ؟ اليس انتقاماً أزلياً لبعض أخطاء يوم واحد ؟

- أه ! ضللت السبيل . لقد سحرك ، وأفسدك ، إنك تهذين .

- ابق هنا يوماً واحداً يا أبي . وستحبه عندما تستمع وتتنظر إليه .

قال الجنرال برصانة : هيلين ، نحن على بعد عدة فراسخ فقط من فرسة . . .

وارتعشت ، ونظرت من نافذة قمرتها ، وأشارت إلى البحر وهو يسط مغازات مائه الخضراء الشاسعة وقالت وهي تفرع السجادة بطرف قدمها : هي ذي بلادي .



- ولكن ألا تأنين لترى أمك، وأختك، وأخويك؟

قالت والدموع تخنق صوتها: أوه! نعم، إن أراد، وإن استطاع مرافقتي.

استأنف العسكري بقسوة: لم يعد لديك شيء يا هيلين، لا بلاد ولا عائلة؟

عقبت بمظهر زهو وبنيبرة ممتلئة نبلاً: إنني امرأته. ثم أضافت وهي تتناول يد والدها وتقبلها: هي ذي، منذ سبعة أعوام السعادة الأولى التي لم تردني منه، وهي ذي الملامة الأولى التي أسمعتها.

- وأين وجدانك؟

- وجداني! لكنه هو وجداني. وارتعشت في تلك اللحظة بعنف وقالت:

هاهو، حتى في المعركة، ومن بين جميع الخطوات أعرف وقع خطوته على سطح السفينة، وفجأة عيقت الحمرة في وجنتيها، فأشرقت فسماتها، وأبرقت عيناها، وتحوكت بشرتها إلى بياض شاحب. . . بدت السعادة والحب في عضلاتها، وأوردتها الزرقاء وارتعاشة كل جسمها بشكل لا إرادي. وتأثر الجنرال من هذه الحركة الشديدة الحساسية؛ والواقع أن القرصان دخل بعد لحظة، وجلس على كنية، وانصرف إلى ابنه البكر وأخذ يلعب معه. وساد الصمت لحظة، إذ أن الجنرال غرق في الوقت ذاته في حلم يقظة مماثل للإحساس المبهم بحلم حقيقي، وتأمل تلك القمرية الأنيقة المعائلة لعش السيون\* حيث تعيش تلك العائلة عاتمة فوق الأوقيانوس منذ سبع سنوات بين السماء والأمواج في عهدة رجل يقودها عبر أخطار الحرب والعواصف كما تقاد عائلة من قبل ربها وسط الملمات الاجتماعية. . . ونظر بإعجاب إلى ابنته، فرأها صورة خيالية لربة بحرية، مفعمة بالجمال، نرية بالسعادة، تكف جميع الكنوز التي تحيط بها أمام كنوز روحها، ويريق عينيها، والشاعرية الفائقة الوصف المتجلية في شخصيتها ومن حولها. وأبرز هذا الوضع غرابة أدهشته، وسمواً في المحاكمة والهوى يُعجز الأفكار العادية فخطط المجتمع الباردة والضيقة تموت أمام

\* السيون: طير خرافي يعتقد أنه ينسب عشه في بحر منبئز بالهدوء والسلام لذلك يُعدُّ بشير خير (م. المترجم)

هذه اللوحة . وأحسن العسكري السابق بجميع هذه الأشياء ، وأدرك أن ابنته لن تتخلى عن حياة يمثل هذه السعة ، والخصوبة في المفارقات المثلثة بحب حقيقي ، ثم أنها ذاقتم مرة الخطر دون أن يتأهبها الذعر ، ولن تعود أبداً إلى مشاهد صغيرة لعالم مسكين محدود .

سأل القرصان وهو ينظر إلى امرأته ويقطع حبل الصمت : هل أضايكما .

أجاب الجنرال : كلاً ، فهيلين صرحت لي بكل شيء ، واعتقد أننا خسرناها .

- كلاً ، عقب القرصان بحرارة ، فبعد عدة سنوات سيتيح لي التقادم المحقق لإسقاط التهم العودة إلى فرنسة ، وعندها ينتقى الوجدان ويذعن الرجل بعد ثمردٍ على قوانينكم الاجتماعية . . . وصمت أنفاً من تبرير سلوكه .

قال الجنرال مقاطعاً : وكيف يمكنك التخلص من تبكيت الضمير الناتج عن حوادث القتل المرتكبة أمام ناظري .

أجاب القبطان بهدوء : لم تكن لدينا المون الضرورية للعيش .

- لكن لو أنزلتم هؤلاء الرجال على الساحل . . .

- سيفقطعون علينا الطريق بواسطة أحد المراكب ، ولن نتمكن من الوصول إلى الشيلي .

قال الجنرال مقاطعاً : قبل أن يوجهوا إنذاراً من فرنسة إلى الأمبرالية في إسبانية .

- لكن فرنسة يمكن ألا يرضيها أيضاً قيام شخص ملاحق من قبل محكمة الجنايات فيها بالاستيلاء على سفينة مستأجرة من قبل تجار من بوردو ، ولكن ألم تقوموا أحياناً ، في ميدان القتال ، بإطلاق عدة قذائف مدفع زائدة عن الحاجة؟

صمت الجنرال وهو خجل من نظرة القرصان ، ونظرت إليه ابنته نظرة اختلط فيها الانتصار بالكآبة .

قال الفرسان بصوت عميق: جنرال، وضعت مبدأ عدم الاقتطاع من أية غنيمة، ولكن من المؤكد أن نصيبي من غنيمة سان فرديناند عند اقتسامها سيكون أكبر من ثروتك، فاسمح لي أن أعيد إليك أموالك المخصصة إنمّا بعملة أخرى.

وتناول من دولاب البساتو رزمة من أوراق البنكنوت المالية ودون أن يعدّ محتواها قدّم مليوناً للمركيز. واستأنف حديثه:

- أنت تدرك أن ليس بإمكانني أن أتسلى برؤية المارة على طريق بوردو... فإن لم تكن قد أغريت بمخاطر حياتنا البوهيمية، ومشاهد أمريكا الجنوبية، وبالي المدارس، ومعاركنا، ومشعة العمل على انتصار راية أمّة فتية، أو اسم سيمون بوليفار<sup>(١)</sup>، فيجب عليك أن تتركنا... وبانتظارك زورق وبعض الرجال المخلصين. ولنأمل لقاءً ثالثاً أكثر سعادة...

قالت هيلين بلهجة حردة: فيكتور، أريد أيضاً قضاء بعض الوقت مع والدي.

- عشر دقائق أكثر أو أقل يمكن أن تعرضنا لمواجهة مع إحدى الفرقاطات، فليكن، فهذا ما يسلبنا قليلاً، ورجالنا متضجرون.

هتفت المرأة: أوه! اذهب بأبي، واحمل إلى أختي، وأخوتي، وأضاف... و إلى أمي هذه الضمانات على أحسن ذكرياتي.

وتناولت قبضة من الجواهر، والقلائد، والحلي، وغلقتها بمندبل كشمير، وقدمتها بخجل إلى والدها. سألتها وقد أثار اهتمامه تردد ابنته قبل أن تنطرق إلى ذكر أمها: وماذا أنقل لهم من قبلك؟

---

(١) يبدو أن القبطان الباريسي فرسان كولومبي معاد لإسبانية وفي خدمة بوليفار، لكن يبدو عدم مطابقة تاريخية، فسيمون بوليفار ولد في ١٧٨٣ وحصل على استقلال فنزويلا في ١٨١٩ واستقلال غرناطة الجديدة وجعل منها كولومبية باتحادها مع الاكوادور وحرّر في العام ١٨٢٤ بوليفيا بناء على نداء من أهل البيرو. لكن نزاعات داخلية قامت ضمن البلدان الحرّة، وانهم بوليفار بالديكتاتورية فلجأ إلى المنفى حيث توفي في العام ١٨٣٠.

- أوه هل تشك بروحي! إنني في كل يوم أرجو لهم كل آميات السعادة.

استأنف الرجل الكهل، وهو ينظر بانتباه الى ابنته، القول: هيلين، لن أراك مجدداً بعد اليوم، فهل لي أن أعلم سبب هربك؟.

قالت بلهجة رصينة: هذا السرُّ لا يخصني، سيكون لي حق التصريح لك به، ولكن لم يحن الوقت لذلك. عانيت عشر سنوات من آلام لا تحتمل...

وتوقفت عن الكلام، ومدت يدها تقدّم لأبيها الهدايا التي خصّت بها عائلتها. وقبل الجنرال، الذي عودته أحداث الحرب على أفكار متسامحة في موضوع الغنيمة، الهدايا المقدّمة من ابنته، وراق له أن يعتقد أن القبطان الباريسي، بوحى روح بمثل نقاء روح هيلين وسموها سيبقى رجلاً شريفاً باستمرار مساهمته في الحرب ضد الاسبانيين، وفكّر وهو المعجب بشجاعة الرجال أن من السخف أن يتظاهر بحشمة متكلفة، وتقدّم فصاح القرصان بحرارة، وقبل هيلين ابنته الوحيدة، بذلك الفيض من الحنين الخاص بالجنود، وأتاح لدمعة أن تندرج على ذلك الوجه الذي ابتسم لها بإبانه وتعبيره الرجولي أكثر من مرة، وقدم له البحار المتأثر بشدة أطفاله ليباركهم، أخيراً تبادل الجميع تحية الوداع بنظرة طويلة لم تخل من مظاهر الحنان.

صاح الجدّ: فلتمتلئ أيامكم سعادة، وانطلق إلى ظهر الزورق.

كان منظر فريد ينتظر الجنرال في عرض البحر. فسان فرديناند، المسلّم للهب تشتعل كنار قشّ عارية، وقد لاحظ البحارة المنشغلون بإغراقها وجود شحنة روم على متنها، وهو مشروب متوفر بكثرة على سفينة عطيل، وسرّهم أن يوقدوا كمية من البُش في عرض البحر، وهي تسلية مغفورة لأشخاص تدفعهم رتابة البحر لاغتنام جميع الفرص لتنشيط مظاهر حياتهم. وبالنزول من المركب إلى زورق سان فرديناند المعد من قبل ستة من أشدها البحارة توزع انتباه الجنرال لا إرادياً بين حريق سان

فرديناند وابنته المرافقة لزوجها رئيس القراصنة وهما واقفان في مؤخرة مركب عطيل . وأمام كل هذه الذكريات، وبرؤية نوب هيلين الأبيض الذي يرفرف خفيفاً كأنه شرع إضافي وبتميزه على الأوقيانوس ذلك الوجه الكبير الجميل، المهيب إلى حد يهيم فيه على كل شيء، حتى على البحر، نسي بلا مبالاة العسكري أنه يجذب فوق قبر غوميز الشجاع، ومن فوقه عمود هائل من الدخان يخيم كسحابة دكنا، وأشعة الشمس التي تخترقه هنا وهناك تلقي عليه ومضات شاعرية؛ فكان سماءً ثانية، قبة قائمة تلتصق تحتها أنواع من الثريات، ومن فوقها تسود زرققة الجلد غير المتفسرة التي تبدو ألف مرة أكثر جمالاً في هذا التباين العابر؛ وتلك الألوان الغريبة. لذلك الدخان الأصفر حيناً، والأشقر والأحمر والأسود في تدرجات ضبابية أحياناً أخرى تغطي المركب الذي يفرق ويطلق ويضج، والذهب يصفر وهو يقرض الحبال ويجري على المركب كفتنة شعبية تخترق شوارع مدينة، والرؤم يحدث لها أزرق يترافق كأن جنية البحار حركت ذلك السائل الغضوب، كما يد طالب تحرك شعلة بنش في حفلة سكر وعريضة. لكن الشمس الأكثر قوة من الذهب الغيور من ذلك البريق المتغطرس، كادت تحجب على البعد رؤية أشعة ألوان ذلك الحريق؛ فكانت كغلالة، أو شبكة تتطاير وسط ذلك السيل من نيراته. واغتم عطيل للمهرب هبة الريح الخفيفة في ذلك الاتجاه الجديد، وراح يتمايل من جهة وأخرى كحظب\* يتأرجح بين نسيمات الهواء، ثم سار هذا المركب مسرعاً دون تمور باتجاه الجنوب، فكان يختفي حيناً محتجباً خلف العمود الأيمن الذي يلقي بظله بشكل خيالي فوق المياه ويبدو حيناً آخر وهو يرتفع وفق خط منطوري؛ وفي كل مرة ترى هيلين أباهاً تلوح بمندبلها لتحييه من جديد. وما لبث سان فرديناند أن غرق محدثاً فوراً مسحه الأوقيانوس بسرعة. ولم يبق بعدئذ من كل هذا المشهد إلا غيمة تتلاعب بها الريح. وغدا عطيل بعيداً، والزورق يقترب من البايسة والغيوم تقف

• حظب Cerf volant: حشرة من مفصليات الأجنحة تتمايل في سيرها.

حاجزاً بين ذلك القارب الواهي والمركب، ورأى الجنرال ابته للمرة الأخيرة عبر تشققات دخان متموج، وكانت رؤية تنبؤية! فالمنديل الأبيض والشوب يبدوان وحدهما في عمق هذه السمرة الداكنة، وبين الماء المائل للخضرة والسماء الزرقاء غاب المركب فلم يعد يرى، وغدت هيلين نقطة غير منظورة، خطأً منحللاً رشيماً، ملاكاً في السماء، فكرة، وذكرى.

بعد أن استعاد المركب ثروته، توفي مضى من التعب. وبعد عدة أشهر من وفاته، وفي العام ١٨٣٣، اضطرت المركبة أن تصحب موانا إلى مناطق المياه المعدنية في البيرينه فالفتاة الحرود أرادت أن تستمتع بجمال تلك الجبال، وعند عودتها إلى تلك الينابيع بادرت أمها بالحكاية التالية:

يا الهي، لقد أسانا، يا أمي، في عدم بقائنا مدة أخرى في الجبال! كنا أفضل حالاً من وضعنا هنا. هل سمعت أنات هذا الطفل البغيض المتواصلة، وثرثرات تلك المرأة التعيسة، التي كانت تتكلم، على الأرجح، بلهجة إقليمية؟ إذ أنني لم أفهم كلمة مما قالته. أي نوع من الأشخاص حلوا جيراناً لنا! كانت هذه الليلة من أسوأ الليالي التي مرت علي في حياتي.

أجابت المركبة: لم أسمع شيئاً، لكن يا ابنتي العزيزة سأذهب لرؤية المضيغة وأطلب منها الغرفة المجاورة، فنكون وحدنا في الشقة، ولن نزعج من أية ضجة. كيف تجددين نفسك هذا الصباح؟ هل ما تزالين تعباً؟

بعد نطق العبارتين الأخيرتين، نهضت المركبة متجهة نحو سرير ابنتها وجست يدها قائلة:

- هيا لتركي كيف أنت؟

- أوه! اتركيني يا أمي، فيدك باردة.

واستدارت الفتاة بعد هذه الكلمات متقلبة على وسادتها بحركة حرَد، إنما بظرافة يستحيل على أم أن تستاء منها . وفي تلك اللحظة تصاعدت من الغرفة المجاورة، آنة ذات نبرة رقيقة متطاولة من شأنها أن تغطر قلب امرأة فهتفت المركيزة :

- ولكنك سمعت هذا طوال الليل، فلماذا لم توقظيني؟ كان بإمكاننا . . . . لكن عبارتها انقطعت بأنة أكثر عمقاً فاستأنفت المركيزة وهي تخرج مسرعة :  
هناك إنسان يموت !

هتفت موانا : أرسلي لي بولين بسرعة . أريد أن ارتدي ثيابي .

نزلت المركيزة بسرعة إلى الفناء ووجدت صاحبة النزول وسط عدة أشخاص بدوا يستمعون إليها باهتمام وقالت لها :

- سيدتي، يبدو أنك وضعت إلى جانبنا شخصاً يعاني ألماً مبرحاً .

هتفت صاحبة الفندق : آه ! لا تحديثيني عن هذا ! أرسلت في استدعاء العمدة .

تصورّي إنها امرأة، بائسة مسكينة وصلت البارحة مساءً على قدميها آتية من اسبانية، ليس معها جواز سفر ودون نقود، وتحمل على ظهرها طفلاً يحتضر . لم أستطع أن أرفض قبولها هنا، وتوجهت هذا الصباح بنفسني لأراها، فعندما حلت هنا البارحة أحسست بألم مبرح مما تعانیه . يا للمرأة الشابة المسكينة ! نامت مع طفلها، وكلاهما بصارع الموت . وقد قالت لي وهي تتزع دُبلة ذهبية من أصبعها : سيدتي، لا أملك إلا هذه؛ وأعتقد أنها كافية لتسديد أجرة إقامتي هنا، وهي ليست طويلة على ما أعتقد . والنفتت إلى طفلها قائلة : بالصغيري المسكين، سنموت هنا معاً . أخذت دبلتها، وسألتها من تكون . لكنها رفضت أن تبوح لي باسمها . . . أرسلت في طلب الطبيب والسيد العمدة .

صاحت المركيزة : ولكن قدّمي لها كل المساعدات الممكنة والضرورية لها .

يا إلهي، لعل بالإمكان إنقاذها قبل فوات الوقت! سأدفع لك كل النفقات التي تترتب عن ذلك . . .

- أه! يا سيدتي، يبدو أنّها عزيزة النفس جداً، ولا أعلم إن كانت سترضى .

- سأذهب لرؤيتها . . . .

وأسرعت المركيزة متوجهة إلى غرفة المرأة المجهولة دون أن تفكر بما قد يسبب مرأها وهي ما تزال في ثياب الحداد، من ضيق، لتلك التي قبل عنها أنها محتضرة. وشحب لون المركيزة لمنظر المرأة المجهولة، ورغم الألام الرهيبة التي غيرت قسّات تلك المخلوقة، عرفت فيها ابتها البكر هيلين، أمّا هيلين فانتصبت وألقت صرخة مرتعبة وهي ترى امرأة مجللة بالسواد إلى جانبها، وتهاكت ببطء على سريرها عندما عرفت أن تلك المرأة أمها .

قالت السيدة دي اغلمون: ابنتي! ماذا يلزمك؟ بولين! . . . موانا! . . .

أجابت هيلين بصوت ضعيف: لا يلزمني شيء، تأملت رؤية أبي مجدداً،

لكن حدادك ينبتني . . .

لم ته كلامها؛ بل ضمتّ ابنتها الى حضنها كأنها تريد تدفئته، وقبّلت جبينه، ورمت أمها بنظرة ما تزال تنطق بالملامة رغم أنها مخففة بالصفح، وتجاهلت المركيزة هذا اللوم؛ وتجاهلت أن هيلين ابنة تكوّنت سابقاً ضمن الدموع والقنوط، ابنة الواجب، ابنة كانت سبب متاعبها الكبيرة. وتقدّمت برقة نحو ابتها البكر، منذكرة فقط أن هيلين عرّفتها على مسرّات الأمومة. كانت الدموع تملا عيني الأم، وصاحت وهي تعانق ابتها: هيلين! ابنتي . . . لزمت هيلين الصمت. فقد أحست بطفلها يلفظ النفس الأخير .

في تلك اللحظة دخل الطبيب تبعه موانا وبولين، وصاحبة النزل. وكانت المركيزة تضم يد ابتها الباردة كالجليد بين يديها وتتأملها بقنوط حقيقي. كانت هيلين



متهيجة من نكبة ألت بها فقد غرق مركب زوجها البحار القرصان ولم تستطع أن تنفذ منه إلا طفلها الأخير<sup>(١)</sup>؛ وصاحت بصوت رهيب في وجه أمها: كل هذا بسببك، فلو أنك كنت لي كما . . .

رددت السيدة دي إغلمون وهي تخلق صوت ابتها بصيحات عالية: موانا، اخرجي، اخرجوا جميعاً. والتفتت إلى هيلين: رحماك ابنتي، فلنكف في هذه اللحظة عن صراعاتنا المؤسفة.

أجابت هيلين وهي تبذل جهداً غير طبيعي: سأصمت، فانا أم، وأعلم وجوب الكتمان عن موانا . . . أين ولدي؟

دخلت موانا يدفعها الفضول، وقالت تلك الابنة المدللة:

- يا أختي، يقول الطيب . . .

قاطعتها هيلين: لاجدوى من أي شيء. أه! لماذا لم أمت وأنا في السادسة عشرة من العمر، عندما أردت أن أنهي حياتي! السعادة غير موجودة أبداً خارج القوانين موانا . . . أنت . . .

وماتت وهي تحني رأسها على رأس طفلها بعد أن ضمته يديها متشنجتين.

استأنفت السيدة دي إغلمون عندما دخلت إلى غرفتها حيث أجهشت بالبكاء: موانا، أردت أختك دون شك أن تقول إن سعادة الفتاة لا يمكن أن تكون في حياة المغامرات، وخارج الأفكار المتلقاة، وبصورة خاصة لا يمكن أن تتحقق بعيداً عن أمها.

---

(١) تذكروا بإصبع الله. وأنا ما تزال في القصة نفسها.

المجلد الثاني

العدد الثاني

العدد الثاني

العدد الثاني

العدد الثاني

العدد الثاني

العدد الثاني

العدد الثاني

العدد الثاني

## شيخوخة أم مذنبه

في الأيام الأولى من شهر حزيران ١٨٤٤ ، كانت امرأة في الخمسين من العمر تقريباً ، لكنها تبدو ، أكبر سناً من عمرها الحقيقي ، تتجول على طول ممر في حديقة قصر كبير يقع في شارع بلوم الباريسي ، مستمتعة بشمس منتصف النهار . وبعد أن أجرت دورتين أو ثلاث دورات في الممر المتعرج قليلاً كي لا يضيع عن نظرها مرأى نوافذ أحد الأجنحة الذي يسترعي انتباهها ، جلست على أحد المقاعد نصف الحقلية التي تُعدّ من أغصان الشجر القشبيّة المزدانة بلحائنها . ومن مكان وجود هذا المقعد الأنيق أمكن للسيدة أن تحيط بنظرها ، عبر شبك من الأسبجة ، الجادات الداخلية التي تتصب داخلها قبة الإنفاليدي بنصف كرتها المذهبة البارزة وسط هامات أشجار الدردار ؛ وهو منظر يثير الإعجاب وسط الحديقة الأقل مهابة التي تنتهي بواجهة أحد أجمل قصور ضاحية سان جرمن . هناك كل شيء صامت ، الحدائق المجاورة ، والجادات ، والإنفاليدي ، ذلك أن النهار لا يبدأ في ذلك الحين النبيل إلا عند الظهر باستثناء نزوة ما ، كأن ترغب إحدى السيدات الشابات التريّض على صهوة حصان ، أو أن يتهيا أحد الدبلوماسيين القدامى لزيارة بروتوكولية . وعندها يستيقظ كل شيء ، وماعداها فالكلّ ، السادة والخدم ، ينام .

كانت السيدة المعجوزة المبكرة في يفتنتها هي المركبزة دي إغلمون ، والدة السيدة دي سان هرين ربّة هذا القصر الجميل . وكانت المركبزة قد حرمت نفسها من كل شيء وخصت ابنتها بكل ثروتها ، محتفظة لنفسها بمعاش لمدى الحياة . والكونتيسة موانا دي سان هرين هي آخر أولاد السيدة دي إغلمون ، وقد ضحّت المركبزة من أجلها بكل شيء لتؤمّن زواجها بوربث أحد أشهر البيوتات الباريسية .

وكان هذا امرأً طبيعياً جداً . بعد أن فقدت ولدين على التتابع ، أحدهما غوستاف ، مركزيز دي إغلمون الذي قضى جرأه وباء الكوليرا ، والأخر أبيل وقد استشهد على أبواب قسطنطينية . وقد ترك غوستاف أولاداً وأرملة ، لكن المودة الغائرة التي كانت تكنها السيدة دي إغلمون لولديها ازدادت ضعفاً بانفصالها الى أحفادها . كانت تصرف بلباقة وتهذيب مع أرملة ابنتها الشابة ، إنما بماطفة سطحية لا تتعدى الذوق السليم واللباقات الواجب التقيّد بها نحو الأقارب ، وقد قامت المركزية بتصفية حقوق ولديها المتوفين من الميراث بشكل تام ؛ وخصت ابنتها الأثيرة موانا بكل مدّخراتها وأملاكها الخاصة . وقد كانت موانا ، على الدوام ، وهي الجميلة ، الجذابة منذ صغرها ، موضع إحدى هذه الإشارات<sup>(١)</sup> الفطرية أو اللاإرادية لدى الأمهات ؛ إشار تعاطفات مشؤومة تبدو غامضة ، أو أن الملاحظين يعرفون جيداً تفسيراتها . فوجه موانا الغائت ، ورنة صوت تلك الابنة المحبوبة ، وتصرفاتها ، وسلوكها ، ومظهرها ، وحرركاتها وكل ما فيها ، يوقظ لدى المركزية الانفعالات الأكثر عمقا التي يمكن أن تثير أو تلقق أو تسرق قلب أم . فمبدأ حياتها الحاضرة ، وحياتها المستقبلية ، وحياتها الماضية ، رهن قلب تلك الابنة الشابة التي خصته بكل كنوزها . فموانا لحسن الحظ قد بقيت على قيد الحياة بعد أن قضى أخوة أربعة لها ؛ إذ أن السيدة دي إغلمون فقدت في الواقع ، وبالطريقة الأكثر نعاسة ، وفقاً لما يرويه أبناء المجتمع ، ابنة ظريفة بقي مصيرها مجهولاً تقريباً ، وصيماً صغيراً أودى به حادث مروّع<sup>(٢)</sup> وهو في الخامسة من العمر . والمركيزة ترى دون شك ، نعمة من السماء ، فيما خصته من نصيب طيب للابنة الأثيرة إلى قلبها ، وهي لا تحتفظ إلا بذكريات ضعيفة عن أولادها الذين سقطوا ضحية نزوات المتون ، ويقوا في عمق روحها كقبور مرتفعة في ميدان معركة ، لكن

(١) موانا ابنة الحب : جعلها بلزك ابنة جولي وشارل دي قانديس لثابتة عقدة الفضة .

(٢) تلميح إلى حرب هبلين في (فصل اللغابن) وموت شارل في (إصحع الله) .

أزهار البراري أخفتها تقريباً . كان بإمكان العالم أن يحاسب المركيزة حساباً عسيراً عن هذه اللامبالاة ، وهذا الإيثار للابنة . لكن عالم باريس منشغل بسبيل من الأحداث ، والموضات ، والأفكار الجديدة ، حتى أن كل حياة السيدة دي إغلمون يمكن أن تنسى بطريقة ما . فما من أحد يفكر بانتهامها بجريمة برود أونسيان لانتهام أي إنسان ، بينما حنانها الفياض لموانا يهم كثيراً من الناس ، ويحظى بكل قداسة الانحياز للابنة . فالمركيزة لا تظهر إلا قليلاً في المجتمع ، وهي بالنسبة لمعظم العائلات التي تعرفها ، طيبة ، حنون ، ورعة ، متسامحة . والحال ألا يجب وجود دافع مشير لتجاوز هذه الظواهر التي ترضي المجتمع ؟ ثم ، ألا يستحق الشيوخ المغفرة عندما لا يظهرون إلا كالظلال فقط ، ولا يريدون أن يكونوا إلا ذكرى ؟ أخيراً ، فالسيدة دي إغلمون نموذج يُذكر بكثير من المراعاة من قبل الأولاد لأبائهم ، والأصهار لحمواتهم . فقد منحت في وقت مبكر أملاكها لموانا ، مسرورة لسعادة ابنتها الكرتيسة الشابة ، لانحيا إلا بها ومن أجلها . فإذا وجّه شيوخ حذرون ، أو أعمام مهموم اللوم لهذا السلوك بقولهم : إن السيدة دي إغلمون قد تندم يوماً ، لأنها منحت كل ثروتها لابنتها ، فإذا كانت واثقة من قلب السيدة دي سان هيرين فهل يمكن أن تكون بذات الثقة تجاه أخلاق صهرها ؟ وقام ضد هذه النبوءات استكثار عام ، وكانت عبارات المديح تكال من جميع الجوانب لموانا .

قالت امرأة شابة : يجب الاعتراف بهذا الفضل للسيدة دي سان . هيرين فأما لم تلحظ أي تغيير حولها . فهي في سكن مريح ، ونمت تصرفها عربة على الدوام ، ويمكنها أن تذهب أنى شاءت كما في السابق . . .

- باستثناء مسرح الإيطاليين ، علق بصوت هامس أحد المشوشين القدامى ، أحد هؤلاء الأشخاص الذين يعتقدون أن من حقهم أن يكيلوا لأصدقائهم التهكمات بذريعة البرهان على استقلاليتهم . فالنبيلة العجوز لانحبا إلا الموسيقى ، وهي في

الحقيقة أشياء غريبة عن ابتها، وقد كانت موسيقية بارعة في زمنها! ولكن بما أن مقصورة الكونتيسة الشابة مغزوة دائماً بتلك الفراشات الفتيات، ومن الممكن أن تضايق تلك الابنة الصغيرة التي تعامل كفتاة مدللة، فإن الأم المسكينة تمتنع عن الذهاب إلى مسرح الايطاليين.

قالت إحدى الفتيات ممن هن في سن الزواج: نحرص السيدة دي سان هيرين على تأمين سهرات ممتعة لأمها، فصالونها ملتقى لكل المجتمع الباريسي.

أجاب المشوش الطفيلي: صالون لايتبه فيه أحد للمركيزة.

قال أحد الزهويين داعماً رأي السيدات الشابات: الواقع أن السيدة دي إغلمون ليست أبداً وحيدة.

أجاب الملاحظ العريق بصوت منخفض: في الصباح، في الصباح تكون العزيزة موانا نائمة. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر تنزه العزيزة موانا في غابة بولونية. وفي المساء تذهب العزيزة موانا إلى حفلة رقص أو إلى مسارح الفكاهة والتهريج... لكن من الحق الاعتراف أن الوقت متوفّر للسيدة دي إغلمون لرؤية ابتها العزيزة أثناء ارتداء ثيابها، أو على مائدة العشاء إن شاءت المصادفة أن تعشّى موانا العزيزة مع أمها العزيزة<sup>(١)</sup>. وأردف المشوش الطفيلي وهو يمسك بذراع مربّ نجول وقد حديثاً على المنزل حيث تدور هذه المسامرة:

- لم تمض ثمانية أيام على رؤيتي تلك الأم المسكينة حزينة، تجلس وحيدة قرب النار.

سألها: ما بك؟ - نظرت إلي المركيزة وهي تبسم، لكنها كانت بالتأكيد قد بكّت وقالت لي:

(١) تصدّرت جولي تجاه موانا كتصدّرت الأب غوريزو تجاه ابنته ومجد العفوق ذاته.

أفكر إنه أمر غريب أن أوجد وحيدة، بعد أن كان لي خمسة أولاد، لكن هذا قدرنا! ثم إنني سعيدة عندما أعلم أن موانا تستمتع لاهبة! يمكنها أن تركز إلي، أنا التي عرفت سابقاً زوجها، وهو رجل مسكين أسعده أن يتزوجها وهو مدين لها بالتأكيد، بتسميته عيناً وبالوظيفة التي يشغلها في بلاط شارل العاشر<sup>(١)</sup>.

لكن أخطاء كثيرة تنزل في أحاديث المجتمع يُتطرق فيها بخفة إلى مصائب أكثر عمقاً، يضطر فيها مؤرخ الطبائع إلى أن يزن بتعقل الادعاءات المطروحة دون اكتراث من قبل أشخاص لامبالين. أخيراً قد يكون من الأفضل عدم النطق بحكم فاصل، يحدد أيهما على خطأ، وأيهما على صواب، الأم أو الابنة؛ فبين هذين القليلين لا يوجد إلا حكم واحد ممكن، وهذا الحكم هو الله! الله الذي يعزز غالباً انتقامه في قلب العائلات، ويستخدم دوماً الأولاد ضد الأمهات، والآباء ضد الأولاد، والشعوب ضد الملوك، والأمراء ضد الأم، والكل ضد الكل، يستبدل في العالم المعنوي بالعواطف عواطف أخرى، كما تدفع أوراق الشجر الفتية في الربيع الأوراق القديمة، متصرفة وفق نظام ثابت نحو هدف لا يعلمه إلا الله، فكل شيء يذهب إلى أحضانه، أو بالأصح يعود إليه.

هذه الأفكار الورعة، الطبيعية جداً في قلوب الشيخ، كانت تتردد مشتتة جداً في روح السيدة دي إغلمون، وهي فيها نصف نيرة، نارة فاسدة، ونارة أخرى متبسطة كلياً، كأزهار تلتفها العاصفة على سطح المياه. كانت جالسة، نعبة، أضعفها التأمل الطويل، في إحدى أحلام اليقظة التي تتجلى فيها كل الحياة، وتنبسط أمام أعين أولئك الذين يحسون مسبقاً بقرب الموت.

كانت تلك المرأة، التي شاخت مبكرة، لوحة فضولية بالنسبة لشاعر يمر في

---

(١) نلصح إلى الأخطاء الأولى ودور جول في نجاج المركيز دي إغلمون.

الجادة، فعند رؤيتها تجلس في ظل شجرة سنط خفيف، ظل السنط عند الظهر، يعرف كل انسان أن يقرأ أحد آلاف الأشياء المسجلة على ذلك الوجه الشاحب والبارد، حتى وسط أشعة الشمس الدافئة؛ ووجهها المعتلى تعبيراً يمثل شيئاً ما أكثر رصانة، مما هي حياة في انحطاطها، أو أكثر عمقاً من روح أضعفتها التجربة. كانت أحد تلك النماذج التي تستوقفكم للحظة، لأنها من بين آلاف الوجوه المحترقة لعدم تميزها، تدفعكم إلى التفكير، كتأثركم بشدة بين آلاف اللوحات في متحف، سواء برأس سام عبر من خلاله موريلو<sup>(١)</sup> عن الألم الأمومي، أو بوجه بياتريس سيني الذي لوّن فيه لغيد البراءة الأكثر إثارة للشفقة وسط أكثر الجرائم بشاعة<sup>(٢)</sup>، أو بوجه فيليب الثاني القاتم الذي عرف كيف يطبع عليه فلاسكينز<sup>(٣)</sup> الإرهاب الجليل الذي توحى به الملكية. فبعض الوجوه البشرية صور مستبدة تكلمكم، وتسالكم، وتغيب على أفكاركم الرهبة، حتى وتنظم فصائد كاملة. فوجه السيدة دي إغلمون الجليدي هو أحد هذه القصائد المرعبة، أحد هذه الوجوه المنتشرة بالآلاف في كوميديا دانتي البيغيري الإلهية.

(١) موريلو، بارنولي (١٦١٨، ١٦٨٢): رسام اسباني تميّز بلوحاته الدينية والواقعية.

(٢) لم يكن لبياتريس سيني إلا مدافع واحد هو الرسام لغيد Le Guide (غيلدو ريني ١٥٧٥، ١٦٤٢) ولوحته تحمك على البابا، وقد كانت بياتريس ضحية أهواء مشيئة واتهمت بالتحريض على قتل والدعا وأعدمت بأسر من البابا في العام ١٥٩٩. وقد قصّ استدلال حكاية بياتريس سيني في قصة ظهرت في مجلة العالمين بتاريخ الأوّل من تموز ١٨٣٧ كما أن الركيذ دي كوستين. وهو أحد أصدقاء بلزك كتب أيضاً مسرحية بعنوان بياتريس سيني سُئلت في العام ١٨٣٣ ويبدو أن بلزك كان يفكر بكتابة مسرحية بهذا الموضوع الذي لحن إليه في الصفحة الأخيرة من رواية بيوتت<sup>٤</sup> وفي هذه الرواية.

(٣) فلاسكينز، ديفيو (١٥٩٩، ١٦٦٠) رسام اسباني اشتهر بلوحاته الدينية والتاريخية لكن بلزك أعطى في اسم الملك الذي ترك فلاسكينز رسوماً له. فهو فيليب الرابع وليس فيليب الثاني.



خلال الفصل السريع ، الذي تبقى فيه المرأة كالأزهار ، تخدم ميزات جمالها بشكل مدهش الرياء الذي يكرها عليه ضعفها الطبيعي والقوانين الاجتماعية . فتحت اللون الغني لوجهها النضر ، وتألقت عينيها ، وشبكة قسماتها الناعمة الجذابة ، والخطوط المتضاعفة المنحنية أو المستقيمة ، إنما النقية والمحددة بشكل تام ، يمكن أن تبقى جميع انفعالاتها خفية . فالحمرة عندئذ لا تكشف عن شيء وهي تلون ألواناً سبقت حيويتها ، وجميع المراكز الداخلية تبرز جيداً آنذاك في نور هاتين العينين المتألفتين بالحياة حتى أن أي ألم عابر يظهر حسناً جديداً . وهكذا فلا شيء أكثر كتماناً من وجه شاب ، لأن كل شيء ثابت فيه . ففي وجه المرأة الشابة هدوء سطح بحيرة ونعومته ونضرتة ، والمظهر المميز للنساء لا يبدأ قبل الثلاثين . فحتى ذلك العمر لا يجد الرسام في وجوهه إلا اللونين الوردى والأبيض ، والابتسامات والتعابير التي ترد ذات الفكرة ، فكرة الشباب والحب ، فكرة متناسفة خالية من العمق . ولكن عند الشيخوخة ، يتكلم كل شيء في المرأة . فالعواطف تنطبع على وجهها ، وقد كانت عاشقة ، وزوجة ، وأماً ، وتوصلت تعابير المسرة والألم إلى إرهاب قسماها وتبدل مظهرها ، ووسمها بألف تجعيدة لها لغة واحدة ، ويغدو رأس المرأة عندئذ سامياً من الرهبة ، جميلاً في الكتابة ، أو رائعاً بهدوته ، وإذا سُمحت متابعة الاستعارة الغريبة السابقة ، نقول إن البحيرة الجافة تُظهر عندئذ آثار جميع السيول التي كونتها . فرأس المرأة الهرمة لا ينتمي آنذاك ، إلى العالم المدعور ، رغم لامبالاته ، لملاحظة دمار جميع أفكار الأناقة التي اعتاد عليها ، ولا إلى الفنانين العاديين الذين لا يكتشفون فيه شيئاً ، وإنما إلى الأدباء الحقيقيين ، أولئك الذين يمتلكون إحساساً بالجمال مستقلاً عن جميع الأعراف التي يستند إليها العديد من الأحكام المسيقة المتعلقة بالفن والجمال .

وبالرغم من أن السيدة دي إغلمون نعتمر قبعة أنيقة ، كان من السهل رؤية

شعرها، وهو الحالك السواد سابقاً، وقد عممت الانفعالات القاسية البياض فيه، لكن الطريقة التي نصله فيها إلى صغرتين تعبر عن ذوق أصيل، وتكشف عن عادات المرأة الأنيقة المتميزة بتعومتها؛ وترسم بشكل تام جبينها الذابل المجعد، الذي ماتزال تلوح عليه آثار يريق سابق، بينما يعطي منظر وجهها وانتظام قسماته فكرة، ضعيفة في الحقيقة، عن الجمال الذي كانت تعتز به، لكن هذه القرائن تبرز بشكل أوضح الألام التي بلغت حدتها درجة حفرت بها ذلك الوجه، وجففت الصدغين، وأضمرت الخدين، وكدمت الأجنان، وعرتها من الأهداب وحرمتها من عدوبة النظرة. وبدا كل شيء صامتاً في تلك المرأة، فليسرها وحرركاتها ذلك البطء الرزين، المتأمل، الذي يفرض الاحترام؛ وقد تحوّل تواضعها الذي أفتته منذ عدة سنوات إلى خجل نتيجة اعتيادها أن تستحي أمام ابنتها. ثم أن كلماتها كانت نادرة، ورفيقة كما هي عند جميع أولئك الأشخاص الملمزين بالتنكير والتركيب، والانتواء على أنفسهم، وهي توحى بهذا الموقف، وذلك المظهر بعاطفة لأتحدّد، فلا هي الخشية. ولا هي الشفقة، إنما تتصهر فيها بغموض جميع الأفكار التي توقظها هذه الانفعالات المتنوعة. أخيراً فإن طبيعة تجاعيدها، والطريقة التي تغضن فيها وجهها، وشحوب نظرها المتألمة، تشهد كلها بجلاء على هذه الدموع التي يفرسها القلب فلا تسقط أبداً إلى الأرض. والتعساء المعتادون على أن يتأمكوا السماء ليبشوها أم حياتهم، يتعرفون بسهولة في عيني تلك الأم على عادات قاسية في ترديد صلاة في كل لحظة من النهار، وعلى الآثار الخفيفة لهذه الرضوض الخفية التي تنتهي إلى تدمير أزهار الروح وحتى عاطفة الأمومة. إن للرسمين الواناً لهذه الصور الشخصية، لكن الأفكار والكلمات عاجزة عن الإعراب عنها بأمانة، إذ يصادف عبر الدرجات اللونية، وعبر ملامح الوجه مظاهر غير قابلة للشرح تلتقطها الروح بالنظر، لكن سرد الأحداث التي تعود إليها مثل هذه الانقلابات الرهبة في المظهر هي المصدر الوحيد الباقي للأدب للعمل على إفهامها. فهذا الوجه يعلن عن عاصفة هادئة

وباردة، وعن معركة خفية بين بطولة الألم الأمومي وعجز عواطفنا المنتهية كانتهائنا، حيث لا يوجد فيها شيء لانهايتي. وقد أحدثت هذه الألام المكبوتة دون انقطاع، مع الزمن، مالا أعلم من السقم لدى تلك المرأة، ولا شك أن بعض الانفعالات العنيفة جداً أفستت فيزيائياً هذا القلب الأمومي، حتى أن بعض الأمراض، وربما أمدم\* كانت تهددها دون علمها. فالألام الحقيقية هي في الظاهر أكثر هدوءاً في عمق السرير مما هي في الواقع، أو حيث تبدو هاجمة، ولكنها تستمر هناك تقرض الروح مثل ذلك الحمض الرهيب الذي يثقب الكريستال! في تلك اللحظة خدّدت دمعان وجتتي المركيزة، فنهضت وكأن فكرة أكثر حدة من جميع الأفكار الباقية قد طعنتها بعمق؛ خمّنت على الأرجح مستقبل موانا، وإذ بشوقها للألام التي تنتظر ابنتها تسقط مجدداً جميع مصائب حياتها الخاصة على قلبها.

يمكن فهم وضع الأم بشرح وضع الابنة.

كان الكونت دي سان-هيرين قد سافر منذ ستة أشهر تقريباً ليقوم بمهمة سياسية. وخلال غيابه ضمت موانا إلى كل مظاهر زهو السيدة الشابة نزوات تصرف الابنة المدللة، فلَهت بطيش أو استجابة لألف غنج لدى المرأة، أو ربّما في محاولة لتجربة قدرتها على التلاعب بهوى رجل حاذق إنّما دون قلب، ولاحظت السيد دي اغلمون التي أكسبتها التجارب الطويلة الخبرة في الحياة، والحكم على الناس، والارتياب بالمجتمع، نجّاح تلك المغامرة، وتوجّست من ضياع ابنتها برؤيتها تقع بين يدي رجل لايراعي حرمة شيء. أليس شيئاً مريباً بالنسبة لها أن تصادف فاسقاً عديم الأخلاق، في الرجل الذي تستمع إليه موانا بسرور؟ فابنتها العزيزة على حافة هاوية

\* أمدم Anévrisme: توسع شرياني أو وريدي محدود فيه دم سائل أو منخثر بعضه ناجم عن نكد جدار الوعاء بحيث يتغلب عليه ضغط الدم فيوسعه. (م. الترجم).

إذن . إن لديها يقيناً رهيباً بذلك ولا تجسر على إيقافها ، لأنها ترتعش أمام الكونتيسة ، وهي تعرف مسبقاً أن موانا لن تستمع إلى أي من تحذيراتها الحكيمه ؛ فليس لديها أية سلطة على تلك النفس الفولاذية بالنسبة لها ، الشديدة اللين بالنسبة للآخرين . كان يمكن لحنانها أن يتعاطف مع هموم عاطفة مبررة بالمزايا النبيلة لغاوا . لكن ابتها تتبع حركة غنج ، والمركيزة تحقن الكونت الفريد دي فاندنس ، لأنها تعرف أنه رجل يعدُّ صراعه مع موانا كعبارة شطرنج وبالرغم من أن الفريد دي فاندنس يشير روع تلك الأم العميسة ، فإنها كانت ملزمة على أن تدفن في عمق ثنايا قلبها الأسباب الرئيسة لكرهيتها ؛ فهي مرتبطة بصداقة وثيقة مع المركيز دي فاندنس والد الفريد ، وتلك الصداقة المحترمة في أعين الناس تتيح للشباب أن يحضر بلا تكلف إلى منزل السيّد دي سان هيرين ، التي يتظاهر بالنسبة لها بهوى مكنون منذ الطفولة ، مع أن السيّد دي إغلمون قررت عبثاً أن تطرح بين ابتها والفريد دي فاندنس<sup>(١)</sup> كلمة رهية تفصل بينهما ، لكنها كانت واثقة من عدم نجاحها ، رغم قدرة تلك الكلمة التي ستلحق بها العار في نظر ابتها . والفريد غانص في الفساد ، وموانا أذكى من أن تصدق ذلك الاعتراف ، وستهرّب منه عادةً إياه خدعة أمومية . فالسيّد دي إغلمون قد أقامت زواجها بيديها ، وأوصدت بنفسها بابها ، لتقضي فيها نحبا وهي ترى ضياع حياة ابتها الجميلة ، تلك الحياة التي غدت مجدها ، وسعادتها ، وعزاهها ، وهي وجود بالنسبة لها أكثر معزة بألف مرة من وجودها . يا للالام الرهية ، التي لاتصدق ، ولا يحيط بها كلام يا للنجح التي لاقاع لها !

(١) الفريد هو ابن شارل دي فاندنس عشيق جولي أي أنه أخ غير شقيق لموانا . لكن زواج شارل وأرملة كبرجاروه في رواية ابنه الحواه تم في العام ١٨٣٣ ، وبالتالي لا يمكن للفريد دي فاندنس أن يكون في العام ١٨٤٤ ذلك المتهتك الذي نظهره هذه الرواية .

كانت تنتظر بفجاء صبر استيقاظ ابنتها، ومع ذلك كانت نخشاه، فهي أشبه بإنسان بانس حكم عليه بالموت، وهو ينتظر أن تُنهي حياته، غير أنه يحسّ بقشعريرة برد وهو يفكر بالجلاد.

وقرّرت المركيزة أن تقوم بمحاولة أخيرة، ولكنها كانت تخشى على الأرجح، أن تفشل في محاولتها أكثر من تلقيها أحد هذه الجراح الشديدة الإيلام لقلبها حتى أنّها استنفدت كل شجاعتها؛ فحبّتها كأمّ وصل إلى تلك الدرجة من التعبد لابنتها، والحشية منها، لأجلها تقبل طعنة خنجر وتواصل السير قدماً. فالعاطفة الأمومية من السعة في القلوب المحبة حتى لتصل الأم إلى الموت أو إلى اللجوء لقدرة كبيرة كالدين أو الحب قبل أن تستسلم للامبالاة. ومنذ نهوض المركيزة خطّت لها ذكرياتها المشؤومة العديد من هذه الوقائع، الصغيرة في الظاهر، لكنها أحداث كبيرة في الحياة المعنوية، فكم في الواقع أحببنا من حركة تحدث مأساة، ونبرة كلمة تمزّق حياة، ولامبالاة نظرة تقتل أسعد العواطف. والسيدة دي إغلمون رأت للأسف كثيراً من هذه الحركات، وسمعت كثيراً من هذه الكلمات، وتلقّت كثيراً من هذه النظرات المروعة، حتى لتعجز ذكرياتها عن خلق أمال لها. فكل شيء يبرهن لها أن ألفريد قد أضل قلب ابنتها عنها حيث لم تعد فيه مصدر متعة بل مجرد شعور بالواجب؛ فألاف الأشياء حتى النفاهاات دلائل على سلوك الكونتيسة الكريه نحوها، نكران جميل ربّما نظرت إليه المركيزة عقاباً لها، فهي تجد أعداءً لابنتها في أحكام القدر لتتمكن من الاستمرار بعبادة البد التي تظلمها. وتذكّرت خلال ذلك الصباح كل شيء، وصدم كل شيء قلبها بعنف، حتى أن نفسها الممتلئة بالأحزان معرضة لتطفح وتفيض إن تعرّضت لأي عناية مهما كانت خفّته. فظفرة باردة يمكن أن تقتل المركيزة. ولئن كان من الصعب تصوير هذه الوقائع المنزلية، فإن بعض أمثلة عنها تكفي للدلالة عليها كلّها؛ فقد نقل مع العمر سمع المركيزة، لكنها لم تستطع أبداً أن تحصل من موانا على

وجوب الانتباه لرفع صوتها عند مخاطبتها ؛ وفي يوم وبدافع سذاجة الكائن المتألم، رجّت ابتها أن تكرر لها عبارة لم تستوعبها، وأطاعت الكونتيسة إنما بتلمز حرم السيدة دي إغلمون من تكرار رجائها المتواضع . ومنذ ذلك اليوم، وعندما تروي موانا خبراً أو تتكلم تحرص المركيزة على الاقتراب منها، لكن الكونتيسة تبدي غالباً انزعاجها من هذه الأفة التي تلوم أمها بطيش عليها . هذا مثال من ألف مثال لا يمكن أن يؤثر إلا على قلب أم . وقد نفوت هذه الأشياء على الملاحظ، إذ أن هذه الدقائق غير محسومة إلا على أعين كعيني امرأة . وهكذا ففي يوم قالت السيّد دي إغلمون لابته إن الأميرة دي كاديبان قد حضرت لرؤيتها . فصاحت موانا بكل بساطة : - ماذا ! أحضرت من أجلك أنت ! اصطحب المظهر الذي قبلت فيه هذه الكلمات ولهجة تعبير الكونتيسة عنها بالوان خفيفة من دهشة، وازدراء أتيق يجعل القلوب الشابة والحنون على الدوام تجذب بشرياً في العادة التي يتبعها التوحشون لقتل عجزتهم عندما لا يستطيعون الشبات على غصن شجرة بهتز بشدة . ونهضت السيّد دي إغلمون وابتسمت وذهبت تبكي خفية . فالأشخاص المهذبون، وبصورة خاصة النساء منهم، لا يكشفون عن عواطفهم إلا بلمسات غير محسوسة لكنها قادرة على التلميح إلى نبضات قلوبهم أمام أولئك الذين يجدون في حياتهم أوضاعاً مماثلة لوضع تلك الأم المعذبة . فالسيدة دي إغلمون المرهقة بذكرياتها وجدت في كل من هذه الوقائع المجهرية من شدة الوخز، وشدة القسوة شكلاً من الازدراء لم تر حتى تلك اللحظة أبغض منه رغم الابتسامات البطن بها . لكن دموعها جفت عندما سمعت حفيف إزاحة ستائر الغرفة التي تستريح فيها ابتها . وهرعت متجهة نحو النوافذ، عبر المر المحاذي للشبك الذي جلست قربه سابقاً، ولاحظت أثناء سيرها العناية الخاصة التي بذلها البستاني في تسوية رمل ذلك المر المهمل منذ بعض الوقت، وعندما وصلت السيد دي إغلمون إلى تحت نوافذ ابتها، أسدلت الستائر فجأة، فنادت :

- موانا، لكنها لم تلق جواباً؛ وعندما دخلت إلى المنزل سألت إن كانت ابنتها قد نهضت من النوم، أجابتها وصيفة موانا:  
سيدتي الكونتيسة في الصالون الصغير .

كان قلب السيّد دي اغلمون طافحاً بالمشاعر، ورأسها منشغلاً بكثير من الأفكار، فلم تهتم في تلك اللحظة بالظروف النافهة، ومرّت بسرعة إلى الصالون الصغير حيث وجدت الكونتيسة في مبدل وقلنسوة ملقاة بلا مبالاة على شعرها المشعث، وهي تتعلل خفياً منزلياً ومفتاح غرفتها في زئارها، وملامح أفكار عاصفة بألف لون تكسو وجهها، وهي جالسة إلى ديوان وتبدو مستغرقة في تأمل عميق .

قالت بصوت قاس: ما الذي جاء بك؟ واستأنفت بمظهر شاردي بعد أن قاطعت نفسها: . أه! أهذه أنت يا أمي؟

- نعم، يا ابنتي، هذه أمك . . . .

اصطبغت نبرة صوت السيدة دي اغلمون وهي تتلق بهذه العبارة بتدفق عاطفة قلبية، وانفعال حميم يصعب إعطاء فكرة عنهما دون استعمال كلمة قداسة . والواقع أن قداسة الأمومة كانت متجلية في مظهرها حتى أنّ ابنتها بدت مندهشة، والتفت نحوها بحركة تعبير في أنّ واحد عن الاحترام، والقلق، والندم . وأغلقت المركيزة باب ذلك الصالون بشكل لا يمكن فيه أي شخص من الدخول دون إحداث ضجة في الغرف المجاورة له . وبذلك أمت بهذه العزلة أي فضول .

قالت المركيزة: يا ابنتي، إن من واجبي أن أتورك حول إحدى الأزمات الأكثر أهمية في حياة المرأة، التي قد تكونين واقعة فيها دون علمك، وأنا لا أحذرك عنها، بصفة الأم، وإنما بصفة الصديقة . بالزواج أصبحت حرة في تصرفاتك، ولست

مسؤولة عنها إلا أمام زوجك . لكنني لم أشعرك إلا قليلاً بالسلطة الأمومية (وقد يكون هذا خطأ ) ، حتى إنني لأعتقد أن من حقّي أن أطالبك بالاستماع إليّ، مرة على الأقل ، في الوضع الخطير الذي نحتاجين فيه إلى النصح . فكّرّي يا موانا إنني زوجتك لرجل ذي إمكانيات عالية ، يمكنك أن تفخري به ، و . . . .

صاحت موانا بمظهر متمرد مقاطعة أمّها : أمّي ، أنا أعلم ماذا ستقولين . . . . ستعطيني بخصوص الفريد . . . .

استأنفت المركيزة برصانة ، وهي تحاول حبس دموعها : لم تخمّني جيداً يا موانا ، فإذا لم تشعرني . . .

قالت شبه مزهومة : ماذا؟ ولكن يا أمّي في الحقيقة . . .

صاحت السيّدة دي إغلمون وهي تبذل جهداً خارجاً عن المألوف : موانا ، يجب أن تستمعي بانتباه لكل ما يجب أن أقوله . . .

قالت الكونتيسة وهي تصالب ذراعيها ، وتظاهر بإذعان متكلف : إنني مصغية ، ثم أضافت بيروود غير معقول : لكن اسمحي لي يا أمّي أن استدعي بولين ، لأصرفها في مهمة . . . ورنّت الجرس .

- يا ابنتي العزيزة ، لا يمكن لبولين أن نسمعنا .

استأنفت الكونتيسة بمظهر رصين ، من شأنه أن يبدو غير مألوف للام : أمّي يجب . . . لكنها توقفت عن الكلام لرؤية وصيفتها قادمة فنادتها : بولين ، اذهبي بنفسك إلى محلات بودران ، واسألني لماذا لم يرسلوا لي القبعة التي أوصيت عليها . . .



وعادت إلى الجلوس، وهي تنظر إلى أمها بانتباه. وكان قلب المركيزة طافحاً بالغم، وعيناها جافتان؟ وشعرت أن ذلك بأحد تلك الانفعالات التي لا يمكن إلاّ للمهات إدراك أُلها؛ فتناوت الكلام لتطلع موانا على الخطر الذي يتهددها؛ ولكن سواء أوجدت الكونتيسة الشكوك التي تتصورها أمها عن ابن المركيز دي فاندنس مهينة لها، أو أنها كانت فريسة إحدى هذه الحماقات الغامضة، التي يكمن سرّها في قلة تجارب الشباب إجمالاً؛ فقد استغلت لحظات توقّف أمها عن الكلام لتقول لها وهي تفتعل ضحكة متكلفة: . أمي، كنت أعتقد أنك لاتغارين إلا على الأب . . .

عند هذه العبارة أغمضت السيد دي إغلمون عينيها، وطأطأت رأسها، وأطلقت أخفّ التهديدات، وألقت نظرها في الهواء، كأنها تدعن لعاطفة لا تُقهر تدفعنا إلى التضرع إلى الله في أزمان الحياة الكبرى؛ ثم وجهت عينيها نحو ابنتها، وقد شعّ منهما جلال رهيب لكنه مشوب بالعميق، وقالت بصوت يهدّج الوقار:

ابنتي، كنت أشدّ قسوة على أمك من الرجل المهان من قبلها، بل أكثر مما يسقو الله على الأرجح<sup>(١)</sup>.

نهضت السيّد دي إغلمون، لكنها التفتت عند وصولها إلى الباب فلم تر إلاّ الدهشة في عيني ابنتها، فخرجت واستطاعت الوصول إلى الحديقة حيث خانتها قواها، وهناك أحسّت بالأم شديدة في قلبها فتهاككت على مقعد، ولاحظت عيناها التائهتان على الرمل الأثار الحديثة لخطوات رجل تركت جزمته علائم واضحة جداً، فابنتها دون أي شك قد ضاعت، وخیّل إليها أنّها فهمت سبب المهمة التي عهدت بها موانا لبولين، وترافقت هذه الفكرة القاسية بانكشاف أكثر بشاعة من كل ما عدها،

(١) هذه العبارة تشير إلى أن المركيز دي إغلمون عرف خيانة زوجته وغفرها لها.

فافترضت أن ابن المركيز دي فاندنس دمر في قلب موانا هذا الاحترام الواجب على الابنة نحو أمها، وتزايد عذابها، فأغصي عليها بشكل غير محسوس، وبقيت كالثائمة. واعتقدت الكونتيسة الشابة أن أمها سمحت لنفسها بأن توجه لها ضربة لاذعة لا تخلو من فظاظة، وفكرت أن مداعبة ودية في المساء أو بعض اهتمامات خاصة كغفلة بإصلاح ذات البين. وعندما سمعت صرخة امرأة في الحديقة، التفت بلا مبالاة في اللحظة التي كانت فيها بولين، التي لم تخرج حتى ذلك الحين تنادي طالبة المساعدة، وهي تحتضن المركيزة بين ذراعيها.

كانت الكلمة الأخيرة التي لفظتها تلك الأم: لا تتراعي يا بيتي.

رأت موانا أمها تحمّل شاحبة، بلا حيوية، تتنفس بصعوبة، لكنّها تحرك ذراعيها كأنها تريد المقاومة أو الكلام. وصعقت من هذا المشهد، فتبعت أمها، وساعدت بصمت على تمديدتها في سريرها، وتجردها من ثيابها. وأحسّت بفداحة غلظتها. وعرفت أمها في تلك اللحظة السامية دون أن تتمكن من تصحيح شيء. وأردت أن تبقى وحيدة معها وعندما لم يبق أحد في الغرفة، وأحسّت ببرودة تلك اليد المتودّدة إليها على الدوام، أجهشت بالبكاء. وأيقظ هذا النحيب المركيزة فاستطاعت أن تشاهد عزيزتها موانا، وعلى ضجة هذه الزفرات التي بدت وكأنها تريد تحطيم هذا الحوض المرهف المضطرب، تأملت ابنتها مبتسمة، ويرهنت هذه الابتسامة لتلك الشابة قاتلة الوالدة أن قلب الأم لجأ، في عمقها يوجد دائماً الصفيح والمغفرة، وما أن عرفت حالة المركيزة الخطرة، حتى أرسلت الخدم على الخيول لاستدعاء الطبيب، والجراح، وأحفاد السيدة دي اغلمون.

وحضرت المركيزة الشابة أرملة الابن البكر ومعها أولادها في ذات الوقت

الذي وصل فيه رجال الطب وشكلوا حشداً مهيباً، صامتاً، قلقاً؛ اختلط به الخدم. ولم نسمع المركيزة الشابة أية ضجة، ففرعت برفق على باب الغرفة. وعند هذه الحركة استيقظت موانا، دون شك، من ألامها، ورفعت فجأة مصراعي الباب، ونظرت بعينين شاردتين إلى ذلك الحشد العائلي، وبدت في اضطراب فاق كل لغة. وبقي كل إنسان صامتاً أمام هذا المظهر من تبيكيت الضمير الحي. وكان من السهل ملاحظة قدمي المركيزة المتصلبتين المعدنتين بتشنج على سرير الموت. واستندت موانا إلى الباب ونظرت إلى ذويها، وقالت بصوت غائر: لقد فقدت أُمِّي!

باريس ١٨٢٨ - ١٨٤٤



## دراسة حول الرواية والمؤلف

إعداد برنار غانيين وربنه غيز

يعود عنوان المرأة في الثلاثين إلى حَدَث في هذه الرواية مُعنونَ في عمر الثلاثين بصيغتها الأخيرة التي تركها لنا بلزك؛ وهو يتعلّق بقصة امرأة تبكي، وهي بكامل نضجها الفكري والجسماني، غراماً انفصمت عراه، وترفض، مدة طويلة، تودّدت دبلوماسي شاب. ويتسهي الحدث بمشهد تعاطف تقطعه عودة الزوج، الرجل الفظ الأحق، غير المتبصر.

يرسم بلزك صورة مرهفة ويمتشي الدقة للأحاسيس الخاصة بعاشقين، ويجعلنا على هذا النحو مؤمنين على عواطفهما القياضة؛ وقد استحق بلزك على هذا الوصف المصورَ تقريظ نقّاد عديدين بدءاً من سانت بوف وانتهاءً بأندره موروا، مروراً ببول بورجه، وآلن، وبرنار غويون، وموريس باردش<sup>(١)</sup>. لكن -يجب الاعتراف- إن هذا التقريظ لم يكن للمؤلف المتنافر تقريباً الذي نقرأه حالياً تحت عنوان المرأة في الثلاثين. وللاكتفاء بشهادة واحدة نستذكر هذا الرأي لسانت بوف المستخلص من أحاديث أيام الاثنين حيث ترد الجملة التالية: «لم يبدأ تاريخ نظرية

(١) سانت بوف: أحاديث أيام الاثنين، الجزء الثاني، باريس ١٨٥٦.

بول بورجه: سياسة بلزك في دراسات وصور، الجزء الثالث، باريس ١٩٠٦، وأيضاً: فن الرواية عند بلزك في بعض الشهادات، باريس، ١٩٢٨.

آلن، إميل شارتيه: من خلال بلزك في محبة إلى بلزك، باريس ١٩٥٠.

موريس باردش: بلزك الروائي، باريس، ١٩٤٠.

برنار غويون: فكر بلزك السياسي والاجتماعي، باريس ١٩٤٧.

اندره موروا: بروميثيوس أو حياة بلزك، باريس ١٩٦٥.

المرأة بجميع ميزاتِها، ونفوقاتها، وشمانلها النهائية إلا اليوم . والسيد دي بلزاك مبتكرها، وهذه هي أحد اكتشافاته الأكثر واقعية في طراز الرواية الخيمنية؛ وقد كان مفتاح نجاحه الباهر مكتملاً تماماً في هذه التحفة الصغيرة الأولى . وقد بلغت شخصية البطلة، وهي في منتهى الروائية، من الشهرة حتى أن كلمة «بلزاكية» في البرازيل تشير إلى امرأة في الثلاثين من العمر، وتعبير «امرأة في العمر البلزاكي» يعني في روسية امرأة بين الثلاثين والأربعين من سني حياتها، فاتنة وخطرة بخبرتها .

تشكل رواية المرأة في الثلاثين من تسابع قصص نسرت بين ١٨٣١ و ١٨٣٤ في مجلات مختلفة، وطبعات متعددة من مشاهد من الحياة الخاصة، إنما جميع هذه القصص تهدف إلى التصدي لمصير النساء اللواتي خابت آمالهن في الزواج، وقاومن الإغراء، ثم عوقبن بقسوة لأنهن أحبين خارج الروابط الزوجية، وسواء تعلق الأمر بجولي دي إغلمون أو بالمركيزة دي فيومستيل، أو بالسيدة دي فردون، أو المركيزة دي بالان فإننا نجد دائماً نموذج المرأة «ضحية القوانين بزواجها، وضحية الرجال بحبها» .

بجمع هذه الوقائع المختلفة، يحاول بلزاك في «مذكرة» موجهة لناشر مؤلفاته في العام ١٨٣٢، أن يقنعنا أن الموضوع يتعلق «بحياة واحدة أدركت منذ بدايتها وتوبعت حتى خاتمته، وعرضت لهدف أخلاقي سام» . كانت العملية محفوفة بالمخاطر، كي لا نقول إنها متعذرة التحقيق، وعندما نقرأ في الوقت الحاضر رواية امرأة في الثلاثين تسرعنا انتباهنا الأمور غير الواقعية المتضمنة في هذا المؤلف، وعدم التوافق بين القصص الثلاثة الأولى، وكلها موشحة بالرقه والحساسية، والقصص الثلاثة الأخيرة المتعلقة بمأساة بل بشجاعة، ونجعلنا نشهد تسابع مصائب وكوارث . يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك، ونقابل القصص الثلاثة الأولى حيث نبغى جولي طاهرة من كل عيب تبادل فيها السير آرثور حباً عفيفاً، ثم نقاد تدريجياً لنقع في غرام شارل دي فاندنس لكن دون أن تستسلم له، بينما القصص الثلاثة الأخيرة تظهر جولي قريبة القدر الذي يفتل على النساء المذنيات اللواتي يجرفن في

حبّ أتم. يتضح هذا التفكك وهذا الانقسام في الأسلوب عندما نتمكن من إعادة بناء نكوّن مؤلف امتد إنشاؤه. وبشكل منقطع أيضاً. إلى عدة سنوات.

## التكوّن

إذا تركنا جانباً نظرة على تورين النصّ المنشور في مجلة سيلويت Silhouette عدد شباط ١٨٣٠، الذي سيشكل جزءاً صغيراً من القصة الأولى، نجد في البدء في الكاريكاتور Curicature عدد ٢٥ تشرين ثاني ١٨٣٠، العرض العسكري الأخير ل نابوليون، وفيه تبدو شابة ترنو بإعجاب لغارس وسيم أتيق في البيزة الزرقاء الخاصة بالضباط المرافقين، وهو يمتطي حصاناً أسود. ينذر الأب ابنته بأن هذا الضابط لا يستحق الاهتمام الذي تبديه له، لأنه لا يعرف كيف يحقق لها السعادة؛ وستتضمن الصفحات الأولى من الرواية هذا المشهد.

بعد عدة أسابيع تظهر في مجلة باريس *Revue de paris* لنا عددي ٢٢ و ٣٠ كانون ثاني ١٨٣٠ قصة اللقاءان، وهو عمل مُعد بسرعة، قريب في أسلوبه وأحداثه لمؤلفات بلزاك أيام شبابه، حيث نستخلص عديد من الذكريات المستمدة من الكتب، وخاصة في حكاية القراصنة التي تختم القصة. وهذه المشجاة منشأة بشكل لوحة فنية مزدوجة مثل عديد من قصص بلزاك؛ على أحد مصراعيها يشاهد السيددي فردون، العسكري القديم، والرجل الشريف، وقد وقع تحت تأثير نظرة مغامر ساحرة، واضطر نتيجة تلك القوة الشريرة أن يترك ابنته تهرب مع الغريب المجهول؛ بينما يلتقي الأب والابنة وفق المصراع الثاني في أغرب مصادفة على متن سفينة المغامر، خلال هجوم للقراصنة: إنه دور «القبطان الباريسي» في أن يظهر شهماً بالعفو عن النيبيل الذي أنقذ في السابق حياته. لم يكن بلزاك مخطئاً في عدّه هذا النصّ غير صالح لإدراجه في الملهاة الإنسانية، وفقاً لما كتبه للسيدة هانسكا بعد اثني عشر عاماً، في ٢ آذار ١٨٤٣ «لم يتوفّر لي الوقت لإعادة صياغة هذه المشجاة غير الجديرة بي، وما يزال قلبي يدمى، وأنا رجل الأدب المستقيم». غير أن هذا العمل أدرج بعد ذلك، قسماً خامساً في رواية امرأة في الثلاثين.

في آذار ١٨٣١ أمكن لقراء مجلة باريس أن يطلعوا على نص جديد لبلزك : إصبع الله وهو قصة قصيرة جداً. تتشكل النصف الأوكر من القسم الرابع الحالي من رواية امرأة في الثلاثين. وهي مختلفة عن السابقة في الموضوع، والأسلوب، والتقنية. رجل وامرأة يتزهران على ضفة نهر اليقير مع ولديهما، صيين: يدفع أحدهما الآخر إلى الماء حيث يغرق. مأساة قصيرة، فاسية، محكمة من قبل متكلم فاص، جعلته المصادفة شاهداً على الحادثة. لاشي. يشجي، عرض مرهف، يتم كل شيء فيه بالإيماء دون إفصاح، ودون تسمية، عدا اسمي الولدين، فرانسيسك وجورج. لكن القاص والقارىء يفهمان المأساة: استغلت الأم التزهة الصباحية للقاء عشيقها، وهو أيضاً والد الابن الأصغر المرح «ابن الحب»، بينما الابن البكر، فرانسيسك، كتيب «ابن الواجب»، غير المحبوب، وقد استجاب لدافع أغراءه بقتل الأخ المفضل عليه. هكذا عوقبت الزوجة الخائنة في أعز ما لديها، من قبل إصبع الله الذي يحل محل العدالة البشرية. وهي بعكس اللقاءين، وكان بلزك قد حرص بفاصل شهرين، على أن يبين لقراء مجلة باريس وجهاً آخر من موهبته، ولا يوجد هنا استعارات أدبية واضحة، إنما حقيقة سيرة ذاتية كامنة كما سنرى فيما بعد.

خلال أيلول. تشرين أول ١٨٣١ نشرت مجلة العالمين الموعد، التي تشكل حالياً النصف الثاني للقسم الأوكر من رواية امرأة في الثلاثين. استغرق إنشاء هذه القصة ما يقرب من ستين. من نهاية ١٨٢٩ حتى خريف ١٨٣١؛ وقد تم تصورهما قبل تلك القصص التي سبق أن تعرضنا لها، لكنها لم تنته على ما يبدو إلا بعد أن فكر بلزك في أن يجمع هذه القصص المختلفة في جزء جديد من مشاهد من الحياة الخاصة. توجد إذن مرحلتان في تكوين الموعد ومن المهم التمييز بينهما.

بين السيرورات الإبداعية التي نجدها غالباً لدى بلزك، وخاصة في سنوات ١٨٢٩-١٩٣٢، توجد واحدة متعيزة تقريباً: ينطلق الكاتب من حدث، من مشهد، بتعبير آخر ينشئ انطلاقاً من الخاتمة؛ فالأمر بالنسبة إليه يتعلق بخلق شخصيات تتصرف وفقاً لوضع معين. هكذا يخصصهم منذ البداية، بسيكولوجية تجعل تطورهم



وسلوكلهم النهائي معقولين . هكذا يتهاى مخطط ، نوع من مسار رواني ، يتمثل في ذهن بلزك ، بخطوطه الكبرى ، عندما يتصدى لتنفيذ العمل . وبما أن فعل الكتابة هو فعل إبداعي بشكل رئيس ، فيه يتوضح هذا المخطط ويتسق ، ويكتمل ؛ ويحدث أحياناً أن نظراً عليه عناصر جديدة تبدك من الانطباع المتولد عن المؤلف ، فيبدو حلّ العقدة في نهاية المسار ضعيفاً لا يتناسب مع غنى المسلك الذي أوصلنا إليه . كما يحدث أيضاً أن تؤثر هذه العناصر الجديدة على المشروع البدائي مما يدفع بلزك إلى التوقف عن عمله مدةً من الوقت ليغدو مشروعة أكثر نضجاً ، وكيف المخطط المتوقع وفق المعطيات الجديدة .

يبدو لنا تكون الموعد متعلقاً ، في مرحلته ، بحركة من هذا النوع . فعند نقطة الانطلاق للعمل المبدع ، توجد ذكرى طرفة شاعت في كل باريس تعود إلى ما تحمله السيد جوكور برباطة جاش ، من ألم عضوي كي لا تكشف لزواج خيانة زوجته . استمد بلزك من تلك الطرفة ، وهو المعجب الكبير بالقدرة ، موضوعاً ملائماً لقصة ونشأت الفكرة في خاطره منذ بداية التحرير لأن عنوان الموعد الذي يبقى للقصة بكاملها ، يتجلى على الصفحة الأولى من المخطوطة ، غير أنه جعل بطل القصة إنكليزياً ، ليموء من جهة الطرفة المتعلقة بالسيد جوكور ، وهو مركيز وعضو في مجلس الأعيان الفرنسي ، مايزال على قيد الحياة خلال ١٨٣٠ - ١٨٣١ . كما أنه رأها من جهة أخرى فرصة سانحة لاستذكار هذه المناظر التي يحبها من تورين ، حيث كان يصادف في حدائه شخصيات إنكليزية نفاها نابوليون . أمأ المرأة التي يضحى من أجلها البطل فهي عروس شابة ، خاب أملها في الزواج الفظ الذي تركها وحيدة في المقاطعة ملتحقاً بالجيش المتمركز في مناطق أخرى . هكذا راحت العروس تكشف تدريجياً عن خيبة أملها الصديقة ، اكتسبت في بلاط لويس الخامس عشر خبرة في الحياة الغرامية ومازالت تحتفظ بالحنين إليها .

يبدو أن بلزك توقف عن كتابة قصته ، في بداية ١٨٣٠ ، عند تدبير رسالة جولي . التي ذكر اسمها للمرة الأولى . لصديقتها لوزا . وقد أجرى عليها فيما بعد ،

وهو ينهيهما، تحولات عديدة لتوضيح بعض القضايا في فيزيولوجية الزواج، المتعلقة بالأزواج الجهلة والأفطاط، ولتغريب ذلك الفصل إلى قصة اللقاءين بعد أن فكّر في إدراجهما ضمن جزء واحد. لكن بأية رقة سيصف نمو الحب بين جولي المتضجرة من الوحدة والفرغ، الخائبة الأمل في الزواج، والفارس الإنكليزي الذي يرود تحت نوافذها! كلما تزايد الانسجام بين القلبين بدت المقاومة أكثر صعوبة والمأ.

يبين الموعد واللقاء أن زواجاً مرموقاً اجتماعياً يمكن أن ينتهي إلى نكاسة. إنه زواج جولي والعقيد دي إغلمون. بينما يمكن بالعكس لمعاشرة مترسخة على هامش المجتمع أن تحقق السعادة. وفي تلك السنة ١٨٣١، دون شك، وبعد أن وقع بلزك مع دار نشر «مام»، في ٢٨ نيسان ١٨٣١، العقد الذي يتضمن ضمن مشاريع أخرى، نشر جزأين ثالث ورابع لمشاهد من الحياة الخاصة، بذلك اسم السير أرتور غرنفيل، باسم جورج ستوتون الذي أطلقه في البدء على الفارس الإنكليزي الكتيب. كما أنه اختار اسم هيلين لابنة جولي الصغيرة وهو الاسم نفسه المطلق على ابنة العقيد دي فردون التي افتتحت بالخارج عن القانون اللاجئ إلى المنزل الأبوي. وتتعدد الأحداث؛ ويغدو الإنكليزي طبيباً ويعنى بجولي ويشفيها، لكن الهدف يبقى كما هو بالذات: الموعد المشؤوم الذي قضى على العاشق.

يتأكد السعي إلى وحدة المجموعة وترابطها المنطقي بوضوح بعد عدة أشهر. عندما ظهرت في مجلة باريس، بتاريخ ٢٩ نيسان ١٨٣٢، القصة الرابعة المرأة في الثلاثين، وهي التي تحتل الآن القسم الثالث من الرواية تحت العنوان النهائي في الثلاثين من العمر، ويبدو جلياً أنها قد أعدت لبنيان تلك المجموعة في مرحلة لا نستطيع تحديد هابذة، لكنها تقع دون شك نحو نهاية العام ١٨٣١، وقد فكّر بلزك أن يزلق إصبع الله بين الموعد واللقاءين وانطلق الترتيب، على ما يبدو لنا، من الرغبة في إعطاء مشجاة اللقاءين انطباعاً متناسقاً مع مشاهد من الحياة الخاصة. يكفي من أجل ذلك منح مزيد من الأهمية لهيلين والنزاع المستمر الذي تناوى به أمها. ألم تشعر الشابة بشعور بالإنتم مبهم نحو أمها؟ شعدهو الولد المذنب في إصبع الله.

هكذا سنحلّ فتاة صغيرة محل الصبي الصغير فرانسيسك ، وهاهو القارىء يحاول أن يحدّد هوية الشخصيات في القصتين خاصة وأن اسمي العاشقين في إصبع الله بقيا مغفلين ، وسيستبه بدءاً من كون هيلين ابنة جولي دي إغلمون ، إلى إقامة علاقة بين الموعد وإصبع الله . لنشر إلى أن وحدة المجموعة تنظم أولاً حول شخصية هيلين . يبقى على بلزاك أن يعطي تبريراً لتصرفها في قصة إصبع الله . إلا أن هيلين في الموعد هي سبب تعلق أمها بالحياة ، والفكرة تتوقف عند اللحظة التي كادت الأم تستسلم فيها لغرنفيل . هنا تفرض نفسها وقائع قصة امرأة في الثلاثين ؛ ونرى فيها كيف تستجيب أخيراً امرأة للإغراء : إنها جوليت دي فيومسنييل ، وقد اختير اسمها ليذكر بنمائل بين تلك المرأة وجولي الموعد إنما دون تصريح بأنها هي بالذات . لكن تفاصيل أخرى تثير الانتباه في الاتجاه نفسه . ألم تجعل جوليت من رجل ضعيف الشخصية عيناً من أعيان فرنسة ؟ ومن إنسان نافه قدرةً سياسية ؟ وهذا ما فعلته جولي أيضاً . ألم يذكر عن اللورد ملقبيل (المائل للورد غرنفيل في طبعة لاحقة) أنه قد مات من أجلها؟ وعلى مدى القصة يكشف قارئ الجزء الرابع من مشاهد من الحياة الخاصة في العام ١٨٣٢ ، تفاصيل أخرى ذات صدى يختلف عن ذلك الذي تثيره قصة امرأة في الثلاثين المنشورة في مجلة باريس . يبقى الإيحاء للقارئ أن العلاقة التي نشأت في قصة امرأة بين جوليت دي فيومسنييل وشارل دي فاندنس قد استمرت وأدت إلى ولادة ابن سفاح : الطفل الضحية في فصل إصبع الله الذي غدا اسمه شارل بدلاً من جورج ، وهكذا ترسخ التسبق .

مجموعة بلزاك مركبة ، بل إنها شديدة التركيب . القصص الأربعة التي تشكلها ، مع احتفاظها باستقلالها ، المؤمّن في الجزء الأكبر منه بالحالة المدنية المختلفة لبطلاتها ، وأيضاً بواقع أن هذه القصص متعاصرة تقريباً ، مترابطة بشبكة من التوافقات المنحفضة والإيحائية . يمكن إذن أن نقرأ القصص الأربعة ، إنمّا يمكن أن نلاحظ أيضاً ما بين السطور حكايات عديدة عن المرأة . تحت ثلاثة أسماء مختلفة . والمتعلقة بثلاث مراحل مختلفة من حياة المرأة التي تجعل منها ثلاث نساء مختلفات تقريباً . لدينا حياة جولي . في البداية السيدة دي إغلمون ، المرأة المتشددة ، العاشقة

للورد غرنفيل، إنَّما دون أن تسلم له، ونراها وقد سوكت لها نفسها الانتحار لأنها «تعهرت» لزوجها؛ وهذا لا يسعدها. ثم السيدة دي فيومستيل، التي تعلمت كيف تخل بمبادئ الأخلاق وقوانين الزواج وتجد السعادة في الحب. أخيراً السيدة دي فردون، المستقرّة في وضع تسوية؛ فعلاقتها تعود إلى الماضي؛ وهي تُربي أولادها، من الزوج، ومن العشيّق: تبدو لنا امرأة سعيدة، نظهر وكأنها لاتعاني كثيراً من رحيل ابنتها البكر. فالحياة موجودة أيضاً مع قصة هيلين التي تتطور كأنها اهتزاز وتر في معزوفة حياة جولي. ابنة الواجب هذه المهملة منذ أن اكتشفت أمها الحب وانصاعت له وأعطتها أختاً بن سفاح، انقادت في يوم لنزوة حسد أئمة وسببت موت الأخ الأثير وعانت الضيق والحرج، وهي المذنبه ضمن تلك العائلة السعيدة. رأت وأدركت كثيراً من الأشياء التي تحول دون توفيقها لسعادة تقوم على التسوية؛ وهي ترفض أن تحيا حياة أمها، وتتمرّد على المجتمع، وتكتشف الحب، وتظهر لنا أيضاً في نهاية اللقائين، امرأة سعيدة؛ وبلزك الذي كتب هذه القصص، ثم نظمها بعد نشرها في رواية، هو أيضاً مؤلف فيزيولوجية الزواج لكن بلزك الذي ينشر في العام ١٨٣٢ مشاهد من الحياة الخاصة، ويريد أن يكون ممدافعاً عن مبادئ الملكية وتقليدي التفكير، ويعلم احترام العائلة والزواج، لا يمكنه أن ينشر مؤلفاً يظهر سعادة المرأة في غرام يزدري بالقوانين والزواج، وعندئذ يضيف خانمة أخلاقية، وهذا قد يدعو إلى الأسف، إنها ثمانين صفحات بعنوان عمرة تأتي لتضاف إلى اللقاءين، فتصفي بطريقة متكلفة قصة هيلين: لم تدّم سعادتها اللاأخلاقية؛ ولم تلق أمها إلا بمصادفة خارقة لتموت تحت ناظرها، وهي في الرمز الأخير الذي أتاح لها أن توجه لاختها موانا، الموعظة المستخلصة من مغامرتها: «لن تلقى الفتاة السعادة أبداً في حياة مغامرة عاطفية خارجة عن المبادئ المألوفة». أليكون بلزك غراً غافلاً عن مدلول هذا التكلّف وتفاهته؟ يلزم القارئ مزيد من الإرادة الطيبة ليقنع بهذه الخاتمة.

لكن حكاية هذا المؤلف من مشاهد من الحياة الخاصة لم تنته . فمتطلبات دار النشر تشغل غالباً على الإبداع البلاغي؟ وبدا هنا عند الطبع أن المؤلف خفيف قليل الصفحات، ويجب إضافة شيء إليه دون أن يخلّ بوحدة المجموعة . وقد سبق أن عوقبت الأم المذنبه بابنتها هيلين سيكرز بلزك هذه الحاتمة، ويضيف قصة التكفير، التي ستظهرها لنا معاقبة هذه المرأة بابنتها موانا . عندئذ يظهر تجسّد جديد لجولي، السيدة دي بالون . لها خمسة أولاد، ولم يبق منهم إلا موانا الابنة التي ضحت من أجلها بكل شيء . بيد أن هذه الابنة التي غدت السيدة دي هيرين، تحمل أمها، التي كادت تموت من الألم عندما علمت أن لابنتها موانا عشيق . قصة كتبت بسرعة وعلى القياس، يضافي فيها بلزك طابع المأساة بسهولة، لأن عشيق الابنة هو ابن عشيق الأم، أي أنه الأخ غير الشقيق لموانا! هوذا ارتكاب المحارم بين النتائج المشؤومة للزنا! هكذا بأمل بلزك أن يتفق قارئه بأن السعادة لا توجد إلا في احترام العائلة والزواج؟ ولا يتردد، في مذكرة إلى الناشر تدعو القارئ لرؤية استمرارية في هذه المجموعة من القصص، يكتب فيها «تم تصوّر هذه النظرة العامة لحياة امرأة من أجل هدف أخلاقي كبير».

في ١٣ تشرين أول ١٨٣٣، يوقع بلزك مع السيدة بيشه عقداً لإعادة طباعة مشاهد من الحياة الخاصة، التي أدرجت منذ ذلك الحين في دراسات طبائع . روي أن يشكل الجزآن الثالث والرابع من المشاهد الدفعة الثالثة من إرسالية المشتركين التي ستظهر في حزيران ١٨٣٤ . وقد عمد بلزك للاستعاضة عن قصص الجزء الثالث غير الكافية، إلى كتابة البحث عن المطلق؛ بيد أن التضيد الذي تبشّه السيدة بيشه في إصدار دراسة الطبائع أكثر كشافه من ذلك المستخدم من قبل مام . يجب إذن لاستكمال الجزء إضافة قصة جديدة أو ابتكار وسيلة انتقال تسهل قراءة المجموعة، إذ أنها في العام ١٨٣٤ ما تزال في نظر بلزك مؤلفة من أحداث منفصلة، لكنها تظهر توافقاً وتوازياً، وغاية واحدة، وفكرة واحدة، وفقاً لقوله، اعتماداً على مهلة إضافية وافق عليها الناشر لاستكمال هذا الجزء كتب بلزك في أيار ١٨٣٤ وادي السيل، كما كتب في صيف تلك السنة نفسها أمام مجهولة والنص الأوز ما حتى

يأصح الله الذي أعطي عنوان البير ، تلك القصة المؤلة التي يدفع بها صبي صغير (غدا فيما بعد فتاة صغيرة) أخاه المحبوب إلى النهر . وليس في وادي السيل إضافة رئيسة للرواية ، لكنه يندمج فيها بشكل جيد . لكن لم يفصح عن أي من الأشخاص الثلاثة البالغين ، إنما كل شيء يشير إلى التعرف على جوليت دي فيومستيل ، وزوجها وعشيقها شارل دي فاندنس . غير أن بلزك سيتخلى فيما بعد عن هذا الدلال غير المبرر ويصرح باسم العشيق . نرى إذن في هذه القصة أن الرابطة التي شرع بالتخطيط لها منذ كتابه في سن الثلاثين تتواصل مع تواطؤ من الزوج تقدر ضمنا . هي مرحلة نمو وضع الزوجين الذي سنجده في بداية اللقاءين . إضافة إلى أن الولدين ، هيلين وغوستاف بحملان اسمي الولدين الأوكرين في عائلة فردون ؛ وتبدو الروابط بين مختلف القصص أكثر ظهوراً ، دون ضرورة حقيقية ، وأيضاً دون وضوح كاف قد يدفع إلى الحيرة من تفكك التفاصيل . يأتي وادي السيل ، علاوة عن ذلك ، ليغذي رواية هيلين : المشهد هنا يظهر مدى تأثرها بذكرى مأساة البيقر ، ول يطلق الإحساس بالذنب الذي يظهر في اللقاءين ؛ ولهجة هذه الصفحات ، مع شخصية الموتى كرونا ، بيلادته ، تضخم لحسن الحظ تشكيلة هذه المجموعة المتنوعة النغمات .

آلام مجهولة هي غمط آخر من جميع وجوهات النظر . فالقطعة تتمم قصة جولي . البطلة ، المركيزة ، لم تسم فيها ، لكن المسارات التي تجر بها ، وما يفصح عنه بلزك ، تشير كلها بدهاءة إلى جولي دي إغلمون ، حتى وجود هيلين الصغيرة الابنة غير المحبوبة تضيق إلى أننا نعيش مع المركيزة أزمة قنوط اتانبتها بعد موت غرنفيل ، وقبل اختلاطها بالمجتمع الذي التفت فيه بقاندنس . هذا المشهد الذي يندرج بشكل طبيعي بين الموعد وامرأة في الثلاثين أتعب بلزك كثيراً ، وقد أنهاه في ١٣ آب ١٨٣٤ ، وفقاً للتاريخ الذي وضعه في نهاية القصة ، وقد كتب في ٢٦ آب إلى السيدة هانسكا : «ستقرين آلام مجهولة التي كلفتني جهود أربعة أشهر متواصلة وهي أربعين صفحة . كنت لا أكتب أكثر من عبارتين في اليوم . هي صرخة وهيبة ، دون رونق أسلوب ، ودون ادعاء مأساة ، الأفكار فيها كثيرة ، والمأساة فيها ماثلة لا يمكن

تحببتها . إنها تدبّ القشعريرة في النفس لمدي واقعبتها . لم أشعر أبداً بمثل هذا الانفعال في مؤلّفه .

قد لا تحمل هذه الصرخة المحركة للمشاعر أي عنصر جديد لقصة جولدي دي إغلمون ، لكنها تستحضر بطريقة مؤثرة الألم الذي يمزق قلب المرأة التي حرمت فحاة من الحب ؛ وقد تعرّض بلزك لهذا الاعتزال الإرادي في قصص أخرى مثل جنة الرمان ، أو المرأة المهجورة ، أو الرسالة ، لكنه لم يحلّل في أي مكان آخر بمثل هذه الشفافية عواطف المرأة السيئة الحظ . لم يتناول أبداً بمثل هذه الحمياً مؤسسة الزواج ، القسّر الاجتماعي ، العاكس لقوانين الطبيعة . هي قطعة تظهر براعة بلزك ، واستحق عليها مراسلات هامة ، لكنها لم تتمكن من خلق مرحلة انتقالية مع اللقائين ، عامل آخر يخلّ بالتوازن الدقيق الذي قام في العام ١٨٣٢ : يعطي بلزك عنواناً لكامل الجزء ، القصة نفسها ، ويوضح فكرته في مقدمة مؤرخة ٢٥ آذار ١٨٣٤ ، وهو تاريخ كاذب يشير الاستغراب ، لأن تلك المقدمة تشير إلى نصوص لاحقة . توجد في مطلع الرواية هذه الوثيقة الثمينة لتاريخ المؤلف ، لكنها تضرّ ، في رأينا ، القراءة الغنيّة المتعددة التي يتيحها نصّ العام ١٨٣٢ ، مع مذكرة الناشر .

وجد بلزك نفسه ، مع إضافات الطبعة ١٨٣٤ ، قد دخل في رهان مستحيل على تحويل مجموعة قصص إلى رواية حقيقية . فقد توازن العام ١٨٣٢ ، ولم يعد يحظى هذا العمل برضاه . وأفضل دليل على ذلك تلك الطبعة الغامضة من العام ١٨٣٧ . حاولنا ونحن نضع على محكّ النقد أن نستخلص المشاكل التي ظهرت في تلك الطبعة وأن نجد إلى حدّ ما حلولاً لها . كان من المفري أن نرى فيها ؛ بحذف العنوان العام والمقدّمة ، دلالة على رغبة بلزك في العودة إلى مجموعة القصص . لكن يجب ، وفق ما حسبناه ، الامتناع بالقبول أن هذا الحذف قضية ظرف ولا يستجيب لرغبة متممعة ؛ والطبعة تدلّ بالأحرى على جهد لتابعة توحيد كليّ متعذر للمؤلف . في الموعد يحذف المؤلف العنوانين الفرعيين الأخيرين مقتصرّاً على ثلاثة تسميات ثانوية : الشابة ، المرأة ، الأم . بذلك ينتهي تقريباً التبدك المفاجئ في هذه القصة ؛ ولم نعدُ الخاتمة وهي نقطة الانطلاق في التكوّن ، ذات قبعة ، وموت اللورد

دي غرنغيل حادثة عرضية . فَنَسَقَ القصة هو مراحل حياة امرأة شابة . تتحوك الجهود بعد ذلك إلى اللقاء بين فتطراً على تلك القصة إضافتان هامتان ، تهدف الأولى إلى شرح موقف الأب (العبرة من كلمة الشرف مع طرفة فوكس) أما الإضافة الأخرى فتهدف إلى عدم استبعاد هرب هيلين (المقطع المتعلق بقراءة شيلر لكن مظهر المشجاة في ذلك القسم كان يضابق بلزك ويغيطه . إنه تنافر بأسف على اضطرابه لإبقائه في طبعة ١٨٤٢ . أخيراً ، ومن أجل هذه الطبعة يستخدم بشكل شبه نظامي طريقة الظهور المجدد للشخصيات الثانوية : فنجد السيدة دي ليستومير . لاندون محل السيدة دي بلورجي ، والسيدة دي سريري وأخاها السيد دي رونكروك يحلآن محل السيدة دي رولاوي والسيد دي فليسيل . كما تحل السيدة فيرمباني محل السيدة دي فيتا جليانو ، إلخ . . .

في طبعة فورن ، العام ١٨٤٢ ، حصل مجموع العمل أخيراً على عنوانه النهائي ، المرأة في الثلاثين وتناول بلزك نصه في تفسير أخير : وحُد اسم البطلة . هكذا اختفت التجسّات المختلفة للزوجين دي إغلمون التي كانت في السيد والسيدة دي فيوسنيل ، والسيد والسيدة دي فرنون ، والسيدة دي بالون . وقد كان هذا التحوُّك الأخير ضمن منطق تطوُّر المؤلف . لكن هل قدر بلزك جميع النتائج؟ لا يبدو ذلك ؛ لأن هذا التغيير شوّش كل التسلسل التاريخي الداخلي في الرواية . تبرهن بعض تنقيحات التفاصيل على أن بلزك أحسّ بهذه المشكلة ، لكن تعذّر عليه عملياً حلها ، لأن بداية المؤلف كانت محدّدة في الزمن ، ومرتبطة بشكل وثيق بأحداث تاريخية بحيث لا يمكن تعديل التاريخ ، والسنوات المنصرمة بين ١٨١٣ و١٨٤٢ لا تكفي لتطور حقيقي في حياة امرأة منذ انفعالها الأولى شابة حتى وفاتها أمّاً وجدة مذبذبة . حاول بلزك أن يبسط ويمدّ الزمن قدر الإمكان ؛ وتشير بعض التصحيحات النادرة التي أجراها على نسخته الشخصية التي أعاد النظر فيها ، العام ١٨٤٤ إلى استمرار تلك الرغبة في تحسين التاريخ ، فالتحوُّك لم يكن كاملاً ، ولا يمكن اكتماله ، فهو يتطلب دون شك تصحيحات أخرى أكثر أهمية ، وتوحيدها في



النبرة أيضاً، إضافة إلى حذف كل فصل اللغامين أو جزء منه . ولا نعلم إن كان بلزك قد اقتنع بالتصدي لهذا العمل . لكن المؤلف بقي قبل كل شيء ، مجموعة نُصص نحوكت بشكل غير كامل إلى رواية .

## المصادر والمواضيع

كُتِبَت الحكايات المختلفة التي تشكل الآن امرأة في الثلاثين بين العام ١٨٢٩ (بداية النص الأوك للموعود) والعام ١٨٣٤ (آلام مجهولة) . وقد استوحاها بلزك إما من قراءته ، وإما في قسمها الأعظم من تجاربه الشخصية وبالرغم من أن جولي دي إغلمون مختلفة في وضعها عن جولي ديتانج . فهذه متزوجة من رجل فقط تافه ، وزوج تلك شخص لطيف محترم . لا يمكن الامتناع عن ملاحظة بعض أوجه الشبه بين السير أرتور وسان پرو . فالأمر يتعلق بحبين متعذرين ، بسبب القسم الزاففي ، وهو لا يتفصم في هذه الحالة وتلك إلا بموت أحد الزوجين . وتأثير هوليز الجديدة ظاهر جداً منذ سطني ، رواية شباب بلزك ، ونصوص أخرى له ، وهو ما يزال مائلاً إذن في ذهن بلزك وتحت ريشته خلال سنوات ١٨٣٠ - ١٨٣٢ ، ولكن تبرز تأثيرات أدبية أخرى في امرأة في الثلاثين . فاللورد غرنفيل سمي أولاً . في المخطوطة . لورد جورج ستونون . بيد أن مذكّرات الدوقة دايرتس تعرض لتبيل طيب يحمل هذا الاسم ، ومن المعروف أن جورج ، لورد ستونون ، كان أسيراً في فرنسا ، بعد أن درس الطب في مونييه . ألم يتوجه جان جاك روسو ولورنس ستيرن ، وهما مؤلفان أثيران لدى بلزك إلى تلك المدينة ، وأقاما فيها مدة من الوقت طلباً للمعافاة من أوضاع صحية ضعيفة؟ .

تذكر بعض أفكار المؤلف حول أوهام العاطفة الغرامية بمؤلف ستنال حول الحب ؛ فباستثناء نهاية الأخطاء الأولى . ندل الأقسام الثلاثة الأولى من الرواية على موهبة تحليل متميزة يمتلكها بلزك ، وتكشف عن سيكولوجية رائعة للروح الأنثوية . بينما تراجع الأقسام الثلاثة الأخيرة . كما رأينا . أمام رغبة المؤلف في المأساة أو

المشجاة. غير أننا نجد فيها عدة مشاهد، وخاصة ذلك المشهد الذي يقوم فيه المجرم بتتوّم عائلة دي إغلمون مغناطيسياً ليليّ رغبات هيلين المقتنّة بالنظرة المغناطيسية، وهو يذكّر ببعض مقاطع من ملموث لمانتون، بينما يدفع اقتحام «سان فرديناند» من قبل قرصنة عطل إلى التفكير بواقعة القرصان الأحمر لقبتمور كوبر. أما المجرم الذي ردّ الحب إليه مكانته، فيحقّق التساؤل إن كان بلزك لم يستوحه من لارا أو من هانفرد بايرون، كما أمكنه أن يغترف من الزورق الشبح لهاين فكرة جذب هيلين الشابة لمفاسمته مصير القرصان.

غير أن التجارب التي عاشها بلزك هي التي قدّمت، رغم كل شيء، المواضيع الأكثر وضوحاً المعالجة في هذه الرواية الثيانية والجدابة في أن واحد، الملاي بالأمور المستبعدة وبأحاسيس تثير الإعجاب. وإذا كان اسم جولي يذكر باسم بظلة هلويزر الجديدة، فاسم عائلتها دي إغلمون يذكر بصهر بلزك السيد دي مونتيفل\*، زوج أخته لورنس المخيّب للأمال، تلك الأخت التي قضت نجسها وهي في الثالثة والعشرين من العمر معنّبة بزواجها. ومن المعروف أن بلزك لم يكن يخشى استخدام أسماء الأشخاص المقربين منه بعد إجراء تعديلات طفيفة عليها.

صاغ بلزك شخصية جولي دي إغلمون، مثل معظم شخصياته الروائية، من ذكرى عدة كائنات عزيزة عليه، لورد دي برني، والدوقة داهرنس، وخاصة المركيزة دي كاستري. وقد كُتبت قصة المرأة في الثلاثين خلال بداية مرحلة ذلك النوع من المغامرة الخطرة بين الكاتب وسيدة صاحبة سان جرمن الكبيرة. كان على الأم مجهولة أن توفّق بين هذين الكائنين المشبوبي العاطفة باستحضار الوفاء لذكرى حبّ كبير غيّب الموت فيه العشيّق، وصورة هنرييت دي كاستري ماثلة في كلا النصين. أما شارل دي فاندنس فيستحضر كل مايريد بلزك حيازته: الفصاحة، والنبل، ورقة العواطف، وحتى النجاح. ويحمل بلزك (أو يستعير) مثل شخصيته الروائية لقب أحد هذه البيوتات العريقة وشعار نيلها\* التي ستبقى أسماؤها مقترنة لمدة طويلة بمجد

• Aiglemont مقولب Montaigne (م. المترجم).

فرنسة» وهو مثل بطل الرواية يرنو إلى لعب دور سياسي، ويختبر «الدنيا» ويلاحظ الآخرين، ويحكم عليهم.

علم بلزك في الأيام التي كان ينشئ فيها إصبع الله أن أخاه هنري هو شمعة علاقة أئمة بين أمه والسيد دي مارغون، صاحب قصر ساشه؛ ووجد جرأه هذا الكشف تفسير الشعور العدائي الذي يخالجه باستمرار تجاه أخيه؛ بل ربما كان في تلك القصة ذكرى محاولة من هذا النوع، عرفها بلزك في طفولته، خلال نزعة على ضفاف اللوار، خاصة وأن إصبع الله هي القصة الأولى الأقدم عهداً، والأكثر قسوة، بين مؤلفات بلزك التي يُعبّر فيها عن موضوع الأخوين؛ وقد تبعها بعد ذلك على التوالي، الولد الملعون سم المارانا، وفيما بعد روايتان كبيرتان، الزنقة في الوادي والمصيدة، حيث طرأت تطورات أخرى على هذا الموضوع.

أمّا مصير جولي دي إغلمون، على الأقل ذلك العائد للام المذنبه، الملازم للأقسام الثلاثة الأخيرة من المرأة في الثلاثين، فإنه يذكّر بشكل غريب. بمصير السيدة بلزك الأم. كان للسيدة بلزك، على الأقل، علاقتان غراميتان خارج الزواج، عرف بهما بلزك: علاقة بالسيد دي هرديا الإسباني. ثم علاقة بالسيد دي مارغون، والد هنري. وقد أحبّت جولي أولاً اللورد غرنفيل الأجنبي، ثم شارل دي فاندنس الذي أنجبت منه ولداً. (وبلزك في قصة بريتش الكبرى ينسب إلى إسباني، السيد دي فرديا مغامرة ماثلة لمغامرة اللورد غرنفيل في الموعد. كان للسيدة بلزك خمسة أولاد: ثلاثة صبيان وبناتان. فقدت منهم صبياً لم يتعد مرحلة الطفولة، وهذا ما يحدث في قصة جولي. غدت السيدة بلزك أرملة بعد أن فقدت ابنتها لورنس؛ ثم خاب أملها بشكل قاس في ولدها هنري، ابنتها الأثير، وقضت شيخوخة حزينة. منها دون شك تولد لدى مؤلف الملهاة الإنسانية ذلك الإحساس بأن الأمهات المذنبات سيعاقبن في أولادهن ومن قبل هؤلاء الأولاد.

يجب أيضاً إمكان التنويه بالدور الذي يلعبه المنظر الطبيعي في امرأة في الثلاثين: مشاهد من مقاطعة تورين؛ تذكر مونكتور، «أحد هذه القصور الصغيرة،

[ . . . ] البيضاء، الجميلة، ذات اليربجات المنحوتة [ . . . ] أو سان- لانج الذي لانقص منافذه العظيمة أو الجلال؛ ومظاهر باريس، سواء في حدائق التويلري أو قرب غوبلنز، أو ضاحية سان جرمن؛ أو قصر السيد والسيدة دي فردون (أو دي إغلمون) الذي رآه بعض النقاد قَصْرَ السَيِّدَةِ دابرننس في قرساي. جميع هذه الأوصاف تشهد مرة أخرى على نظرة المؤلف الثاقبة وذاكرته البصرية المدهشة.

**المرأة في الثلاثين**، في شكلها الأخير، هي أولاً وقبل كل شيء حكاية امرأة حساسة، ذكية، جميلة، أخطأت في الزواج من ضابط ناهه وفظاً، ولقيت عقوبة فادحة على خطئها في حب دبلوماسي شاب تتوفر فيه جميع المزايا التي تنقص الزوج. إنه موضوع أثير على بلزك موضوع أولئك النساء المتزوجات استجابة للمصالح، دون خفقات القلب. ثم يجدن أنفسهن سريعاً فريسة نزاع بين الواجب والحب. خلال الفصول الأولى من الرواية تقاوم جولي دي إغلمون هوى السبر أرثور المحترم والصامت؛ ثم هوى شارل دي فاندنس العاصف اللب، وبجهل القارئ في نهاية الفصل المعنون في عمر الثلاثين، إن كانت جولي- التي يناديها الدبلوماسي الشاب بركة جولبيت. قد استسلمت للعاشق المتيم. ويبدو أن هذا الصراع بين احترام الروابط الزوجية ونداء القلب قد انتهت لمصلحة الأخير إذ نرى في القسم الرابع العشيقين يغدقان الحب والحنان على ابنتهما غير الشرعي المفضل على الابن الشرعي.

**المرأة في الثلاثين** هي، نوعاً ما، تعليق على فيزيولوجيا الزواج وإيضاح له. إنها الصيغة الروائية لبعض نصوص هذا الكتاب. وكل القسم الأول. الأخطاء الأولى (المعنون سابقاً الموعد) تصوير للاخطار التي تتعرض لها الحياة الزوجية نتيجة عدم إدراك الزوج، ثم الأعراض التي تشير إلى نفور امرأة من مثل هذا الزوج: لجوء المرأة إلى الأمومة لتعفي نفسها من الواجب الزوجي، تواطؤ الطبيب وصديقة الترتك، إلخ . . . نشهد بعد ذلك تلك الحرب البطيئة التي يتم التوصل في نهايتها إلى السلام الزوجي الذي يقتصر على الرضوخ والتسوية. المرأة في الثلاثين هي المؤلف، الذي يدافع فيه بلزك، أكثر منه في أي من مؤلفاته، عن قضية المرأة.

ويلاحظ فيه كيف يرى كل شيء من خلال عينيها، وهما خاصة عينا القلب، وكيف في استعراض عسكري لنابليون بسترعي ارتعاش الشابة العاشقة الانتباه، وكيف تختلف المناظر الطبيعية في نورين وفقاً لحالة جولي النفسية، وكيف تسيطر الوجوه النسوية، بشكل عام على الرجال وتحجبهم. حاول بلزاك عبثاً، تقييداً بالأصول، أن يدين في النهاية جولي، فهو متأثر بالانطباع المتولد لديه للتجرب على الانفتاح على الحب في عمر الثلاثين، ففي تلك السن يدرك الوضع البائس الذي يمكن أن يوصلنا إليه الزواج، وما تزال لدى المرأة الجراءة على أن تختار الحب والتفتح المشرق. وما يدينه بلزاك في بطلته هو الأم المذنبه لا الزوجة الخائنة.

استؤنف موضوع المرأة غير الموقفة في الزواج في فصل الألام المجهولة حيث لا نأسف جولي إلا على الإنكليزي الوسيم الذي لقي الموت من أجلها، وهذا الموضوع مستمر في فصل سن الثلاثين حيث لا وجود مطلقاً لشخصية الزوج؛ ووساوس جولي منحصرة في الحب المفقود. وليس في روابط الزواج الذي لا يكاد يذكر أو يشار إليه.

في آلام مجهولة، ترى جولي لانهتم بانتهها هيلين وتأسف لأنها لم تنجب ولداً غير شرعي، وفي إصيح الله واللقاءين تذهب إلى أبعد من ذلك وتعبر عن تفضيلها لابن الحب على حساب ابن الواجب. وكثيراً ما يتردد هذا الموضوع في نتاج بلزاك فلا نستطيع أن نمتنع عن التفكير بتلك الطفلة الصغيرة التي أنجبتها ماريما دو فرسناي قبل كتابه آلام مجهولة بوقت قصير، والتي أحبها بلزاك وتعلق بها مثل ابنة له.

ويتناول الكاتب فيما بعد هذا الموضوع في الزنقة في الوادي، ليؤكد مرة أخرى أيضاً على وجوب إنجاب الولد عن حب، ولا كان نوعاً من ملامة حية. بيد أن النزاع بين الولدين سيغلب إلى مأساة. فالبكر، هيلين (في النص الأول، فرانسيسك) تنقاد إلى نزوة تقتل خلالها أخاها الأثير. في الفصل الأخير المعنون في البدء الكفير عن الذنب (وهو الآن شيخوخة أم مذنبه)؛ يبين بلزاك أن ابن الحب

كان دائماً بالنسبة لأمه موضع إيثار، ومحطّ أحد هذه الميول الفطرية التي لا تنفسر إلا بأنها تفوق الحدّ.

بتضاعف التباين بين ابن الحب وابن الواجب بتزاع الأم والابنة، وفي اللقاءين يعرض بلزك «بروداً» في مودة هيلين لأمها». ولن يجد ناقد سيكولوجي أبة صعوبة في أن يميّز في هذا النص عقدة الكترا\* مما يجعل الشابة تحسّ بشعور مبهم بالذنب. هذه الغيرة من الابنة تجاه أمها - الحائزة على حب الأب - عنصر جريء وجديد يشهد على حدس بلزك السيكولوجي؛ وقد تجرّأ في فيزيولوجية الزواج على التحدث عن غيرة أم من ابنتها الشابة الجميلة. وقد شعر هنا بالحاجة إلى اقتراح، ما يشبه فرضية، تقضي بوجود «سرّ محتمل» في حياة تلك الأم، رغم أنّها «أمانة لواجباتها بمتهى الورع». ستتيح الفرضية، فيما بعد، لتطعم ذلك الوضع بفكرة الأم المذنبة. كما أن ابنة الحب ستتعرض بدورها لسوء الطالع الذي يشغل على وجودها. وستشعر أنّها معزولة عن المجتمع بذنبها، ولا يمكنها أن تكفّر عنه إلا بأن تنفذ بدورها كاتناً آخر على حافة الهاوية. لهذا السبب انجذبت هيلين\*\* مباشرة من قبل الخارج عن القانون المستجير بوالدها بعد أن ارتكب جريمة شنعاء. كان هذا المجرم قد تصرف، على نسق راسكولنيكوف، ليغيّر سلطة مدنيّة غير مستقرة. فالمجتمع هو الذي أجبر ذلك الشخص على أن يكون خارجاً عن القانون.

نجد شخصية الرجل ذي النظرة الساحرة في عديد من روايات بلزك. إنّه يتعلّق بإحدى أمنيات الكاتب: الإغراء بالنظرة، والسيطرة على الآخر بواسطة قوّة مغناطيسية. يؤمن مؤلف الملهمة الإنسانية بأنّ الإنسان قادر على أن يتحرك ضمن وسط منير وهو يلقي حوله طاقة مهيمنة. ألم يوهب كورنتن، وفرانغوس، وقوترن قدرة خارقة؟ ألم يستخدم سارا زين «قوة شبه شيطانية» ليتسلط على زامبينيللا عن

\* الكترا: إحدى طلائ البنولوجية الإغريقية، ابنة أغانموتون. وعقدة الكترا تثبت شهواني في البنت على والدتها. (م. المترجم).

\*\* هكذا ورد هذا المقطع في النص وهو يبدو لنا متناقضاً: فهيلين ليست «ابنة الحب»، إنما هي «ابنة الواجب» وشعورها بالغرلة ناتج عن أنّها سبت قتل أخيها. (ملاحظة المترجم).

بعد؟ ألم يرشَقُ رودولف فرانسيسكا «بنظرة ثابتة، ثابتة، جذابة طافحة بكل الإرادة البشرية» لتتعرف عليه (في قصة السيرة الذاتية التي كتبها اليرسافاروس). وعند ذكر البصَّارين، سيؤكد بلزك في رواية السيب بونس أن الفكرة «قادرة على أن تطلق أشعة ذات شدة خارقة» وفي لويس لامبر بصرح دون مواربة: «يمكن للإرادة بحركة تقلص كلية في الكائن الباطني أن تتجمع، ثم تنقذف بحركة أخرى إلى الخارج، بل وأن تحل في أشياء مادية». هكذا يجب أن تمتلك القوة الكلية في إنسان خاصة التأثير على الآخرين، وأن تُغذَّرَ روحاً غريبة عن روحهم، إن لم يدافعوا عن أنفسهم ضد تلك العدوانية. [...].»

لكن مثل فوترن، يضع القاتل، والقرصان، وكل بطل ملعون، نفسه خارج القانون، لأن القوانين خداعة، وظالمة، ومستبدة. كذلك تكافح جولي ضد الأعراف التي تجعل من الزواج «بغاءً شرعياً»، تتحدى ابنتها هيلين المجتمع بالزواج من قاتل، يرى نفسه في الحقيقة، محققاً للعدل. لكن اليس المجتمع في النهاية هو الأقوى؟ لأن هيلين وجولي في آخر الأمر تعاقبان بقسوة. يشير بيير سيثرون، عن حق، في المقدمة الرائعة التي وضعها لامرأة في الثلاثين إلى أن هذه الرواية، مع ذلك، مؤلف أخلاقي<sup>(١١)</sup>. فالأم المذنبه لم تعاقب فقط بأولادها الشرعيين الذين فقدتهم واحداً بعد الآخر، إنما أيضاً بأولادها الأثيرين: تركها هيلين لتلحق مغامراً. وتلقى بدورها عقاباً رهيباً. وتقتلها موانا بكلماتها المماثلة لطعنات الخناجر. هذه الرواية التي تمجد الحب، وتخص الابن المولود خارج العلاقة الزوجية بالحظوة والسعادة تنتهي بعبرة أخلاقية: يحمل الإنسان أخطاءه إلى حافة القبر.

(١١) دار نشر غارنيه، فلانماريون، ١٩٦٥ صفحة: ٤٦.

مكتبة بغداد

مكتبة بغداد  
مكتبة بغداد  
مكتبة بغداد  
مكتبة بغداد

مكتبة بغداد  
مكتبة بغداد  
مكتبة بغداد

مكتبة



## الفهرس

### الصفحة

٣	الإهداء
٥	مقدمة طبعه بيشه BECHET
٧	I - الأخطاء الأولى
٧٦	II - ألام مجهولة
٩٥	III- في عمر الثلاثين
١٧١	IV- إصبع الله
١٣١	V - اللقاءان
١٨٥	VI- شيخوخة أم مذنبه
٢٠٣	دراسة حول الرواية والمؤلف : إعداد برنار غانبيين ، وريته غيز

الطبعة الأولى / ٢٠٠١  
عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة



المرأة في الثلاثين حكاية امرأة حساسة، ذكية، وجميلة، أخطأت في الزواج من ضابط تافه وفظ، همه أن يستمتع بمفاتيح زوجته، دون الالتباه إلى مراعاة عواطفها وأحاسيسها في بدء الحياة الزوجية.

إنها رواية تهدف إلى تصوير الأعراض التي تشير إلى نضور الزوجة من علاقة تتجلى فيها أنانية الزوج ولا مبالاة فتسعى إلى الأمومة لتعفي نفسها من الواجب الزوجي.

تنجب ابنة لاتشعر نحوها بأية عاطفة -إنها ابنة للواجب- تريد المحافظة على قدسية الرباط الزوجي لكنها تستجيب لنداء حب عذري مع نبيل انكليزي تُضجع به، ثم تسقط في حب شهواني مع دبلوماسي شاب تنجب منه ابناء غير شرعيين؛ وتعاقب بقسوة على أخطائها؛ تدفع الطفلة، ابنة الواجب، أخاها -ثمرة الحب المحرم- إلى النهر ليموت غرقاً، وتكبت الأم المها والابنة إحساسها بالذنب لتهرب في عمر الشباب مع مجرم قاتل غدا قرصاناً شهيراً. ثم تقع ابنة الحب الثانية -موانا- في غرام ابن عشيق الأم- الأخ غير الشقيق لموانا- وتقتضي الأم كمدأ وحسرة.

إنها رواية أراد بلزك منها أن يقنع قراءه - وقارئاته خاصة- بأن السعادة لاتوجد إلا في احترام العائلة والزواج.

الطبعة الأولى: مطابع وزارة الثقافة

دمشق ٢٠٠١

في الأفطار العربية ما يبادل

٢٤٠ ل.س

سفر السحرة داخل القطر

١٢٠ ل.س